

محمّد حسّين هيكّل

المفاوضات السّريّة بين العرب وإسرائيل

الكتاب
الأوّل

الأسطورة والإمبراطوريّة والدّولة اليهوديّة

مُحمَّد حَسَن بن هِيكَل

المفاوضات السِّرِّيَّة
بَين العَرَب وإِسْرَائِيل

١


١٩٩٦/٤/٢

صهتج

المجلد الثاني
العدد ١٢٤
٢٣٤٦/٥

دار الشروق

الطبعة الأولى
مارس ١٩٩٦



بيت جرش - فلسطين المحتلة

دار الشروق

استكمالاً للعتق مام ١٩٦٨

الطبعة: ٨ شارع مدونة للصوى - رابعة المدونة صرب: ٣٣ البانوراما - مطبعة نصر

مكتب: ٢٩٢٣٣٩٨ - ٢٩٢٣٣٩٨ لكتن: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

مطبعة: صرب: ٨٠٦٤ - مكتب: ٣١٨٨٨٩ - ٨١٧٢١٣

لكتن: ٨١٧٢١٣ (٠١)

اهداءات ٢٠٠١

١. علاج راجع

القاهرة

مُحمَّد حسن هيكَل

المفاوضات السِّرِّيَّة
بَيْن العرب وإِسْرَائِيل

١

الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية

□ لماذا لم يفاوض العرب ؟

□ كيف فاضلوا ؟

صوتج

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

محتويات الكتاب الأول

التاريخ يسافر إلى المستقبل

٧	المقدمة
١٥	مدخل

الفصل الأول : القوة والحق!

٢١	١ - "مقدسات : محرمات"
٢٧	٢ - ثابليون
٣٥	٣ - بريطانيا
٤١	٤ - محمد علي
٤٧	٥ - بالمرستون

الفصل الثاني : خريطة تبحث عن أرضها!

٥٥	١ - روتشيلد
٦١	٢ - نذرا إلهي
٦٧	٣ - ميرتزل

الفصل الثالث : "الساحل" و"الداخل"

٧٩	١ - ماكماهون
٨٦	٢ - عزيز المصري
٩٢	٣ - مارك سايكس
١٠٠	٤ - الشريف حسين
١٠٧	٥ - لورانس
١١٣	٦ - بلنور
١١٨	٧ - فيصل
١٢٥	٨ - لويد جورج

الفصل الرابع : ممر تعود إلى الساحة

- ١٣٥ ١ - الملك فؤاد
- ١٤١ ٢ - الملك فاروق
- ١٥١ ٣ - الحاكم حاييم ناحوم
- ١٦٣ ٤ - فرانكلين روزفلت
- ١٧٢ ٥ - مصطفى النحاس
- ١٨٥ ٦ - إيلياش روزفلت
- ١٩٨ ٧ - ترومان
- ٢٠٦ ٨ - بيفين

الفصل الخامس : من يملك القوة؟

- ٢٢١ ١ - بن جويون
- ٢٣٤ ٢ - موسى شروتوك
- ٢٤٨ ٣ - القراشي باشا
- ٢٥٦ ٤ - بن جويون (٢)
- ٢٧٢ ٥ - برنادوت
- ٢٧٧ ٦ - آللون
- ٢٨٩ ٧ - ساسون

المقدمة

هذه الطبعة من هذا الكتاب عن "المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل" واجهت ظروفًا غير مألوفة ، أو على الأقل غير عادية ، وكان من نتيجة هذه الظروف أن الطبعة الإنجليزية الأصلية من هذا الكتاب صدرت في لندن يوم ٨ يناير ١٩٩٦ ، بينما تأخرت الطبعة العربية ، وكان المقرر لها أن تسبق ، وذلك تقليد حرصت عليه منذ أن سمح لكتبي أن تطبع وتصدر من القاهرة بعد قرابة عشر سنوات من المنع والحظر كنت فيها أمارس عملي من وطني دون وسيلة لنشره في هذا الوطن .

وطوال تلك السنوات من المنع والحظر كانت كتبي تطبع وتصدر من لندن ونيويورك ، ومن باريس وطوكيو ، ومن مدريد وروما ، وغيرها عبر القارات - وفي نفس الوقت كانت هناك طبعة عربية لهذه الكتب تخرج إلى طلابها من خارج القاهرة ، كذلك فإن ترجمة هذه الطبعة وتقديمها إلى القارئ العربي كان يقوم بهما غيري ، وكنت أقول لنفسي وللصالحين "إنه يصعب عليّ أن أكتب الكتاب مرتين" ، مرة باللغة الإنجليزية للنشر الدولي ومرة باللغة العربية ، خصوصاً وقد وجدت أنني عندما أتمرض لترجمة أعمالى إلى العربية لا أكتفى بالترجمة وإنما تدفعني اهتمامات القارئ العربى إلى الأبعد بالزيادة ، وإلى الأوسع بالتفصيل ، وذلك يجعل الكتاب الواحد بالفعل كتابين .

ولقد شجعتنى على ترك مهمة الترجمة إلى العربية لغيري ، أن مترجمين مكثرين تفضلوا وأعطوا لأعمالى من جهدهم ما يكفلها وأكثر ، وعلى سبيل المثال فقد قام الأستاذ محمد حقى ، زميلى فى "الأهرام" وقتها ، على ترجمة كتاب "وثائق القاهرة" ، كما قام الصحفى اللبناني الكفء الأستاذ سمير حطا الله على ترجمة كتاب "الطريق إلى رمضان" ، ثم قام الصديق المسالم الدكتور عبدالوهاب المسيرى على ترجمة كتاب "مدافع آية الله" ... وهكذا. وكانت تلك أفضالاً ومكرامات سعدت بها وعرفت لها قدرها . وظل الأمر على هذا النحو حتى جاء كتاب "خريف الغضب" ، ونظراً لحساسية موضوعه فقد أثرت ترجمته لنفسى ونفسى إلى اللغة العربية ، ولم يخطر ببالي أننى بذلك أرسيت سابقة لم أعد أستطيع التخلي عنها أمام القارئ العربى . وأغرائى على ذلك أكثر أن كتبي رفع عنها المنع والحظر فى مصر وأصبحت مطبوعة منشورة فيها بداية من سنة ١٩٨٥ .

ومنذ ذلك الوقت صدرت لى كتب عديدة كان كل واحد منها فى واقع الأمر كتابين :
طبعة إنجليزية هى الأصل لكل الترجمات ، وطبعة عربية أقوم عليها بنفسى ، ويتسع
مجالها وتزيد تفاصيلها ، وتلتحق بها وثائقها ، حتى يكاد الكتاب العربى أن يصبح بالفعل
شيئا مختلفا عن الأصل الإنجليزى ، وإن بقى الجوهر والسياق والاتجاه واحدا فى الحالتين.



وفى هذا الكتاب عن "المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل" تصرفت كما جرت عليه
العادة منذ سنة ١٩٨٥ وحتى الآن .

تقدم "الأهرام" مبادرا بطلب الحقوق العربية كلها ، سواء للنشر الصحفى أو على شكل
كتاب . وتحملت حتى من قبل أن تجيء موافقة دار "هارير كولينز" التى تملك التصرف فى
أى تعاقد . وكنت واثقا على أى حال أنهم يعرفون من تجارب سلكت أنه حين يكون الأمر
متعلقا بـ "الأهرام" فإن الموافقة تسبق التفاصيل بصرف النظر عما تقول به أصول صياغة
العقود.

واستعدت الطبعة الإنجليزية من الكتاب للصدور من دار "هارير كولينز" ، ومعها الطبعة
اليابانية فى نفس الوقت ، لكن الطبعة العربية التى ترجمت نصوصها بنفسى وتوسمت فيها
وزدت عليها وألحقت بها وثائقها . واجهت ما أشرت إليه من ظروف غير مألوفة ، أو على
الأقل غير مألوفة ، وحاولت تقدير الدواعى وأظننى فعلت مستجيبا لمشاعر وولادات تملو فوق
الحقوق والعقود ، وحافظا لصلات وصداقات تسبق فى حسابى أى حساب.

ولقد أضيف إلى ذلك أننى لم أطلب تفسيراً ولا تفصيلا ، وهذا لى أن الطلب قد يحمل
شبهة إلحاح لا احتاجه أو شبهة ضغط لا أبتغيه .



ولعدة أيام كان أمامى عرض لإصدار هذه الطبعة العربية من بيروت ، وعاودتنى ذكريات
أزمة المنع والحظر ، وأظن أن ذلك جعلنى أتردد.

إن بيروت كانت وما زالت كريمة مع ما أكتب ، حالية به وحالية عليه ، وهى تظل فى
كل الأوقات مركز إشعاع عربى يسامر مركز القاهرة وبغضاهيه . لكن الأمر هذه المرة تخالطه
اعتبارات نفسية من نوع آخر .

لم تكن اعتباراتي النسبية تتعلق ببيروت ، من حيث هي بيروت ، وإنما كانت تتعلق بإحساس يخشى مظنة قبول طوعى بما يمكن أن يتبدى ولو بالرمز أو بالشكل درجة من درجات النزع والحظر على عمل يكتب فى القاهرة ثم يصدر وينشر خارجها كما حدث من قبل .

ولم من هذه النقطة بالذات ، أننى رحبت وسعدت بمرض من "دار الشروق" لطبع الكتاب ونشره فى مصر ، ومنها إلى بقية الوطن العربى ، الذى لا أفرق فيه بين بلد وآخر عن إيمان عميق بأمة واحدة لها كل خصائص الأمة الواحدة ، بما فيها ذلك التنوع الخلاق الذى يميز الأمم العظيمة

ويهدأنى إلى فكرى - دون ضرورة لرسم مسار التناهى هنا - سؤال كثيراً ما يواجهنى به أصدقاء فى الفكرة والكلمة ، يسألوننى : "لماذا لا أكتب بانتظام فى الشؤون الجارية ؟" وفى العادة فإن ردى يقتصر على عبارة عامة مرسلة لأن واقع المشكلة التى تواجهنى فى الكتابة بانتظام عن الشؤون الجارية فى مصر معقد بأكثر مما يظهر على السطح . ذلك أن الصحف التى تصدر فى مصر الآن توصان : نوع يسمى بالصحف القومية ، ونوع يعرف بصحف حزبية.

وأفهم على نحو ما أن كتابتى بانتظام - أو بغير انتظام - فى الصحف القومية قد تكون مسئولية ومخاطرة بالنسبة للقائمين على أمورها ، وذلك ليس من مطالبى . ثم إن الكتابة بانتظام فى الصحف الحزبية تبدو لي استعارة لهيئة ليست لي ، وذلك ليس من حقولى .

وفوق ذلك - وربما قبله - فإنه يخطر لى أننى كتبت كثيراً وما زلت أكتب أحياناً - وتكلمت طويلاً وما زلت أتكلم مرات - وقد يكون مناسباً أن أترك المجال لآخرين وأن أقرأ مع القارئ وأن أصلى مع السامعين . ولعله يرضينى أن يسأل أحد : "لماذا لا يكتب هذا الرجل بانتظام ؟" خير من أن يسأل أحد : "لماذا يكتب هذا الرجل بانتظام ؟" !

أكرر ذلك برضى كامل ، ومودة خالصة مع الزمن وناسه ، فلقد قلت كتبى فى كل العصور والأطرواف ، وفى كل الأحوال فإن العالم ملقوح أمامى وسماواته فسحة ورحبة .



أبتذل من هذه المقدمة التوضيحية إلى هذا الكتاب نفسه : "المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل" ، فأقول إن موضوعه كما هو باد من أول نظرة ومن مجرد العنوان صعب وسعير . لكن قصته يجب أن تروى وأن تلح روايتها الآن وهذا هو المنصطف من التاريخ العربى ،

وخشيتي أن عواصف الحرب والسلام أخذت الأمة من حلقها وسحبها إلى بعيد بحيث اختلطت الحقائق بالأوهام والوقائع بالخيال ، وضاع المعنى أو لعله انتحر كما ذكرت مرة ١

وعلى نحو ما فقد قدرت أنه ربما كان مفيدا ، وقيل أن تتحرك القوافل على الدروب ، أن تطل الأمة على مشهد كامل للمواقع التي تتف قرب تخومها اليوم وتبين كيف وصلت بها الحوادث إلى هذه التخوم ، ذلك أنه من الضروري للألم أن تعرف عند كل موضع من مواضع تاريخها كيف وصلت إليه ، ولا بأس بعدنا من أن نتواصل سيرها على الدروب طالما أنها تعرف من أين هي قادمة وإلى أين هي قاصدة ؟

ولعل هذا الكتاب في تركيبته العامة أن يكون نوعا مما يسميه المسكبيون بـ : "خطة الرسل" ، وفي نموذج مجسم (ماكيت) بالكنتل والرافات لمباين الصراع التي يخوضونها بحيث تظهر أمامهم - وإن بحجم مصغر - تضاريس أرض الواقع الذي تجري حركتهم عليه ، ومن ثم يتعرفون بوسائل النظر والتفاهم واللمس على كل المجالات المتاحة على الساحة ، ومن أين الداخل والخارج ، ومن أين التقدم والكتف ، أو التراجع والانسحاب إذا طرأ ما يهدو إليهما .

إن الفصول الأولى من الكتاب هي بالفعل أسفله ما تكون بـ " خطة الرسل " - نموذج مجسم (ماكيت) للمباين التي جرت عليها " قصة المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل " .

ثم إن نفس هذه الفصول الأولى تتعرض أيضا لنقطة هامة ، إذ تجيب على سؤال كامن في عنوان الكتاب ذاته ، وهو : " لماذا كان مطلوباً أن تجرى أية اتصالات أو مفاوضات بين العرب وإسرائيل من وراء حجب واستار ؟ "

ومن الإجابة على هذا السؤال من حتمية السرية وضرورتها ، يصبح ممكناً أن تبدأ وتتصل وتتداعى فصول القصة من أولها ، إلى العقد المستحكمة فيها ، إلى النهايات المدروسة لها ، في سياق متصل يحاول أن يصل إلى الحقيقة أو يقاربها - مدركاً أن هذه الحقيقة ملك الناس لأنها وسيلتهم إلى المعرفة ، على أساس أن المعرفة هي أهم عناصر الإرادة التاريخية لدى الشعوب والأمم .



انتقل إلى نقطة ثالثة لأقول إن " المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل " قصة واحدة ، لكنها قصة طويلة ، والأبطال - إذا صدق وصف البطولة - كثر .

والواقع أن الظروف والأجواء التي أحاطت بالقصة ، امتدت عبر سنوات طويلة تعاقبت عليها قوى ودول ، وأحيانا قبائل وأسر حاكمة أو مظالمة بعروض .

في وقت من الأوقات كانت المفاوضات السرية بين بريطانيا وبين الحركة الصهيونية . وفي وقت آخر كان التفاوض بين الإمبراطورية العثمانية وبين الحركة الصهيونية . وفي وقت ثالث كانت المفاوضات بين النازيين وبين الحركة الصهيونية . ثم اتسعت الدائرة فدخلت فيها مصر مع المرحلة الأخيرة من العصر الملكي .

ثم جاء وقت وقعت فيه للمسئولية - أو معظمها - على مصر ، وكان ذلك بالدرجة الأولى في أعقاب ثورة ١٩٥٢ . وكانت هذه المرحلة المصرية حقيقتين ، حقبة قادها "جمال عبدالناصر" ، وأثناءها جرت محاولات لكن الاتصالات والمفاوضات السرية استحالَت لأن مصر في ذلك الوقت كان لها دورها في قيادة حركة قومية عامة شملت قضية فلسطين ، وغيرها من قضايا العمل القومي العام . وفي هذه الحقبة لم يكن في استطاعة مصر أن تتصل أو تتفاوض لأسباب كثيرة أولها موقف مبدئي يرى التناقض التاريخي بين المطالب المتصارعة ويحاول جاهدا أن يلائم حركة موازين القوة لصالحه ، رغم المحاذير والمخاطر . وثانيها أن الحركة القومية العامة فرضت أحلامها وطموحاتها ، وهي أحلام وطموحات كان من الصعب على مصر حيالها أن تقدم على شيء من وراء ظهر جماهير عريضة تعبّر مصر عنها وتتودعها من حيث هي تعبّر عنها . وثالثها أن هذه الحركة القومية العامة دخلت في نزاع مع القوى الإمبراطورية ، وكان هذا الصراع شاملا وهائلا ، وكانت إسرائيل موجودة في خطوط الجانب الإمبراطوري من النزاع وطرفا في عملياته ، وبالتالي فإن الخطوط كانت قاطعة .

كان هناك التزام مبدئي ، وكان تلهيد الجماهير الواسعة من المحيط إلى الخليج شاملا إشغالها لهذا الالتزام .

ولقد تلت ذلك حقبة مصرية قادها الرئيس "أنور السادات" ، وقد تصرف ، وبمعه آخرون ، بظن أو وهم أنه "سلام" ، ويطن أو وهم أنه "صانع القضية المركزية لكل العرب" ، ويطن أو وهم أن "زعامة مصر للعالم العربي" تعطيه الحق في أن يتصرف . واعتقادي - وقد يكون لغيري رأي مخالف - أن هذه الظنون والأوهام كانت هواء ، لكنها في نفس الوقت كانت تحريضا وهواية من رفاق له خطر بهائهم أن الصراع العربي الإسرائيلي سبب سهرهم وأرقهم ، وقد آن لهم أن ينأموا مقترعين وأن يستيقظوا هائنين!

ولما يظهر من فصول القصة فليس مؤكدا أن ما جاء في النهاية "سلام" . كذلك ليس مؤكدا أن القضية المركزية لكل العرب استطاعت كثيرا من كل ما جرى ، بل إن ما تنازلت إليه القضية المركزية لكل العرب يمد تأثيره الآن إلى صميم الروابط التي يمكن أن تشكل جامعا لإرادة الأمة إزاء قضاياها ، بل إزاء مصائرنا!

وكذلك فليس مؤكداً أن مصر فيما تصرف فيه أدت دورها العربي بما يحفز مقوماته .
والحاصل - في هذا الشأن - أنه عندما تكون سياسة مصر أن تقود العالم العربي إلى صلح كلفنا
كان وكلفنا اتفاق مع إسرائيل - فإن سطوة الولايات المتحدة تستطيع أن تسوق الدول العربية
إلى هذه السياسة بطريقة أسرع وأكثر لا تحتاج إلى مصر دوراً أو زعامة !

وعندما مفتت مصر على طريق الاتصالات والمفاوضات السرية مع إسرائيل ، وتوصلت إلى
ما توصلت إليه ، فإن العالم العربي الذي انكفأ جامعه ، لم يترك للفلسطينيين خياراً غير أن
يجربوا بأنفسهم وفي أسوأ الظروف . وجربوا فعلاً ووصلوا إلى أواسلو وتوابعها في القاهرة
ووافظن مروراً بهزات وقعت لهم على مساحات شاسعة في المنطقة ما بين بيروت وتونس ،
وطهران والجزائر ، واستكهولم وجنيف ، وغيرها !



ولى قصة طويلة ومتواصلة من هذا النوع ، ومقدمة بالخفايا والخبايا على هذا النحو ،
وتدقيقها وتوثيقها مطولين وشرعيين إلى هذه الدرجة - فإن قصة "المفاوضات السرية بين
العرب وإسرائيل" اتسعت بحيث يمكن أن تصبح حملاً ثقيلاً على اهتمام قارئها وعلى أصابعه
أيضاً . وكان الحل الوحيد لهذا الحمل الثقيل تقسيم الكتاب إلى أجزاء تصدر متوالية . ومن
حصن الحد أن سهاق القصة نفسه كان يوحى بثلاثة أجزاء منفصلة متصلة من القصة :

١ - جزء يبدأ من دواهي السرية ، ويتابع تداخل الأساطير مع الإمبراطورية ، واختلاط
الديانات مع الصناعات ، وصراع المحرمات مع المقدسات ، وصدام الحقوق مع الأسلحة ،
بحيث تظهر مقدمات وأرضيات وخلفيات الساحة العامة التي جرت وتجرى عليها المفاوضات
السرية بين العرب وإسرائيل .

٢ - جزء يركز على الحقبة المصرية : عصر "جمال عبدالناصر" والمحاولات التي جرت
فيه لاختيار درجة حرارة المياه وقياس سرعة تياراتها - وعصر "أنور السادات" حيث جرت
تجربة القفز والسباحة مع التيار أو ضد التيار .

٣ - جزء يصل بالقصة إلى مرحلتها الفلسطينية التي توهمت فجأة مثل شهاب ظهر
بسرعة وسط شهاب الشمال في "أوسلو" ، ثم انفجر وراحت شظاياه وما زالت حتى الآن
تتدحرج على ساحة عربية وإقليمية ودولية جهاشة بالملف واللؤس .

وتتضمن كتاب واحد إلى أجزاء متعددة ليس جديداً على المكتبة العربية ، خصوصاً حينما
تدعو إليه وتفرضه حقائق عملية . فالهبة الإنجليزية من "المفاوضات السرية بين العرب
وإسرائيل" صدرت في ٥٧٢ صفحة ، ولكن الطبعة العربية تصل بالكتاب في مجمله إلى أكثر

من ١٢٠٠ صفحة تصاف إليها مجموعة الوثائق التي أريد أن أضعها تحت نظر القارئ العربي، بينما الطبعة الإنجليزية - وغيرها من الطباعات الأجنبية - لا تحتاجها .
 هكذا قرر قرارنا على ثلاثة أجزاء متتالية يصدر أولها هذا الربيع من سنة ١٩٩٦ ، ويصدر آخرها قبل الخريف من نفس السنة .
 وكل رجائي أن يتسع صدر القارئ ويصبرهم لهذا الترتيب الذي لم يكن منه بد .



بقي أن اتقدم بالشكر والعرفان لكثيرين لهم همدى ما أشكركم عليه ، وأشكرهم بفضلهم فيه ، ويهنئهم كثيرون من الساسة وصناع القرار في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية ، لم يدخلوا بولت طلبته منهم ، وأخص بالذكر واحدا منهم كان يوتى أن أعديه النسخة الأولى من الطبعة الفرنسية للكتاب حين ظهر ، لكنه لسوء الحظ أراد أن يفادر دنيانا مسرعا في مشهد مأساوى يجمع بين نهضتين : إرادة الحياة وإرادة الموت - قبل صدورها ، وأعنى به الرئيس الفرنسي الراحل "فرانسوا ميتران" . وكان "ميتران" قبل رحيله قد أعادنى آخر جزء أتبه من مذكراته كانها بخط يده على الصفحة الأولى بعد الغلاف كلمات رائعة ودافقة^(١) . وكان منأى أن أبادله كتابها بكتاب - كما حدث مرات من قبل - لكن المقادير حكمت فوق كل الأماني وسبلت .

كان هناك أيضا كثيرون من الرؤساء والساسة العرب والمصريين وصل كريمهم معى إلى ملتقاه ، ذلك أن بعضهم لم يكتف بأن يفسح لى من وقته ، وإنما أضاف إلى ذلك أن أتاح لى أوراقه الرسمية والخاصة دون قيد غير ما أرتضيه بالكتابة مراعاة للظروف .
 هناك أيضا تقدير ضرورى أريد إضافته وهو موجه إلى قسم المعلومات بمؤسسة الأهرام : رئيسه الأستاذ أبو السعود إبراهيم وكل مساعديه بغير استثناء . فلندما كنت أريد مراجعة مناسبة أو تاريخ أو اسم كانت استجابة الجميع رجع صدى لا يتكأ ولا يتأخر .

Gen. Mohamed Heghal
 en: amir el hermonia
 ca: l'hermonia, p. 12
 de: l'hermonia, p. 12
 Finlay McMonand

(١) كتب الرئيس "فرانسوا ميتران" إهداء بخط يده وتوقيعه على آخر جزء صدر من مذكراته قال فيه ما ترجمته الحرفية :
 " إلى محمد هيكمل تسيورا عن الصحافة والاحترام أقدم لك هذا الكتاب آملا أن تجد فيه مجالات للاطلاع مفكرة يملأ
 فرانسوا ميتران "

هناك كذلك شكر من نوع خاص أوجهه إلى أسدقائه وزملاءه في واشنطن أتاحوا لي مرة أخرى فرصة استخدام قانون حرية المعلومات في الولايات المتحدة . وفي هذه المرة فقد أمكن الحصول على وثائق كثيرة عربية وإسرائيلية ، فضلا عن الوثائق الأمنية ، وكان بعضها من وثائق وكالة المخابرات المركزية . والذين يعرفون درجة السرية التي تتعامل بها الوكالة مع وثائقها يدركون أى حجم من الجهد كان لازما للوصول إلى الخبايا والمكامن .

يبقى أن أذكر أخيرا عن امتناني وإعجابي بكل هؤلاء الذين أعطوا جهدهم بإخلاص لنشر الكتاب بسرعة وكفاءة ، صادوا عن القاهرة ، وذلك بالنسبة لي مطلب شال وعزيز مع تقى وإيماني واعتزازي بكل مركز من مراكز الفكر والتنوير على الساحة الواسعة لهذه الأمة الواحدة...

محمد حسنين هيكل

مداخل

هذا الكتاب محاولة واسعة للرد على سؤال من بين الأسئلة التي أحاطت بالصراع العربي - الإسرائيلي من بداياته ، ورافقته في مختلف مراحل تطوره ، وتناحلت منه ، ولا تزال .

والسؤال الذي يتعرض هذا الكتاب لمحاولة الرد عليه هو :

لماذا كانت الحرب قديمة ؟ وظل السلام بعيداً طوال قرن من الزمان ؟ .. ولماذا جاء السلام - إذا كان ما جاء سلاماً - في هذه الظروف ؟ وبهذا الشكل ؟ وبهذه الوسائل ؟ .. ولماذا كان يجب أن تكون المحاولات من أجل السلام في الخفاء ، وتحت سائر الظلام ، في حين أن السلام بالطبيعة أمل يتمناه الناس ، والأمل بالطبيعة نور وضياء .

هذا هو السؤال . وأما الإجابة عليه فهي محاولة مقدمة باحترام وحب واعتزاز ، إلى أجيال جديدة من شباب هذه الأمة العربية ، وبالذات في مصر . وهي مرفقة في النهاية بكلمة اعتذار إليهم جميعاً ، ذلك أن الكثير مما تحويه هذه الصفحات ، يصعب تقديمه إليهم باستعارة عبارة "ونستون تشرشل" المأثورة : "لقد كانت تلك أروع لحظات عمرنا"!

لكن الأمل غالب على اليأس ، وهذه مفة الخالق على خلقه حينما أعطاهم نعمة الحياة بما فيها الإرادة ، ونعمة العقل بما فيه الذاكرة!

محمد حسنين هيكل

”التاريخ يسافر إلى المستقبل“

”يا أخت أنفلس عليك سلام
هوت الخلافة عنك والإسلام“
(أحمد فوقى)

هذه محاولة لقراءة التاريخ وليس لكتابته. وهي رحلة سريعة مع روايات ووقائع وأحداث ورجال فترة تزيد على قرن من الزمان ، ثم نعى نظيرة بمعرض الأفق تعلمت واستفادت من مصادر ومراجع وسجلات لها فضل السبق . ومن الحق التنبيه إلى أن رحلة التاريخ، مثل أى رحلة غيرها ، تبدأ من موقف معين وتمشى منه نحو تصور مفترض يضح أو يختلف . وتلك هى طبيعة أى مغامرة فى طلب المعرفة . (وربما نلاحظ أن هذه المحاولة لقراءة التاريخ متصلة بصميم موضوع هذا الكتاب ، وهو الاتصالات بين العرب واليهود ، من قبل إنشاء الدولة ، وأثناء الإعداد لإنشائها ، وبعده بقليل. ففى هذه الأوقات أصبحت الاتصالات جزءا من نسج التاريخ وتلك طابع الأمور.)

الفصل الأول

القوة والحق !

الاهتمام بالسياسة فكريا أو عمليا يقتضى قراءة التاريخ أولا - لأن الذين لا يعرفون ما حدث قبل أن يولدوا ، محكوم عليهم أن يظنوا أنفالا طبول مبرهم !

”مقدسات : محرمات“

” سؤال :

هل كان قرنا عربيا كاملا من الجنون أو الوهم
أو أحلام المفايرين ؟

في حياة كل جماعة بشرية ، وعند أساس كل حضارة إنسانية ، تلقأ وتترسخ - بالطبيعة والمعاينة ومطالب الأمان النفسى والسادى - محرمات يمتنع الناس عن مقاربتها ويتأذون من محظوراتها ، ويعتبرون الميث أو الإخلال بها مجلبة للعنة تحيق بالمجترئين وتلحق بهم شؤما ومارا يصعب عليهم الخلاص منها أو التكفير عنها .

وهذه المحرمات المحظورات في حياة الجماعات أو الحضارات ليست أشياحا مخلوقة من الزعم والخرافة ، وإنما هى فى الأصل تصيرت من ضرورات وحدود وأصول ، وقيم تلتزم الفطرة السليمة إلى تأسيسها وتحصيلها فى أعماق كل نفس ، وتوفر لها نوما من الحماية الذاتية تلاصق حدود ”للقداسة“ التى تفرض أحكامها بالروايع الداخلية حتى تلتحق بها أسباب القوة أو أسباب القانون .

وحتى من قبل أن تتنزل رسالات السماء فإن المجتمعات والحضارات صادفت وتماثلت مع ”مقدسات : محرمات“ ظهرت أصلا فى إطار العائلة وهى ما زالت فى حضن الكهف وظلمته ، ثم سررت فى شمائر مجتمعات وحضارات نمت وازدهرت بالمران وكانت عصمة له ، ومن ذلك مثلا تحريم الأم على ابنها والبهنت على أبيها والأخ على أخيه ، ومن ذلك أيضا حرمة الدم ، وحرمة الحق ، وحرمة العهد ، وحرمة المكان ، وحرمة القريب والجار وحتى حرمة الوثن !

وفى واقع الأمر ، فإن هذه ”المقدسات : المحرمات“ كانت أول تقنين إنسانى سبق بالإحساس والضمير والاعتقاد ما أكدته فيما بعد شرائع السماء وولاية الدول وكتابة القوانين.

ولعل ذلك هو الذي أكسب هذه "المقدسات" : المحرمات" ، سلطانها الغلاب حتى فيما ترجى الفرائع أمره إلى يوم الحساب ، وحتى فيما لا تراه عيون الدول ولا تطوله مجالس القضاة !

إن اللغة العربية - لسوء الحظ - لم تتخذ كلمة لوصف هذه "المقدسات" : المحرمات" ، تتمتع للدلالات التي تحملها كلمة "Taboo" ، وربما أن لغات غير العربية لم تنجح هي الأخرى في التحدث ، ولهذا فإن الكلمة الإنجليزية - "Taboo" - ذات وشاع استعمالها حتى أصبحت وصفا عالميا دالا ومقبولا في عديد من لغات الأرض لوصف حالة إنسانية مركبة فائقة في أعماق تجربة المجتمعات والحضارات ، وفاعلة مؤثرة في وجدان البشر وضمائرهم ، مستقرة في لا وعيهم ، حاكمة ذات الوقت على سلوكهم الواصي وعلى توجهاتهم .

وبالطبع فإن حركة التقدم واتساع المعرفة تملكان أن تبهحها يوما ما كان من قبل محرما ، كما أنهما تستلزمان نزع القداسة عما كان مسطورا بفكر مصالحة في زمن من الأزمان . وقد حدث بالفعل أن العقل أبطل الخرافة ، والحكمة أزاحت الكهانة ، كما أن رسالة التوحيد نهزت ألوية الصنم ، لكن ذلك احتاج إلى فكر متوهج وإلى تنزيل علوي ، وأكثر من ذلك احتاج إلى صراع حائل وهائل حتى ظهر الحق واتبع الناس طريقه على هيئة ونور .



ولقراءة قرن من الزمان ، من الثلث الأول للقرن التاسع عشر وحتى الثلث الأخير من القرن العشرين ، كانت الأمة العربية تواجه الصهيونية - وحلم تولتها في فلسطين - على ساحة شائكة محفوفة في كثير من جوانبها بنوع من ذلك الانوارك الذي تختلط فيه "المقدسات" : المحرمات" صائبة الممنوع أو المحظور الذي يسمونه : "Taboo" . وقد وصلتنا المواجهة إلى موقف وفين "لآخر" تجاوز حدود المعقول في بعض الأحيان .

ولم يكن ذلك الرفش ناشئا عن عرش جنون ، أو وسواس وهم ، أو جنون فئات أو أفراد خطر بأحلامهم أن يبنوا لأنفسهم مجدا باستغلال فرائض أو مخاوف جماهير طفسي عليها الإحباط ، فاندفعت تبحث عن عدو تملأه وتثقت في وجهه ليهب المحبوس والمكبوت في صرخا !

فالأمة العربية - على تعدد شعوبها - كانت سواء فيما اتخذت من مواقف ، ومن الصعب تصور أمة بأسرها يطيح بها الجنون .

كذلك يصعب تصور أمة بأسرها تستسلم لوسواس الوهم مائة علم .

ثم إن موقف الرفض لم يكن وحى أو هوى جملة أو فرد فى عمر من الزمن معين ، أو رقعة من المكان محصورة . فالأسر المالكة الثلاث فى العالم العربى : أسرة محمد على فى مصر ، والهاشميين خصوصا فى بغداد ، والسعوديين فى الرياض ، وجدوا أنفسهم - على الرغم منهم أحيانا - فى موقف الرفض ، وكذلك فعلت كل القوى والأحزاب التى تولت الحكم - أو تولت المعارضة - فى مرحلة طلب الاستقلال بعده ، فى سوريا ومصر والعراق ولبنان والسودان والمغرب والجزائر وتونس ، إلى جانب سلطات وإمارات ومشيخات فى شبه الجزيرة العربية ، والخليج . وفى هذا "الموقف" ، كانت الشعوب أسبق من ملوكها وسلطانها ومخايها وقادتها السياسيين . ثم إن الأقليات الشرقية والدينية والطائفية فى العالم العربى كانت تزاحم الأغلبية وتسابها إلى نفس "الموقف" .

وفى رقعة هذا الحد الضخم : فى صور الملوك والسلطين والشيخوخ ، وفى ساحات السياسة والسلطة والحكم ، وفى المدن والأهالي والصحارى ، كانت ملكات الأمة الفكرية والأدبية والفنية حرفا وقصدا ، مشهدا ونفعا ، لونا وظلا - كلها وبغير استثناء - معبرة بحرية وإبداع عن هذا "الموقف" .

وعندما تغيرت الظروف وتبدلت الأحوال فى الخمسينات ، وبرزت طلائع الثورة القومية فى مصر واكتسحت موجاتها منطقة ما بين المحيط إلى الخليج ، فإن أضاء كثيرة انجرفت أو انجذبت إلى ذلك "الموقف" من الصهيونية وإسرائيل ، بل لعل "الموقف" زاد صلابه وقوة إلى درجة أنه استنجز عضويها بآمال التحرر والوحدة والتنمية الشاملة .

ولم يكن ذلك فى جهود التقليد - أو جهود التجديد - جنوحا إلى الحرب ، وإنما كان بالدرجة الأولى طلبا للسلام .

وكانت هناك أغلبية فى العالم - شموله ودوله - فى آسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية ، وحتى فى أوروبا وأمريكا الشمالية ، تتفهم وتؤيد "موقف" العرب فى رفض أمر واقع يراد فرضه عليهم ، وتتفهم وتؤيد أيضا مطلبهم فى سلام عادل ، وانعكس ذلك بوضوح على قرارات للمجتمع الدول ممثلا فى الأمم المتحدة ، وممثلا فى حركة عدم الانحياز ، وممثلا فى منظمة الوحدة الأفريقية . وقد صارت هذه القرارات - واحدا بعد الآخر - بانتظام تسجل نسبه إلى الجماعات ، وأكثر من ذلك فإن قوى كثيرة وقتها لم تتفهم وتؤيد فقط ، وإنما اتهمت القول بالعمل فالحازت عمليا إلى "الموقف" ، وقاطعت "الأخر" ولم تتعامل معه ، وأدانت تصرفاته كثيرا وناوشته بالسلاح أحيانا مددا "للموقف" ونصحا .

ولم يكن ذلك بخبر عرض جنون أو وسواس وهم أو جنون مغامرة ، وإنما كان استجابة "لقدسات" محرمات لها أسباب ودواع حقيقية: تاريخية وإنسانية ، كاملة وهشاشة محسوسة وملغوسة ، مؤثرة على عصرها وعالمها كما هي مؤثرة على أهلها وأصحابها .



إن مراجعة سريعة وجزئية لحجم وثمة التكاليف التي اقتضتها "القدسات: المحرمات" ، تقطع بأن الأمة كانت متفردة لما تفعله عارضة بمسئوليته ، وإلا فلم يكن هناك محور لهذه التضحيات المتواصلة على امتداد أزمنة حرجية وخطرة شهدت قيام حريصين عالميتين: الأولى والثانية . وشهدت ارتفاع وهبوط ثلاث إمبراطوريات : البريطانية والفرنسية والسوفيتية . وشهدت ظهور وتراجع أربع فواجر مرعقة هي : الاستعمار ، والتمييز المنصري ، والفاشية ، والفيوض .

وكانت أزمنة الحرج والخطر - في نفس الوقت - أزمنة فتوح وعود كبرى ، تلاحقت فيها خمسة عصور هي : عصر الكهرباء ، وعصر الطاقة النووية ، وعصر الإلكترونيات ، وعصر الفضاء ، وعصر ثورة المعلومات .

ولم تكن الأزمنة الحرجية والخطرة ثابتة من بال الأمة وهي تتخذ لنفسها "موقفها" ، ولا كانت ثابتة عنها فتوح وعود العصور الراكسة إلى قلب المستقبل . والذي حدث هو أن الأمة حملت الخطر والوعد كليهما ، وحاولت بكل جهدها أن تتولى ، وفي نفس الوقت تتحرك ، وإنما في إطار الحرص على "القدسات: المحرمات" ، آملة في الحالتين أن يجيء الخطر وأن تجيء الفتوح والوعد بمعادلات مختلفة . وكان تقدير الأمة في مجمله متوازنا قدر ما سمحت به الظروف . فهي لم تبدأ بقتال ، وإنما كثرت أن يكون التزامها فاعما وملغوسا إزاء "القدسات: المحرمات" . تمتنع عن الأولى وتمسك بالثانية .

ولم تبدأ الأمة بالقتال سنة ١٩٤٨ ، وإنما تقدمت جيوشها بما لا يتعدى خطوط التقسيم الذي ظلت الأمم المتحدة للفلسطين سنة ١٩٤٧ .

ولم تبدأ بالقتال سنة ١٩٥٦ . ولم تبدأ بالقتال سنة ١٩٦٧ . وإنما كانت حريصا دفاعية في المراتب ، وتجهت مرة ، ولم تتجه مرة أخرى .

ولأنها لم تتجه سنة ١٩٦٧ ، فقد أصبح فرضا عليها أن تأخذ المبادرة وتقدم على القتال بمشروعية حق الدفاع عن النفس ، وقد فعلت ذلك في حرب الاستنزاف على الجبهة المصرية من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٠ ، ثم تصاعدت بممارسة حق الدفاع عن النفس حتى بلغت به ثروته في حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

وخلال تلك المواجهات التي تمسكت فيها الأمة "بالمقدمات : المحرمات" ، والتزمت فيها حدود الدفاع عن النفس كان حجم التكاليف وحساباتها قاطعا في نفعه للجنون والوهم والمفارقة ، ويمكن الاكتفاء هنا بثلاث جبهات تتوافر الحقائق الكافية عن حجم تفصياتها :

• ما بين بداية المقاومة على أرض فلسطين ذاتها ، وهي البؤرة الساخنة للمواجهة ، وحتى سنة ١٩٩٣ ، قدم الشعب الفلسطيني :

٢٦١,٠٠٠ شهيد

١٨٦,٠٠٠ جريح

١٦١,٠٠٠ معوق

كما أن قرابة مليونين من الفلسطينيين اضطروا إلى الخروج من وطنهم وتحولوا بمئاتهم إلى لاجئين . وهؤلاء الذين خرجوا - وهم مليونان - أصبحوا الآن أكثر من خمسة ملايين ، وبالفيط خمسة ملايين وأربعمئة ألف نسمة .

• وما بين سنة ١٩٤٨ وحتى سنة ١٩٩٣ كانت التكاليف فادحة على أصغر بلد عربي وهو لبنان ، فقد وصلت به مشاهدات الصراع العربي الإسرائيلي إلى حد الحرب الأهلية ، وخرج منها وقد قدم :

٩٠,٠٠٠ شهيد

١١٥,٠٠٠ جريح

٩٦٢٧ معوق

واضطروا ٨٧٥,٠٠٠ من مواطنيه إلى الهجرة خارج بلدهم .

• وما بين سنة ١٩٤٨ وحتى سنة ١٩٧٣ فإن أكبر البلاد العربية معسر وهو الذي تحمل عبء قيادة الجهد العربي الشامل ، قدم :

٣٩,٠٠٠ شهيد

٧٣,٠٠٠ جريح

٦١,٠٠٠ معوق

ثم إن أكثر من مليوني مواطن مصري من منطقة قناة السويس اضطروا إلى الهجرة من بيوتهم - وإن بقيت هجرتهم داخل وطنهم - مرتين : سنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٦٧ .

وهناك بالتأكيد تكاليف كبيرة وقست على بلاد عربية أخرى مثل سوريا والعراق، لكن الأرقام الدقيقة ليست متوفرة . وربما أن التكاليف المروفة بالنسبة للفلسطين (بصورة الصرام) ، وللبنان (أصفر بلد بين أطرافه) ، ولصر (أكبر هذه الأطراف) تغطي على نحو ما ، فكرة يقاس عليها حيث لا تتوافر المعلومات .

وكانت هناك تكاليف أخرى للموقف من "المقدمات : المحرمات" ، ومع ذلك فإن تكاليف الدم تبقى أعلى في كل الأحوال من أى تكاليف يكون حسابها بالوقت أو بالأعصاب أو بالأبوال !



إن المعايير اختلفت ابتداء من سنة ١٩٧٤ .

وعندما جاءت سنة ١٩٩٤ كانت المجلة قد دارت دورة كاملة .

سلطت موانع التحريم ، كما زالت دواعي القداسة . لكن وجه الغرابة أن مجموعات الحقائق والقيم لم تكن تغيرت ، ولا كان سبب الانقلاب نور عقل سلط فجأة ، أو حكمة تجلت ، أو تنزيلا عليها جاء إلى الناس بصر جديد .

وكانت ذرائع الانقلاب - (إضافة إلى اتهام "الموقف" الأصلي بالجنون ، والوهم ، والمغامرة) هي الدافع بتغيير الظروف . وكانت الظروف بالفعل تتغير ، وهي باستمرار - على اتساع الدنيا وتواصل المصور - في حالة تغيير لا يتوقف ، وإنما كله في إطار التاريخ الإنساني وحركته من همة الكهف إلى سطح القمر .

ومن للمفارقة أن "الأخر" كان أكثر وعيا وعلمًا ، فقد ظل في مكانه على أرض التاريخ الإنساني - بل والأسطوري غالبا - وعلى ثابتا على "مقدماته" وعلى "محرماته" .

فهي - بعد انعاده بلهجات ألفي سنة - ما زالت : "أرض إسرائيل" ، و"عصب الله المختار" ، و"مملكة داود" ، و"الكلمود" ، و"أورشليم" ، و"يهودا" ، و"السامرة" ، و"هيكل سليمان" ، و"حائط المبكى" ، و"التهه" ، و"الهولوكوست" ، وهاجس الأمن الذى لا سيول إلى طائفته والقسى الوحيد الذى جدد بمعتقدات الزمن والظروف هو ما كنا قنبلة نووية !

نابليون

"أيها الإسرائيليون : انهضوا فهذه هي اللحظة المناسبة"
(نابليون بونابرت في لقاءه مع يهود العالم)

تنقأ "المقدسات : المحرمات" في حياة الأمم والدول - كما في حالة المجتمعات والأفراد - لأسباب قوية ، لها دواعٍ حقيقية ترسخ في العقول والقلوب ، وربما تغيب الأسباب هذا وحصرها في غياب الزمن مع كثر السنين . لكن الأثر الذي تتركه هذه الأسباب يفوق ويسكن في أعماق ما يمكن تسميته بالوجدان ، سواء على المستوى الفردي للناس أو على المستوى الجماعي للأوطان . وهم يطعمون نداءه الخفي والمستتر والتقنين بفشكل ما أنهم على حق ، مولقون بطريقة أو بأخرى أنه سلامتهم وسلامهم .

إن بطور "المقدسات : المحرمات" العربية تجاه الصهيونية وإسرائيل تعود في بداياتها وأصولها إلى القرن التاسع عشر . وهو - من أوله إلى منتهاه - واحد من أهم قرون التاريخ سطوة وثقلًا على المصور الحديثة اللاحقة له ...

وطوال القرن التاسع عشر - هذا القرن الأكبر والأخطر من كل ما سبقه في التاريخ - كان العالم مشغولاً - (إلى جانب الاختراقات الكبرى في العلوم الطبيعية والإنسانية) - بأربع قضايا محددة استحوذت على اهتمامه وتنازعته فيما بينها :

١ - ظاهرة الوطنية وقد برزت نتيجة للثورة الفرنسية ودغمت شعوب الأرض جميعها إلى البحث عن هويتها ، وحققها في تقرير مصيرها : وطلب الحرية والنفوس الاجتماعية .

٢ - ظاهرة التصاق إلى المستعمرات والتنافس عليها بين القوى الأوروبية ، وقد علمت منها في ذلك الوقت ثلاث هي : الإمبراطورية البريطانية ، والإمبراطورية الفرنسية ، والإمبراطورية الروسية التي راحت توجه جيوشها وأساطيلها ، وفكراتها المانية أو

بعثاتها التمييزية ، إلى قرارات الأرض ، ترفع أعلامها على مصالح أرائتها لنفسها أو
شامت حريمان الآخرين منها .

٣ - المسألة الشرقية ، وقد تمثلت بالدرجة الأولى في عملية القرمس بلوث الخلافة
العثمانية ، التي كانت إمبراطورية شاسعة تتركز في قلب العالم من فواطن بحر
قزوين إلى شواطئ المحيط الأطلسي ، وضمت أقطاراً كثيرة من جنوب أوروبا والشرق الأوسط
وشمال إفريقيا . لكن الوهن أصابها ومرضت وهجرت ، وتبسات كل ممتلكاتها الأوروبية
والآسيوية والأفريقية لتكون ميراثاً للقائمين الأصحاء القادرين . لكن هؤلاء لم يكونوا توصلوا
بعد إلى اتفاق على تقسيم الإرث رغم تفاهم إلى الأقاليم والقبايل والمشار والطوائف في أملاك
الخلافة ومن وراء ظهرها . وبالتالي فقد كان قرار القابيين المستتر هو تأجيل إعلان وفاة
رجل أوروبا المرفس - حسب التعبير الشائع في وصف دولة العثمانيين وقتها - حتى يرتب
كل واحد منهم نفسه للثمنه يرثها بأكملها ، أو يحصل لنفسه على حصة الأسد
فيها . وبهذا الشكل بقيت الخلافة كياناً لا يسمح له بالموت ، ولا يسمح له بالحياة ، إلى
حين تستقر حركة موازين القوة في أوروبا وبالتالي يطلب كل طرف بين القابيين نصيبه
في القصة والإرث .

٤ - المسألة اليهودية ، وهي قضية ديانة توزع أديانها في أنحاء الأرض . ثم إنهم كانوا
هدف هداة استفحل خصوصاً حول مواضع كثافة التواجد اليهودي في شرق أوروبا
وروسيا ، ووقتها كان ٩٠ ٪ من يهود العالم (وعددهم الإجمالي ١٢ مليوناً) يعيشون على تخوم
ما بين روسيا وبولندا ، ويتعرضون بين الحين والآخر لغارات دموية تولدها احتكاكات دينية
 واجتماعية وفكرية اشتهرت باسم الـ Pogrom ، وهي كلمة روسية الأصل تعني "التدمير
المنظم لطبقة أو لجماعة" ، وقد التصق استعمالها بتاريخ اليهود في شرق أوروبا ، وأصبحت
من أشهر الكلمات تردداً في الصحف المائنة طوال القرن التاسع عشر عندما تكررت
مذابح اليهود في روسيا وبولندا .



وكان الفكر الإستراتيجي الأوروبي - النافذ وقتها - هو الذي اجتمع في محاولة الربط
بين هذه العناصر الظاهرة في القرن التاسع عشر ، وخلق توليفة لمتناقضاتها ، يمكن
استغلالها في البحث عن مخارج سياسية تناسب مصالح ومقاصد القوى والأطراف .

وكان "نابليون بونابرت" - تجم ذلك الزمن من التاريخ العالمي وأزمان بعده طويلة - هو
المبادر والسباق إلى الربط والتوليف بين : الوطنية ، والسباق الاستعماري ، والمسألة الشرقية ،
والمسألة اليهودية ، مجتمعة كلها معا في خدمة استراتيجية سياسية واحدة .

وقد التفت في البداية آخرها ، وهي المسألة اليهودية .

والحاصل أنه قيل "نابليون" كان يهود العالم - ومعذ مأساة الخروج مع المسلمين من الأندلس - موزعين بين أوروبا وشمال أفريقيا . وفي تلك الأيام كان الكلام عن العودة إلى فلسطين نداء يتردد على لسان أحد الحاخامات بين حقبة وأخرى ، وربما مرة كل ثلاثين أو أربعين سنة ، ولم يكن هناك من يأخذ هذا النداء جدًا ، أو يعلق عليه بأكثر من أنه حينئذ يجرى الوهم ، لأن العودة خلط متعسف للأسطورة بالتاريخ ، ثم إنها حتى في الأساطير مرهونة بإشارات وعلامات لم تظهر بعد على أي أفق .

وفي كل الأحوال فإن "نداء الأسطورة" كان قضية مختلفة عن "المسألة اليهودية" .

فالتداء الأسطوري كان في حيز الأفواق . أما المسألة اليهودية فكانت في حيز الواقع الاقتصادي والاجتماعي ، لأن المسألة اليهودية كانت في صميمها ذلك الاضطهاد الواقع على اليهود في أوروبا ، سواء هؤلاء الذين استقروا في الغرب من قديم ، أو هؤلاء الذين تلغف بهم موجات الهجرة بين وقت وآخر هاربين من الشرق لاجئين إلى الغرب .

وكانت موجات الهجرة من الشرق هي النقطة الحرجة في المسألة اليهودية ، لأن أحدا لم يكن يريد هؤلاء اليهود القادمين هاربين لاجئين من الشرق إلى الغرب . فلا مسيحيو الغرب يريدونهم لأن صدمهم ضيق بالعمل من اليهود في بلادهم ، كما أن يهود الغرب أنفسهم لا يريدونهم بنفس المقدار وربما أشد ، لأن يهود الغرب استقروا حيث هم ، وقد نجحوا بالكاد في صرف الأخطار عن وجودهم ، فإذا ظهر من يهتروهم "اجلًا" من مهاجري الشرق اليهود ، أحسوا بالانزعاج من أثر التفارب بين ولائهم لأبناء دينهم ، وبين حساسيتهم لأوضاعهم في المجتمعات المسيحية التي يعيشون وسطها والتي يحاولون الاندماج فيها بأي شكل ووسيلة .

وكانت فكرة نابليون "المبارية" - ١ - في ربط وتوليف واستغلال الظواهر الهادئة مع مقدمات القرن التاسع عشر تتجلى في عدة خطوات :

١ - استعمال ظاهرة الوطنية في إيقاظ وعى يهودى يلتفت فكرة حق تقرير المصير ، ويطالب بوطن قومي لليهود ينتظمهم من الشتات ويرحمهم - ويربح أوروبا أكثر - من صبه موجات الهجرة المتدفقة من يهود الشرق .

٢ - اللعب على الوتر الدينى اليهودى ، وأساطيره ، لتكون فلسطين - وهي وقتئذ من أملاك الخلافة العثمانية التي يتصاقق الكل على إرثها - وطن اليهود الموعود والقطر .

٣ - فإذا نشأت دولة يهودية برعاية فرنسا في فلسطين ، فذلك إذن نقطة بداية مهمة لخططها الإمبراطورية في قلب أملاك الخلافة العثمانية .

٤ - وإذا نجحت هذه التوجهات فإن فرنسا تكون قد بدأت عملية إرث الخلافة ، وتكون حصلت على النصيب الأكبر من التركة قبل أن تنته القوى الأخرى وتتحرك . وحتى إذا تحركت فإن فرنسا سوف تكون بالفعل هناك قبل الكل وفي موقع أقوى وأفضل .



إن ملامح الصورة الدولية العامة يومئذ معروفة :

● الصراع الإمبراطوري على أشده بين قوتين اندفعتا إلى البحر الأبيض المتوسط وإلى المحيط الأطلنطي وإلى المحيط الهندي - وهما بريطانيا وفرنسا - بينما القوة الإمبراطورية الثالثة - وهي روسيا - مشغولة بالتمدد في آسيا ، وفي مثلها أن تصل إلى بحر الصين ، وهو مفتوح على المحيط الهادئ .

● إن فرنسا تراجعت في السباق مع بريطانيا بعد عصر "الملك الشمس" - "لويس الرابع عشر" - لأن خليفتيه "لويس الخامس عشر" و"لويس السادس عشر" شغلا عن التوسع كل منهما لأسبابه . أولهما أنهته مباحث قصر "فرساي" ومغانيه وترفه ، والثاني حاصره هواف الشورة الفرنسية التي حملت ألوية الحرية والإخاء والمساواة ، وسحبت ملوك وأمراء البوربون إلى المصلة .

● إن جنرال الثورة المبكر عاد مرة أخرى مستأنفا حلم "لويس الرابع عشر" ، وآخذاً على نفسه مسؤولية التوسع الإمبراطوري الفرنسي ، حتى وإن اصطدم بالسلاح مع بريطانيا . وكانت الحملة الشهيرة على مصر - "حملة النيل" كما سماها "بوناپرت" - تستهدف فرضيين في نفس الوقت :

٥ احتلال مصر كبدلية لعملية إرث الخلافة ، والزحف منها إلى فلسطين والفلسم .

٥ ثم العمل على قطع طريق المواصلات البريطانية ، وهو يومئذ عقد من اللآلئ حبة بعد حبة ، وآخرها أغلى الجواهر في التاج البريطاني وهي الهند .

وفي سبيل تحقيق أغراضه لم يتردد "ناپليون" أمام الموانع والتراتع .

لعمد فزو مصر كان ادعاءه أنه الصديق الصدوق لخليفة المسلمين العثماني ، وأنه الحريص على تثبيت سلطانه المهتد من الممالك في الداخل أو الملوك المسيحيين في الخارج . ووصل "ناپليون" إلى حد ادعاء الإسلام إيماناً - كما قال - بصديق وصفاء تماثيله .

وعندما بدأ "نابليون" زحفه من مصر إلى الشام لاختلا من فلسطين ، توقفت جيوشه عند أسوار القدس وعكا ويافا ، وغيرها من حصون المسلمين . وهنا أراح "نابليون" ورقته الإسلامية وأخرج ورقة ثانية يهودية !

إن ورقة "نابليون" الإسلامية - وهى منشورة إلى المصيرين عن صداقته للخليفة وهن اعتناقه للإسلام - كانت جامزة مطبوعة من قبل أن تطلع الحملة الفرنسية من موانئها . وأما ورقة "نابليون" اليهودية فليس واضحا متى بدأ التفكير فيها والإعداد لها . ومن المحتمل أن "نابليون" رتب لها قبل مغادرته لفرنسا ، ولم يشأ أن يعلن عنها كى لا تؤثر على ورقته الإسلامية . لكنه من المحقق أن بعض علماء الحملة الفرنسية بدعوا مبكرا فى الاتصال ببعض حاخامات اليهود فى فلسطين ، مثل "موسى مورديخاي" و"جاكوب الجازي" ، وربما غيرها.

وكانت ورقة "نابليون" اليهودية ، التى أظهرها أمام أسوار القدس ، نداء إلى يهود العالم لم يوزع فى فلسطين وحدها ، وإنما جرى توزيعه فى الوقت نفسه فى فرنسا ، وإيطاليا ، والإمارات الألمانية ، وحتى فى أسبانيا ، الأمر الذى يجرى إلى أن القضية أكبر وأوسع من طرف محلى واجهه "نابليون" حينما استعصت عليه أسوار القدس .

كان نداء "نابليون" إلى يهود العالم على النحو التالى :

" من نابليون بونابرت القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية فى أفريقيا وآسيا إلى ورثة فلسطين العربيين .

أيها الإسرائيليون ، أيها الشعب الفريد ، الذى لم تستطع قوى الفتح والظلم أن تسلبه نسبه ووجوده القومى ، وإن كانت قد سلبته أرض الأجداد فقط .

إن مراتب مصائر الشعوب الواعين المحابين - وإن لم تكن لهم مقدرة الأديباء مثل اشعيا ويوشع - قد أدركوا ما تنهأ به هؤلاء بإيمانهم الرفيع أن عبيد الله (كلمة إسرائيل فى اللغة العبرية تعنى أسير الله أو عبد الله) سيمودون إلى صهيون وهم يندفون ، وسوف تتمهم السعادة حين يستعيدون مملكتهم دون خوف .

انفضوا بقوة أيها المهددون فى التيه . إن أمامكم حربا مهولة يخوضها شعبكم بعد أن اعتبر أجداده أن أرضه التى ورثها عن الأجداد غنمة تقسم بينهم حسب أهوائهم ... لابد من نسيان ذلك المسار الذى أوقعكم تحت نير العبودية ، وذلك الخزي الذى شل إرادتكم لألفى سنة . إن الظروف لم تكن تسمح بإعلان مطالبكم أو التعبير عنها ، بل إن هذه الظروف أرغمتكم بالتسرع على التغلب عن حثكم ، ولهذا فإن فرنسا تقدم لكم يدعا الآن حاملة إرث إسرائيل ، وهى تفعل ذلك فى هذا الوقت بالذات ، وبإلزام من شواهد اليأس والمجز .

إن الجيش الذي أرسلتني العذابة الإلهية به ، ويهشى بالنصر أمامه وبالعند ورواه ، قد اختار القسم مقرا لتفانيه ، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى نهضت المجاورة التي استهانت طويلا بمدينة بلود وأذلتها .
يا ورقة قسطنطين القرويين ..

إن الأمة الفرنسية التي لا تتأجر بالرجال والأوطان كما فعل غيرها ، تدعوكم إلى إرتكيب بدمائها وتأييدها ضد كل المخله .

انهضوا وانهمروا أن قوة الطغاة القاهرة لم تخمد شهامة أحفاد هؤلاء الأبطال الذين كان تحالفهم الأخوي حرقا لأسرطة وروسيا ، وأن معاملة العبيد التي طالت ألفي سنة لم تنلح في قتل هذه الشهامة .

سارعوا ! إن هذه هي اللحظة المناسبة - التي قد لا تتكرر لآلاف السنين - للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم ، تلك الحقوق التي سلبت منكم لآلاف السنين وهي وجوبكم السياسي كأمة بين الأمم ، وحكمكم الطبيعي المطلق في قيادة إلهكم يهواه ، طبقا لمبادئكم ، وافعلوا ذلك في الملن وافعلوه إلى الأبد .
بولنابرت "

إن ورقة "نابليون" الإسلامية كانت حيلة سهلة لخداع المصريين ، سواء في ذلك العامة أو العلماء من مشايخ الأزهر .

ولا بد من الاعتراف - لسوء الحظ - أن الخدمة جازت على المصريين في ذلك الوقت بمن فهم العامة والعلماء ، وربما يغفر لهم جميعا أن شغلهم بعبور الأحكام المالية جعلهم على استعداد لحلف مع الشيطان إذا كان ذلك ضروريا للخلاص من أولئك الذين استبدوا بأقدارهم وأرزاقهم ، وصحروا في نفس الوقت عن حماية ديار الإسلام وديارهم .

ولقد جاء الشيطان إليهم وليس عمارة ، وصدقوه لأنهم كانوا يريدون تصديقه ، ولأنه لم يكن في مقدورهم ألا يصدقوه .

وعلى أي حال ، فإن ورقة "نابليون" الإسلامية توقفت عند هذا الحد ، ولم تبق منها إلا أوراق وذكريات ، بعضها غريب وبعضها مغل ، تحلل بها ملفات وزارة البحرية في باريس التي حفظت فيها معظم وثائق الحملة الفرنسية على مصر ، وهي ترسم صورة مدعفة للسياسة وللحياة في مصر بينما العالم ينتقل من القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر^(١)، وكلها مخلوط مثير فيه رؤى استراتيجيه بخط "نابليون" ، كما أن ضمنها قصائد

(١) كانت هناك باستمرار صفة بحث عن وثائق الحملة الفرنسية على مصر ، ولعجب طويلة بدا وكأن هذا الكثر التاريخي قد ضاع واندر ، وكان الذين أنه رسما فرق هذا الكثر عندما كانوا الصناديق التي تضم أوراقه =

شعر غزل مكتوف كتبه عدد من الشيوخ غراما وصباية في بعض شياط "تابليون" ويؤمنهم
السذج وشعرهم الذهب !

لكن ورقة "تابليون" اليهودية هي الوثيقة التي تستحق الاهتمام في السياق التاريخي
لأنها الأثر الإسرائيحي الباقي في المنطقة من تلك الأيام وحتى نهاية القرن العشرين وبداية
القرن الواحد والعشرين .



إن "تابليون يونابرت" لم يكن يهوديا ولا كان مواليا لليهود ، والعكس هو الصحيح ،
لكن ورقته اليهودية .. المتنتزة في ندائه ليهود العالم من خارج أسوار القدس .. لم تكن
أكذوبة كما هو الحال في ورقته الإسلامية . ذلك أن ورقته الإسلامية كانت موجهة إلى كتلة
بشرية من سكان مصر ، عدهم في ذلك الوقت يفرق المليونيين ، وفي استطاعتهم إذا
قاوموا أن يجعلوا مصر مهددة ليهودهم وليس رأس جسر ، وهو لهذا مستعد لخدمتهم
بأن يكذب عليهم .

وأما ورقته اليهودية فهي حالة مختلفة ، لأن اليهود في فلسطين ذلك الوقت لم يزد
عددهم على ألفين ، وبالتحديد وطبقا لتقرير مرفوع إلى "تابليون" نفسه من مجموعة شياط
استكشاف سبقت جيشه إلى فلسطين ، هو ١٨٠٠ (بهم ١٣٥ في مدينة القدس) . وهؤلاء

"محمولة على ظهر مركب فرنسي من لراكب التي تسكنت عائلة إلى فرنسا بعد فشل الحملة الفرنسية على مصر .
وساعد على ترحيل هذا الاحتمال أن الأسطول البريطاني ، بقيادة الأميرال "كلين" ، كان يترصد السفن الفرنسية
المسلحة عائدة إلى مارسيليا محاولة اختراق طرق الحصار البحري . ولعل الخطأ الذي وقع فيه كثيرون بين الباحثين
والدارسين ، أنهم اتجهوا إلى الخزانة التي كان عليها أن توضع فيها أوراق الحملة الفرنسية ، وهي وزارة
الخارجية أو وزارة الحربية أو وزارة المستعمرات . ثم خطر ببال أحد الأساتذة للدراسات المقاتلة ، وهو الدكتور
"أحمد حسين الصاوي" ، أن يلقى نظرة على محفوظات وزارة الحربية الفرنسية ، وإذا الكذب منه موجود في
خزائنها . وقد حاول الرجل أن يستغل نظر بعض الجهات الرسمية إلى مساعدته في توثيق فترة من أهم فترات
التاريخ المصري ، ولم يمتنع إليه أحد . ثم تكلفت جهود خاصة بمهمة الدعم وتمويل البحث والتصوير ، وبذلك
الدكتور "الصاوي" جهدا متنازا ، وأمكن في النهاية الحصول على أكثر من عشرين ألف وثيقة من وثائق الحملة
الفرنسية على مصر تغطي أمورا كافة على الاستراتيجيات للقوى الإمبراطورية في تلك الفترة ، وكذلك على حياة
مصر في لحظة من لحظات الانتقال الهائلة في التاريخ .

ليس في مقدورهم - مهما فعلوا لا أن ينصروه ولا أن يخذلوه . وهكذا فإن ورقة "نابليون"
اليهودية تحتاج إلى تفسير آخر غير التفسير الذي يجوز حيال ورقته الإسلامية .
وإذا لم تكن ورقة "نابليون" اليهودية مكتوبة ، وإذا لم تكن خدمة سياسية مثل ورقته
الإسلامية ، فعماذا تكون إذن؟

إن التفسير الصحيح - والحوادث اللاحقة شاهد - هو أن هذه الورقة كانت "رؤية" .
وهي لم تكن "رؤية نبى" ، وإنما كانت رؤية إمبراطور يملك حسا استراتيجيا نابها
وبعسدا .

بريطانيا

" تحدثت إليه عن آلام اليهود فلم يسمنى ،
وحدثته عن مصالح بريطانيا فترك كأس
البرادى الذى كان فى يده ولمست عيناه
وبدا يسمنى "

(التورن "مافيسرى" فى وصف حديث له مع
"هارستون" رئيس وزراء بريطانيا)

كان "نابليون بونابرت" يعتقد - بحراسة الجغرافيا والتاريخ - أن مصر هى أهم بلد فى العالم ، وقد أصبح مؤمنا ، بعد دراسته للاستراتيجيات الإمبراطورية بأن الاعتقاد الذى توصل إليه بشأن أهمية مصر حقيقة لا تقبل الشك ، وقد كرر التعبير عن هذا الاعتقاد والإيمان كثيرا فى تقاريره ومذكراته وأحاديثه ، حتى تلك التى أجراها فى المنفى وهو بعيد فى جزيرة "سانت هيلانة" معزول بمحيطات وبحار من السياسة وعن الحرب وعن الدنيا بأسرها .

كان الموقع المصرى فى تقديره فريدا :

- معبر مقل على البحر الأبيض النافذ من جبل طارق إلى الأطلنطى متناهما إلى العالم الجديد فى أمريكا ، ثم هو مقل على البحر الأحمر الذى يمكن وصله بالبحر الأبيض فى أحلامه والذى يتدفق بمياهه جنوبا حتى يدخل إلى بحر العرب عند عدن ، ويمتد إلى المحيط الهندى ثم إلى المحيط الهادى .
- ثم هو بلد مستقر قرب رأس أفريقيا مستند فى الوقت نفسه على كتف آسيا .
- ثم هو أرض تصلح بطبيعتها السهلة ومواردها الزراعية لأن تكون قاعدة مأمونة لجيش كبير يأكل ويسكن ويستمد فى لبنان .

● وأخيرا ، فإنه موقع حاكم على طرق التوسع الإمبراطوري خصوصا إلى الهند وما حولها وما وراءها ، وبالتالي فالحصول عليه مقدمة ضرورية لأي قوة تريد أن تتصدى لبريطانيا وتريد أن تتحدى سيطرتها على التجارة وعلى البحار .

لكن "تابليون" لم يكن ينظر إلى مصر وحدها ، وإنما كان يراها في اتصال غير قابل للانفصال مع السهل السوري الذي يشكل معها زاوية قائمة تحيط بالشاطئ الشرقي — الجنوبي للبحر الأبيض ، وهذه الزاوية القائمة يملؤها الجنوبي في مصر تمتد تأثيرها بالعرض إلى كل الساحل الشمالي لأفريقيا ، وبالطول إلى الجنوب حتى منابع النيل ، ثم إنها يملؤها الشمالي في سوريا تلامس حدود بلاد ما بين النهرين (المراق) وشبه الجزيرة العربية والخليج ، وحتى طرق الاقتراب البري والبحري إلى فارس والهند .

وهكذا فإن "تابليون" — فإنه شأن من سبقوه من الفاتحين — لم يكفد يستقر في مصر حتى راح يمد يده إلى سوريا ، وحتى تكون الزاوية الجنوبية لشرق البحر الأبيض تحت سيطرته بالكامل . وكان ذلك بالضبط ما فعله فرعون مصر وأباطرة الإغريق وقياسرة الرومان وأكاسرة الفرس . وهو نفسه ما قام به الخلفاء المسلمون في أعقاب عصر النبوة ، ثم تواصل بعدهم بأمراء المؤمنين من الأمويين والعباسيين ، ثم حلفاء دروسه فيما بعد كل حاكم تولى أمر مصر ابتداء من "أحمد بن طولون" و"صلاح الدين" وحتى ممالك مصر العظام من أمثال "الظاهر بيبرس" و"قلاوون".

أي أنه وعلى طول العصور كان لا بد أن تكتمل الزاوية الجنوبية الشرقية للبحر الأبيض لتدخل في إطار سياسي واحد يجعل كل ضلع منها تأمينا للضلع الثاني .. ضرورة جغرافية وصورة تاريخ !

لكن المعادلة في زمن "تابليون" أن سوريا قريبة بأكثر مما ينبغي من مقر الخلافة في تركيا ، وقد يكون ممكنا في يوم من الأيام — طبقا لتقديراته — أن تتصدى دولة الخلافة لمخروجه وتقاتله في ولايتها السورية ، وتجد في ذلك عوناً من إمبراطوريات أخرى منافسة له ، كالإمبراطورية البيزنطانية .

إضافة إلى ذلك فإن "تابليون" — مع اعتقاده بقيمة الزاوية التي لا بد من تعديل عنها كان يخشى إلى جانب الخطر الخارجي من أن الإسلام والعروبة في كل من مصر وسوريا — ضلعي الزاوية يقتران في يوم من الأيام — كما حدث من قبل خلال الحروب الصليبية — على صنع قوة ذاتية تتدفع على الانفلات من قبضته ، وقد تواجههما بما لا يتحسب له أو يريد ! وكان ملفقا أنه على امتداد التاريخ ، كان كل من ضلعي الزاوية الاستراتيجيتين الحيوية في حالة بحث مستمر عن الآخر بصرف النظر عن متغيرات الظروف ، وأوصاف المصور وصرافاتها فرعونية أو رومانية ، بيزنطية أو إسلامية ، صليبية أو استعمارية !

ومن هذه الحقائق الجغرافية والتاريخية تبلورت الرؤية الاستراتيجية لـ "نابليون بونابارت"، وتجلت من خلالها "الورقة اليهودية".

وبذلك فإن أحلام "نابليون" في شزو العالم تبثت في أول خطوة لها على النحو التالي :

١ - عليه أن يسيطر على الخليج الجنوبي لزاوية البحر الأبيض الشرقية - وهو مصر - وقد نزلت جيوشه إليها .

٢ - وعليه أن يؤمن سوريا لتكون زاوية جنوب شرق البحر الأبيض تحسب سلطته وهو الآن يزحف عليها .

٣ - ولكي يضمن عدم التقاء المسلمين عربيا وإسلاميا ، فإنه يزرع عند نقطة التقائهما ، أي عند مركز الزاوية ، شيئا آخر لا هو عربي ولا هو إسلامي . لكن هذا الزرع لا يمكن خلقه من العدم ، وإنما يحتاج خلقه إلى بذور حتى وإن كانت من جيئات حفرات الأثريولوجيا بحيث يمكن غرسها في التربة ، فإذا جرى زرعها وأورق بعضها فحينئذ قد يصعب التمييز بين الأصل والدخيل ، وبين الطبيعي والهجين .

وهكذا تجيء ورقة "نابليون" اليهودية تصورا للمستقبل ورؤية - ربما لا تتحقق بسرعة - لكنها قابلة للتحقيق في مستقبل الأيام .. وبها فقد ينشأ وطن يهودي يكون ضمانا إضافيا إذا أمكن ، ويكون عازلا إذا اقتضت الضرورات . وفي صياغتها فإن صاحبها استلهم مطالب الإمبراطورية ونروس التاريخ وأساطير الأديان القديمة وحولها إلى استراتيجية ، والثابت أن "نابليون" لم يتخل عن تلميحاته الاستراتيجية حتى بعد أن اضطر إلى التسلسل لئلا من مصر والمودة إلى فرنسا ، وراح يواصل من باريس صراعه للسيطرة على أوروبا ، إلى حيث تحمله جهاده وتصل مرامي مدافعه !

وعندما أصبح "نابليون" إمبراطورا لفرنسا فإن مصر كانت لا تزال في حساباته أهم بلد في العالم ، وكانت فكرة الوطن اليهودي العازل بعمها مستولية عليه ، وهكذا فإنه دعا سنة ١٨٠٧ إلى عقد مجمع يهودي "سانهردان" يحضره كل يهود أوروبا ممثلين في رؤساء طوائفهم ، إلى جانب مشاهير حاخاماتهم ، ليتم "فعل الأمة اليهودية" على حد قوله ، ثم كان ملفتا أن يكون القرار الذي يحمل رقم ٣ من قرارات المجمع ، قرارا يتحدد بالنص من :

- "ضرورة إيقاظ وعي اليهود إلى حاجتهم للتشريب العسكري لكي يتمكنوا من أبناء واجبهم المقدس الذي يحتاج إليه دينهم" .

ولعل ذلك هو الذي ألوحى إلى مفكر سياسي شهير مثل "دولاجار" بأن يكتب كتابه اللافت للنظر : "نابليون والعسكري اليهودية" !



إن مجلة التاريخ لم يتوقف دوراتها . واستطاعت بريطانيا بحر خطط "نابليون" ، وأكمل الدوق "ولنجستون" ما بدأه الأميرال "تلسون" ، أولهما ختم بتدمير جيوش الإمبراطور "نابليون" على سهول بلجيكا (معركة "واترلو") ، وثانيهما استلحق بتدمير أسطول الجنرال "نابليون" عند مصب النهر (معركة "أبو قير") . لكن الرؤى الاستراتيجية الواسعة للفلاحين الكبار لا تموت بموتهم ، وإنما تبقى في حافظة التاريخ يهدم تنتظر فيهم ممن يبدون الجرأة والجسارة على اعتمادها من جديد جزئيا أو كلها .

وهكذا فإنه بعد سنوات قليلة من الفوضى والارتباك استقر حلم جمع الزاوية الشرقية الجنوبية للبحر الأبيض بشلبيها المصري والسوري في يد "محمد علي" وإلى مصر الكبير . والظاهر أن "محمد علي" .. بعد استقرار الأمر له في مصر - توصل بحسه إلى الضرورات التي تجمع بينها وبين سوريا ، ومن المحتمل أن الفكرة وصلت إليه بوحى مباشر أو غير مباشر من "سليمان باشا الفرنسي" الذي كان أحد ضباط "نابليون" ثم أصبح فيما بعد رئيسا لأركان حرب "إبراهيم" (باشا) ، ابن "محمد علي" وقائد جيوشه |

وربما أن الذي أهله تجربة "محمد علي" إلى الرؤية الاستراتيجية العامة للزاوية الحيوية - مصر وسوريا - هي أن "محمد علي" نجح في تأسيس دولة عصية مصرية وعصية قادرة على أسباب القوة ، وقادرة على أسباب الوحدة في العالم العربي .

والواقع أن "محمد علي" لم يدخل سوريا هاتيا ، وإنما دخلها وسط علامات نهضة وطنية سورية ثلاث طموحاتها مع نموذج "محمد علي" ، وطمعتها قوة الأشياء - وبينها التاريخ - إلى وضع العلاقة بين مصر وسوريا في وضع متميز . وربما أن عصر الوطنية - الذي حاول "نابليون" أن يستغله لحل المسألة الشرقية بالمسألة اليهودية .. كان فاصلا على الناحية الإسلامية العربية دون حاجة إلى تلهفات إمبراطور فرنسي يقود جيوشا غريبة توجهها خطط إمبراطورية مسلحة .



لقد أخذ رئيس وزراء بريطانيا اللورد "بالرستون" من إمبراطور فرنسا "نابليون" وتعلم منه ، وكانت تلك دائما سيرة بريطانيا في فترة صعودها .. تحفظ الحرس من أعدائها وتطبق ثقافته بأفضل منهم .

كانت البرتغال هي السابقة على الطرق البحرية بين القارات ، وجرت بريطانيا ورامها ولحقها وسبقها . وكانت أسبانيا هي السابقة إلى استعمار العالم الجديد في أمريكا ، وجرت بريطانيا ورامها ولحقها وسبقها . وكانت فرنسا - "نابليون" - هي السابقة نحو مصر والوادي - في مصر الاستعماري - بأهمية الزاوية الاستراتيجية التي تجمعها مع سوريا ، وجرت بريطانيا ورامها ولحقها وسبقها !

ويمكن القول إن "بالرستون" تبنى بالكامل رؤى "نابليون" ، وأمسك أكثر بإمكاناتها ، وراح يمدد الأرض لتحقيقتها لاحقا بالمدو الفرنسي وسابقا له .

كان "بالرستون" - شأنه شأن ساسة جيله في ذلك الوقت - يعرف ما فيه الكفاية من المسألة اليهودية . وبالطبع فإنه كوزير لخارجية بريطانيا ثم رئيس لوزارها كان مشغولا بالمسألة الشرقية ، لكن أوراقه لا تظهر أنه ينطوئ بين المسائلين إلا بعد أن قام به "نابليون" .

ويبدو أن "بالرستون" اكتفى ذلك الوقت بهزيمة الخطط الفرنسية واطمان ، وإن كانت فكرة الوطن القوي اليهود قد طرحت عليه من بعض البروتستانت الذين رأوا فيها تحقيقا لنبوءة العهد القديم .

وإذا كانت هذه الدعاوى التبشيرية قد وصلت إلى سمع "بالرستون" ، فليس مؤكدا أنها وصلت إلى عقله . وكانت تلك هي المهمة التي يجب أن يتولاها أحد ، وبالأمل تولاه اللورد "سافيسبري" .

كان اللورد "سافيسبري" صهرا قريباً لـ "بالرستون" ، وفي الوقت ذاته صديقاً مقرباً من اللورد "روتيندام" وعائلته - وهم بين أكثر يهود الغرب الأفنياء والمأزومين من موجبات هجرة يهود الشرق إلى غرب أوروبا ، وأخدمهم حماسة في العمل على "تصدير الفالاش" منهم إلى فلسطين - وقد بدأ "سافيسبري" محاولاته لإقناع "بالرستون" بالدهاوى المقدسة ، ثم وجد أن الأساطير القديمة عاجزة فهذا يضيف إليها ذرائع سياسية يستطيع رئيس وزراء بريطانيا أن يفهمها ويستوعبها .

وكتب "سافيسبري" في يومياته - ١٤ يونيو ١٨٣٨ - ما نصه :

"أسس تذاوت المهاد مع بالرستون ، ورحلت بعد المهاد أحدثه من أساس اليهود ومذهبهم ، وكان يستمع إلى وهيناه نصف مفضستان بمسك بيده كأس براندي يرفف منه ما بين وقت وآخر .

وعندما تركت حديث الأساس اليهودية ورحلت أحدثه من المصالح والازايما التجارية والمالية التي تنتظر بريطانيا في الشرق ، لمعت هيناه وتبدى اهتمامه وترك كأس البراندي على المائدة بجانبه وراح يسمعى ."

إن الوثائق البريطانية في تلك الفترة حافلة بالشواهد على تطور فكر رئيس وزراء بريطانيا حتى وصل إلى تحديد ثلاثة أهداف للسياسة البريطانية في الشرق الأوسط ، وحتى راج يبنى وراء هذا الفكر تحالفا من القوى الأوروبية الكبرى تؤيده قبل أن يسهح ليرث الخلافة على الجميع .

كانت الأهداف الثلاثة ، وهي ظاهرة بجلاء في الوثائق البريطانية من ذلك العصر ، على النحو التالي :

١ - إخراج "محمد علي" من سوريا لكف ضلعي الزاوية المصرية - السورية .

٢ - حصر "محمد علي" داخل الحدود المصرية وراء صحراء سيناء ، وتحويل هذه الصحراء إلى نوع من "سداة الفلين" تقلل عنق الزجاجة المصرية التي يمثلها وادي النيل (والتشبيه من خطاب لـ "روثيلاند" موجه إلى "بالمرستون" بتاريخ ٢١ مايو ١٨٣٩) .

٣ - قبول وجهة النظر القائلة بفتح أبواب فلسطين لهجرة اليهود إليها وتشجيعهم على إنشاء شبكة من المستعمرات الاستيطانية فيها ليكون منها ذات يوم عازل يحجز مصر عن سوريا ، ويمنع للقاهما في الزاوية الاستراتيجية الحاكمة !

وكانت أهداف "بالمرستون" تلقى تأييدا ومساندة من اللورد "ولينجتون" قائد الجيوش البريطانية وقاهر "نابليون" في "واترلو" . ومن الملاحظ أن كثيرا من التقارير في الوثائق البريطانية تشير إلى أن "ولينجتون" هو صاحب نظرية مواجهة "محمد علي" على ثلاث مراحل: إخراجهم من سوريا ، واحتواؤه في مصر ، وإنشاء عازل حاجز بين البلدين .

محمد علي

" اللهمامة صحتها وللقلب كهفه "

(الشاعر البريطاني اللورد "بايرون" في إحدى
أغانيه المبرية)

مع بداية القرن التاسع عشر كانت الأجواء في بريطانيا مهيأة لمعركة تصفية الخلافة
العثمانية . فقد بدا أن هذه تركة حان موعد إزالتها . ومضت السياسة تلبور خططها ،
والقائدات العسكرية ترسم خرائطها ، وحتى الأدب والفن دخلتا ساحة المعركة دون أن
يعنى ذلك أن أوامر صغرت للأبناء والشعراء بأن يدخلوا ، وإنما الذي يحدث عادة أن
المناع العام السائد في أي بلد من البلدان في لحظة معينة من حياته يمد تأثيره على
كل شيء من المخلع إلى المسرح ومن القبلة إلى القصبدة !

إن معركة الهجوم على دولة الخلافة بدأت - وكان ذلك منطقيا - بهجمات متواصلة على
الممتلكات الأوروبية للدولة العلية بمطلب تحرير المسيحيين من أسر الخليفة العثماني المسلم .
وفجأة دخلت الورقة اليهودية ، بريطانيا هذه المرة بعد أن كانت فرنسية . وبما أن اليهود
كانوا يعيشون في سلام باستمرار تحت حكم السلطان العثماني متفرقين في ممتلكاته وقد آوت
كثيرين منهم بعد الخروج من الأندلس سويا مع المسلمين ، فإن تحرير بلد يهودي لم يكن
واردا . لكنه في مناشخ بدايات القرن التاسع عشر راحت فكرة إنشاء وطن قومي لليهود
تأخذ حيزا يزيد كل يوم . وبالتالي فاعمر مثل "بايرون" فإن لقائهم عن اليونان ما
لهت أن أفسحت طريقا في إلهامه لمجموعة القصائد التي سماها "الأغاني المبرية" ، وأولها
صيحته المعروفة :

" اللهمامة صحتها ، وللقلب كهفه "

ولكل حسب أرضه إلا اليهودي

فلنفس عنده خير قبره "

لم يكن الشعر حتى عند "هايون" بعيداً عن السياسة . فالسياسة (توسعية عسكرية ، أو اقتصادية أو مالية ، أو استيطانية عنصرية في هذا العصر) كانت ملء الأجواء . ومن الطبيعي أن الدوافع العامة لا يمكن أن تكون بعيدة عن إلهام الشعر ، حتى وإن كان القرب هذا الإلهام من السياسة غير مباشر ، وبالشعور دون التفكير المقصود والمنظم .

إن الزعيم الصهيوني "ناحوم سوكونوف" رفيق "ميرتزل" في فكرة تأسيس الدولة كتب في مذكراته يقول إنه فكر طويلاً وتأمل في الأسباب التي دعت إنجلترا إلى التحمس للمشروع الصهيوني في فلسطين ومساندته . وقال في مقدمة هذه المذكرات :

"إنني سألت نفسي كثيراً عن أسباب إنجترا لحركتنا وتوصلت إلى أربعة أسباب لربها كما يلي :

١ - الطابع الإنجيلي للشعب الإنجليزي .

٢ - تأثير الإنجيل في الأدب الإنجليزي .

٣ - محبة فلسطين عند الإنجليزي .

٤ - السياسة الإنجليزية في الشرق الأدنى طوال القرن التاسع عشر .

ومن المدهش أن الأسباب الثلاثة الأولى تنتمي إلى عالم التأليف والإنشاء ، وأما السبب الرابع فهو وحده السبب الذي ينتمي إلى عالم الحقائق والمصالح .

وكانت أهم مصالح إنجلترا في ذلك الوقت هي ضرب "محمد علي" باخراجه من سوريا واحتوائه في مصر - وخلق هازل حاجز بين مصر وسوريا .



في نهاية سنة ١٨٣٨ كتب قائد الجيوش البريطانية - وقاهر "ناهايون" - اللورد "ولنجتون" تقريراً إلى اللورد "بالمرستون" يقول فيه ملخصاً أحوال الشرق الأدنى كما يلي :

"في هذا العام نضحت أزمة خطيرة بين مصر وتركيا نتيجة لتناقضات ومصراعات سببها وإلى مصر . فقد استطاع "محمد علي" في شهر سنوات أن يهضم أسطولا وجهها يوقان كل ما يحتاجه للضرورات الشرعية لحكومته . واستطاع بتصرفات مقتصة بالظفان والاضطهاد ضد شعبه أن يهضم جهشا في حجم ليس له ما يبرره . فقد جند مائة ألف رجل وحشدتهم ضد سنده الخليفة العثماني ، ورمى جانباً قناع الولاء الذي يتظاهر به ، وأعلن أمام قناصل الدول في مصر أنه يريد إعلان استقلال مصر ، كما أنه يطالب بضم سوريا . ونجح "محمد علي"

فعلا في أن يهزم حربيا ناجحة ضد الخلافة ، وتقدم بجيوشه حتى "صهيون" على الحدود التركية السورية . ولم تقتصر قوة "محمد علي" على جيشه البري ، وإنما تمكن أسطولُه أيضا من هزيمة الأسطول التركي . وخاف قائد الأسطول التركي بعد هزيمته أن يعود إلى استانبول ويهلك عقابه ، وهكذا قرر يعمل من أعمال الخيانة أن يذهب بجيشه إلى دكتاتور مصر المنتصر ، وأخذ أسطولُه إلى الإسكندرية ووضع نفسه -وعليها عشرون ألف بحار- تحت تصرف "محمد علي" ، إن هذه الأوضاع تتطلب تصرفا سريعا من الحكومة الإنجليزية كما تتطلب تدخلًا عاجلا يتكفل بإعادة "الباهيا" الذي يتصور نفسه لا يهجر إلى مقلبه وإلى الخوض والطامة للسلطان .

إن "المرستون" لم يكن يحتاج إلى أكثر من هذا لكي يلتفت بضرورة العمل وأسرع ما يمكن أمام القوة الجديدة اليازمة في مصر . وكان أكثر ما شايكه أن "محمد علي" بأسطولِه المصري الأصلي ، وبالأسطول التركي الذي انضم إليه ، يمكن أن يصبح قوة مؤثرة في البحر الأبيض وحول شواطئه ، فهو يستطيع إنشاء دولة عربية قوية في مصر ، أو يستطيع أن يزحف إلى استانبول لتجديد شباب الخلافة العثمانية ، وفي الحالتين يخلق قوة تتعدى للمحاولات الأوروبية لاقتصاص تركية العثمانيين ، وهذه كلها أمور لم تكن السياسة الإنجليزية على استعداد للقولها . وهكذا نشط "المرستون" بحشد تحالف ضد "محمد علي" تنضم فيه إلى إنجلترا كل من روسيا والنمسا وبروسيا . وكان أن أعلن هذا التحالف فرض حصار على الموانئ المصرية وعلى موانئ الشام . وفي أجواء الحصار بدأ العملاء السريون لبريطانيا يهرون الفتن بين الطوائف والأقليات في الشام مستغلين الظروف الاقتصادية التي نتجت عن الحصار ، خصوصا وإن أسطول "محمد علي" (المصري والتركي) تعرض لكارثة بحرية ساحقة في خليج "نافارينو" . وكانت الخطوة التالية هي قيام الأساطيل الإنجليزية والروسية والنمساوية والبروسية بتركيز مدافعها على مواقع وطرق مواصلات جيوش "محمد علي" في الشام ، حتى يضطر إلى التراجع أو لتقطع قواته في الشام عن قواعدهم في مصر !



في هذه الظروف بدت هزيمة "محمد علي" محققة ، وأصبح محتلا عليه أن يشحبه من سوريا ويدعم موقفه في مصر إذا استطاع^(٢) . وكان الموقف في الشرق الأدنى كله معقدا .

(٢) بعد نحو قرن ونصف قرن من الزمان كان "جمال عبد الناصر" أمام تجربة مشابهة في خطوطها العامة لذلك الموقف الذي واجهه "محمد علي" ، وذلك عندما تكاثفت قوى صهيونية دولية وإقليمية على ضرب تجربة الوحدة المصرية السورية سنة ١٩٦١ .

وكانت ورقة "تابليون" اليهودية تطرح نفسها بإلحاح مستمر على السياسة الإنجليزية في هذه المنطقة الواقعة في قلب العالم . وتداخلت العناصر والاعتبارات حتى أصبحت معقدة ، فـ "هارستون" لا يريد موت الرجل المريض الآن ، كما أنه لا يريد له العافية في نفس الوقت . ويلخص الزعيم الصهيوني "تاحوم سوكولوف" هذه المعقدة في مذكراته على النحو التالي بالنص :

- ١ - إن السلطان وحده وبغير مساعدة لا يملك القوة الكافية للاحتفاظ بسوريا .
- ٢ - إن مصر لا حق لها في سوريا إلا إذا خضعت من خطر مجسى إليها من طريق تركيا .
- ٣ - إن مصر لها الحق في الاستقلال إذا استطاعت أن تحمّل عليه .
- ٤ - ولكن صودة سوريا لتكون جزءا من تركيا سوف تقلل باستمرار تهديدا لمصر .
- ٥ - وإذا ظلت سوريا جزءا من مصر فذلك سوف يجعل تركيا غير آمنة .
- ٦ - وإذا أحست تركيا بعدم الأمان لذلك سوف يهدد السلام في أوروبا ، ونتيجة لذلك فمن الضروري إنشاء كيان عازل يفصل بين مصر وتركيا ويبقى كلا منهما في مكانه ويمتنع أليهما من أن يصبح أقوى مما ينبغي^{١١}

ويستطرد "سوكولوف" من هذا السياق إلى أن تلك كانت الفرصة الذهبية أمام الحركة اليهودية لكي تملأ هذا الفراغ وتطالب "ببعض إسرائيل من جديد" ، فهذا هو الحل للمعضلة اليهودية ، وجزء من الحل بالنسبة للمسألة العرقية لأنه يؤجل طرح مسألة خلافة الدولة العثمانية إلى موعد لاحق يكون الجميع قد استعدوا له !

وكان ذلك تقريبا هو المنطق الذي تبناه رئيس وزراء بريطانيا اللورد "هارستون" . ففي أغسطس ١٨٤٠ كتب إلى سفيره في استانبول اللورد "بونسوني" بتعليمات جاء فيها ما يلي :

"عليك أن تلقى السلطان وحاضيته بأن الحكومة الإنجليزية ترى أن الوقت أصبح مناسباً لفتح أبواب فلسطين أمام هجرة اليهود إليها . لقد حان الوقت لكى يعود هذا الشعب الشرير إلى أرضه التاريخية . إن السلطان وحاضيته قد لا يقتنعان بهذا المنطق الأخلاقي ، ولذلك عليك أن تجعلهما يدركان أن اليهود في العالم يملكون ثروات ضخمة ولديهم كنوز من المال وقهرة . وإذا حصلوا على حماية السلطان فسوف يكون في مقدوره أن يقتحمهم بمساعدته ، وهم بلا شك سوف يقفرون عطشه عليهم .

عليك أن تذكر السلطان وحاشيته بأنه يقوم الآن بين اليهود المهشرين في كل أوروبا شعور قوي بأن فرصتهم في العودة إلى فلسطين آخذة في الانحسار . ومن المعروف جيدا أن يهود أوروبا يمتلكون ثروات كبيرة ، ومن المؤكد أن أي قطر يختاره اليهود ليستوطنوا فيه سوف يحصل على فوائد عظيمة من ثروات هؤلاء اليهود . فإذا عاد الشعب اليهودي تحت حماية ومباركة السلطان إلى فلسطين فسوف يكون ذلك مصدر ثراء له ، كما أنه سوف يكون حائلا بين "محمد علي" أو أي شخص آخر يخلفه وبين تحالف خطئته الشريرة في الجمع بين مصر وسوريا ولبنان والدولة العلية .

وحتى إذا لم يؤد هذا التخليع الذي يمنحه السلطان لليهود إلى استيطان أعداد كبيرة منهم في فلسطين ، فإن إصدار قانون يعطيهم حق الاستيطان سوف يعمل على نشر روح من الصداقة تجاه السلطان بين جميع يهود أوروبا ، وسوف ترى الحكومة التركية على الفور أنها كسبت أسفقاء أوفياء ومخلصين بقانون واحد من هذا النوع ."

وفي رسالة ثانية بتاريخ أول ديسمبر ١٨٤٠ يكتب "بالرستون" إلى سفيره في استانبول "أن يسعى لاقتناع حاشية السلطان والسلطان نفسه بأن "محمد علي" قد حاول مرة أخرى ، وإذا تركت له الفرصة فإنه سوف يعود مرة أخرى إلى دمشق ويعمل فيها تأسيس خلافة جديدة تعيد ذكريات الخلافة الأموية ، ويدعو العرب منها إلى إنشاء إمبراطورية كبيرة تجمعهم وتؤثر على الموازين في الشرق الأدنى والبحر الأبيض ، وسوف تتكامل هذه الإمبراطورية إذا قامت بتهديد تركيا وربما إنهاء وجودها كدولة . والحل السريع الممكن هو إقامة عازل بين الدولة العثمانية وبين طموحات "محمد علي" أو خلفائه ، وعلى السلطان وحاشيته أن يدركا أن مطامع "محمد علي" لا تقتصر فقط على شرق البحر الأبيض وإنما تمتد مطامعها أيضا إلى البحر الأحمر وحتى عدن لكي يؤكد سيطرته الإمبراطورية . إن العازل الذي يمكن التفكير فيه هو توطين اليهود في فلسطين ، لأن ذلك يجعل منهم شوكا في خسارة "محمد علي" تمنعه من تهديد تركيا من ناحية ، كما تردعه عن المنيعة في البحر الأحمر كما يحلم . إن الحكومة الإنجليزية سوف تكون مستعدة إذا ما قبل السلطان بمشورتها أن تفتح المستعمرات اليهودية في فلسطين تحت حمايتها لكي يكون ذلك تحذيرا دائما لـ "محمد علي" حتى يرتدع عن تهديد الدولة العلية ."

ثم يعود "المارستون" بعد شهرين فيكتب إلى سفيره في تركيا :

"عليك أن تلح على السلطان أنه سوف يستلهد فائدة كبرى إذا ما قام بإفراء وتشجيع اليهود المبعثرين في أوروبا بالنهاب والتوطن في فلسطين . إن السلطان سوف يدرك أن اليهود في فلسطين سوف يظهرون نوعا من الأمان الحقيقي والملموس ، ولا توى الحكومة الإنجليزية مطالبته بأن يتحمل عبء هذا الأمان، ولذلك فنحن نقترح أن يكون في استطاعة هؤلاء اليهود أن يعتمدوا على حماية إنجلترا، وأن يكون من حقهم أن ينقلوا هكأواهم إلى الباب العالي عن طريق السلطات الإنجليزية."

ومن المثير للتأمل أن عدد اليهود في فلسطين في ذلك الوقت كان ٣٧٠٠ نسمة .

كانت لندن تمشى على خطى باريس ، وكان "المارستون" يقتلى أثر "نابليون" .

ومن سوء الحظ أن الذين يعنهم الأمر في المنطقة لم يكونوا واضعين لما يدبر لهم .



بالموستون

"بريطانيا تريد جمهورية يهودية ،
ولنسا يجب أن تصر على مملكة مسيحية
عاصمتها القدس"

(القاهر الفرنسي "اللويس دي لامارتين"
في خطاب أمام مجلس النواب الفرنسي)

فرضت القوى الأوروبية على "محمد علي" (باشا) بعد هزيمة سنة ١٨٤٠ معاهدتين ،
أولاهما خاصة بحقه في ولاية مصر ووراثتها في خلفائه من بعده ، وكانت أهم بنودها
ثلاثة بالترتيب التالي :

١ - وقف عملية التصنيع الكبيرة التي كان متدفعاً إليها .

٢ - تقليص حجم الجيش المصري إلى الحد الكافي لحفظ الأمن داخل مصر .

٣ - فتح مصر للتجارة الدولية بدون عوائق أو قيود .

وأما المعاهدة الثانية التي فرضت عليه ، فقد كان شريفاً أن يكون عنوانها "معاهدة لتسدين
لتهدئة الأحوال (Pacification) في سوريا" . وكان ظاهر نصوصها تحقيق خروج "محمد
علي" من سوريا . وفي حقبة الأمر فقد كانت هذه هي المعاهدة التي تمهد المسرح لهجرة
يهودية واسعة إلى فلسطين ، ولتحقيق المطلب الأساسي في إرث ممتلكات الخلافة العثمانية
في الشرق ، وبالتحديد في تلك الزاوية الاستراتيجية الهامة المحيطة بشرق البحر الأبيض
والتي تمثلها مصر وسوريا .

وفي هذه المرحلة فإن المذكرات الشخصية للساسة في خلوتهم تكشف من الحقائق أكثر مما تكشفه أوامرهم إلى سفرائهم ووزرائهم . وربما أن مذكرات اللورد "شافتسبري" - صهر رئيس الوزراء "بالرستون" وأقرب الأصحاب إليه - هي في ذلك الوقت من أكثر الوثائق تبصرا من النوايا والمخططات والتحركات . ويوم ٢٤ أغسطس ١٨٤٠ كتب اللورد "شافتسبري" في مذكراته ما يلي :

"الفتاحية جريدة التابيز التي فُرِغت من قراءتها الآن تثير مخاوفي ، كما أنها تستعدي في نفس الوقت . تتلخّص لأنها قد تكون كشفًا مبكرًا عما نريد تحقيقه ، وقد يكون في ذلك ما يستمدى قوّى ومناصر كثيرة ضد المشروع في وقت لا يزال فيه هذا المشروع يحتاج إلى جهد كبير لتعزيز إمكانية وفرصة تنفيذه . لكنها تستعدي من ناحية أخرى لأنها تتحدث بمراحة من أن اتفاقية لندن لتهدئة الأحوال في سوريا تمهد الطريق لموبة اليهود إلى وطنهم في فلسطين ، وهذا انتصار للأفكار ومخططاتناها واتقننا بها .

قال لي بالرستون إنه كتب إلى اللورد بونسونبي - سفيرنا في استانبول - يطلب إليه أن يفتح خطبا مباهرا مع رشيد باشا لكى يهذل جهده مع السلطان في إقناعه بتشجيع هجرة اليهود إلى فلسطين ، وفي طمأننته إلى قدرتنا على حمايته هناك ."

وفي يوم ٢٥ سبتمبر ١٨٤٠ كتب اللورد "شافتسبري" في مذكراته يقول :

"بدأت في إعداد مذكرة لبالرستون عن مشرونا . لاحظت أنني استعملت كلمة "استعداد (recall) اليهود إلى وطنهم" ، ويخطر لي أن كلمة "استعداد" قد تكون قوية بأكثر مما هو لازم، ومن الأفضل تغييرها إلى كلمة "السماح" (permission) . إن من اللهم جدا أن يكون لدى رئيس الوزراء مخطط واضح للعمل .

مقالة التابيز اليوم ممتازة ، فهي تتحدث عن مشرونا لزوم الشعب اليهودي في أرض آبائهم تحت حماية القوى العظمى الخمس ."



وفي ٥ أكتوبر ١٨٤٠ يكتب اللورد "شافتسبري" في مذكراته فيقول :

"نحتاج إلى معلومات أكثر حول عدد من المسائل المهمة فيما يتعلق بعودة اليهود إلى فلسطين :

١ - ما هو محور اليهودي المادي تجاه مسألة العودة إلى الأراضي المقدسة ؟

٢ - هل يمكن أن يعود إلى فلسطين هؤلاء اليهود الذين يمتلكون ثروات ومعارف ، وهنالك سوف يحملونها معهم إلى هناك ؟ وكيف يتصورون إمكانية توفير الحماية لهذه الأموال والممتلكات ؟

٣ - في أي مدى زمني يستطيع اليهود أن يعودوا إلى فلسطين ؟

٤ - هل يعودون على نيتهم دون حاجة إلى أي شيء آخر سوى حماية الأشخاص والممتلكات ؟

٥ - هل يرضون بأن يهبطوا تحت قوانين الدولة التي تحكم في الأرض المقدسة كما يهبطونها مع توفير ضمان دولي لهم تقدمه الدول الأوروبية ؟

إننا نحتاج إلى إجابات عن هذه الأسئلة لكي نستطيع أن نمس في مشروعنا بخطى وأهمية ثابتة .

كان مجمل الظروف في أوروبا ذلك الوقت يجلب في الواقع على كل الأسئلة التي طرحها اللورد "شاليسبري" في يومياته . وقد تعرض لها اللورد "ليندساي" في مذكراته عن رحلاته إلى مصر والأراضي المقدسة . ويمكن استخلاص ما توصل إليه في عدة استنتاجات تظهر واضحة في تقرير بحث به إلى رئيس الوزراء "بالرستون" ، ويمكن ترتيبها على النحو التالي :

١ - إن الأرض المقدسة ليست فيها قاعدة يهودية كافية تستطيع أن تتحمل عبء هجرة يهودية مؤثرة ، على فرض أن هذه الهجرة كانت جاهزة .

٢ - إن يهود الشرق (يهود مصر وسوريا وتركيا بالدرجة الأولى) ليسوا متحمسين للعودة إلى فلسطين ، ويخشون أن كثرة الحديث عن هذه العودة سوف تعرضهم حيث هم لمشاكل لا قبل لهم بها .

٣ - إن غالبية بين اليهود لا تريد أن تذهب إلى فلسطين لكي تجد نفسها تحت حكم إسلامي يمثل في دولة الخلافة التي استمدت الحكم في سوريا بعد هزيمة "محمد علي" .

٤ - إن الاعتماد للهجرة يمكن أن يقتنع به يهود الشرق (شرق أوروبا) ، ولكن انصرار الهجرة عليهم سوف يجعل من فلسطين "جيتو" آخر (أي حارة أو حي يهودي آخر) من اليهود الشرقيين تحت حكم استانبول .

٥ - إن اليهود الأقرب إلى تقبل فكرة الهجرة هم من الشيوخ الذين أتحدث لهم قراءة "التلمود" ودراسته ، وأما شباب اليهود فإن اتجاههم ينزح عموماً إلى الاندماج في المجتمعات التي يعيشون فيها الآن ، وحيث أنكروا معيشتهم ، وحيث يأملون أن يؤدي اندماجهم في هذه المجتمعات إلى ممارسة حياتهم مستقبلاً دون تمييز ضخم أو اضطهاد .

٦ - إن اليهود عموماً - شيوخاً وشباباً - لا يعرفون ما فيه الكفاية عن فلسطين ، وليسوا واثقين من أن أحوالها تسمح لهم باستيطانها ، وهم في أغلبهم يحتفرون أن أرض صهيون الجديدة هي أمريكا وليست فلسطين .

٧ - إنه لاحظ أن كثيرين من حاخامات اليهود أنفسهم ، على عكس أغلبية اليهود في أوروبا ، ليسوا متحمسين لمودة اليهود إلى فلسطين . ومن منظورهم التوراتي فإن هذه العودة لا يمكن أن تبدأ إلا بظهور المسيح المخلص الذي يتولى قيادة شعبه إلى هناك . وهذا المسيح لم يظهر بعد .

٨ - إنه يخشى أن كثرة الحديث عن العودة الآن قد تنبه أطرافاً في دولة الخلافة ، وتدمروها إلى مناقشة المشروع في وقت لم يستكمل فيه أسباب قوته .

٩ - إنه من ناحية عملية لا يوجد تنظيم يهودي جاهز يستطيع أن يقود شعبه إلى هذه العودة . وبالتالي فقد يكون من الأفضل لتجاذب المشروع أن ينتظر ظروف أفضل من الظروف الحالية ويكون اليهود فيها قد أنشؤوا تنظيمهم ومؤسساتهم التي تتحمل مسؤولية عملية العودة.

ومن المفارقات أن تعليق رئيس الوزراء البريطاني على هذا التقرير كان قوله طبقاً للمورد "شافنبري" :

"يظهر أنه من السهل أن نقتلع اليهود من الـ "جيتو" (حارة اليهود) ولكنه ليس من السهل أن نقتلع الـ "جيتو" من اليهود ."



وكانت فرنسا تتابع عن بعد مشروعات وخطط "بالرستون" . فيانيس - حتى بعد هزيمة "نابليون" - ما زالت تجتث بعض خططه في المشرق على الأقل في كلامها ، كما أنها في مرحلة من المراحل وقلت وراءه "محمد علي" وأبدته . وربما أخطر من ذلك فإن فرنسا لم تكن تسهت كل أحلام الحروب الصليبية ، لكنها وهي تتابع جنحة مشاعر كثيرين فيها - ولو بمجرد المداء لبريطانيا ولكل شيء تقوم به - إلى سياسة مختلفة . وكتب السفير الإنجليزي في باريس إلى رئيس الوزراء "بالرستون" خطاباً يقول له فيه :

"هناك مخاض بالهك تتزايد في باريس إزاء مشروعات إنجلترا في الشرق الأدنى . وشهد مجلس النواب الفرنسي مناقشات حادة حول هذا الموضوع . ومن بين الذين تكلموا فيه المسمو "لامارتين" (يقصد الشاعر الشهير "ألونس دي لامارتين" ، وكان في ذلك الوقت عضواً في مجلس النواب الفرنسي) . إن المسمو "لامارتين" وقف يقول : "إنه من الأولى لفرنسا أن تفكر في إقامة دولة مسيحية على منابع الأردن شاملة لجبل لبنان بهرط أن تكون اللتدس عاصمتها . وإذا استطاعت فرنسا أن تحقق هذا الحلم فإن ذلك يكلفها مجداً عظيماً من أي بقعة أخرى في الأرض . إن اللورد بالمستون يفكر في إقامة جمهورية يهودية ، فلنطلب إليه أن يختار مكاناً آخر يحقق فيه ما يحلم به . ولكن فرنسا يتحتم عليها أن تسمى وأن تصمم على قيام مملكة مسيحية عاصمتها اللتدس ."

كانت هذه التصورات كلها بذوراً تحملها الرياح إلى منطقة سواحل شرق البحر الأبيض وونجانه وسهول ، وشموه ومالكه .

● من ناحية كانت هذه بذور استراتيجيات إمبراطورية - اقتصادية سياسية عسكرية - استخدمت كل شيء حتى الأساطير الدينية .

● ومن ناحية أخرى كانت هذه بذور "مقدمات : محرمات" سوف تنفأ يوماً إذا استيقظت المنطقة وعادت طريقاً في صلح التاريخ ، وليس لعبة في يد هؤلاء الذين يعطون للقوة حقاً وحيداً في صنعها !

إن أهل المنطقة المعنية : مصر وسوريا وفلسطين ، لم يتصل بهم أحد في ذلك الوقت ولا سمع رأيهم ، ولم يناوئهم طرف أو يتركهم في رسم الخرائط وتخطيط الحدود .

فالرياح في العادة لا تسأل الأرض التي تلقى عليها أحمالها من البذور - أو غيرها مما تحمله - عن شعورها أو فكرها أو مطلبها ، وإنما هي قوة واحدة عاتية ترمى بها عندها ، وأرض رخوة موحلة تتلقاه سواء أرادت أو لم ترد !

وكانت تلك هي البداية لاستراتيجية همس ، شديدة البأس ، بعبوة النظر ، ترسم لنفسها ما يناسب هواها !

الفصل الثاني

خريطة تبحث عن أرضها !

" إذا كان من الخطأ
تصوير التاريخ وكأنه مؤامرة ، فالأهد تورطاً في
الخطأ تصويره وكأنه مصادفة "

روتشيلد

" أنتم طريقكم محمد علي من الشام
ولكنكم تركتم وراءه فراشا لم يملأه أحد "
(البارون "روتشيلد لرئيس وزراء بريطانيا)

من الصعب نسبة استراتيجية كاملة للإمبراطورية بأسرها إلى عنصر واحد أو إلى مطلب بعينه . فمن الطبيعي أن العناصر تتعدد وتتقابل وتتقاطع بحيث يخرج منها تصور إستراتيجي واسع تتواصل عملية تربيته على مراحل تتفاصل مع متغيرات الظروف . وبالتالي فإنه من الصعب افتراض أن الهدف الوحيد للسياسة البريطانية في الشرق كان تحقيق الفصل بين مصر وسوريا ، ويزرع وطن قومي لليهود فاصلا بينهما عند نقطة الاتصال بين شلمى الزاوية الاستراتيجية الكبرى في جنوب شرق البحر الأبيض .

كانت هناك عناصر أخرى بالتاكيد ، منها مطالب تأمين خطوط المواصلات الإمبراطورية مع الهند ، ومنها مطالب السيطرة على طرق التجارة البحرية ، ومنها مطالب الصراع على البحر الأبيض والبحر الأحمر ، ومنها مطالب لندن في تأكيد مركزها المالي والتجاري الحاكم . ومع ذلك فإن هذه المطالب كلها ، وهي حقائق واقعة ، لا تنفي أنه في تلك الفترة من منتصف القرن التاسع عشر كان فصل مصر عن سوريا - وإنشاء عازل بينهما - مطلباً من أهم وأبرز مطالب السياسة البريطانية . وهذه عملية تواصلت خطاها ظاهرة وواضحة على خط متعدد من معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ وحتى صدور "وعد بليرز" سنة ١٩١٧ .

وفي أعقاب توقيع معاهدة سنة ١٨٤٠ مباشرة كانت الخطوة البريطانية الأولى هي تمهيد الأرض في سوريا أخذاً في الاعتبار أن فلسطين في ذلك الوقت كانت بأكملها ولاية من ولايات الشام .

وكانت أول حركة قام بها رئيس وزراء بريطانيا "بالرستون" هي إرسال منشور سرى إلى كل قنصل إنجليزي في دمشق وحلب والقدس ويروى وحيفا يقول فيه بالتحصن ما يلي :

"إننا خرجنا بعد هزيمة محمد علي وإخراجه من الشام (Levant) ونحن والأتراك حليفان وبيننا تعاون لا بد أن نحرس عليه ، ونحن لن ندخلهم في أمره . ولكن ذلك لا يجب أن يمنعنا من تنفيذ ما تقتضيه سياستنا في المنطقة .

إن الأتراك يعرفون ما ينبغي عليهم عمله تجاه اليهود في هذه المنطقة ، ولكنه من التمتين علينا أن نتابع ذلك بهجد منظم هدفه أن نتأكد من أن اليهود لا يتعرضون هناك لأي تمييز ضدهم أو اضطهاد . ونحن مطالبون الآن بأن نجعل اليهود يثقون بنا ، وأن يتأكدوا أن حكومة إنجلترا تعتبر نفسها مسئولة عن سلامتهم ورعاية في حمايتهم ومصمة على ذلك .

إنني أرى أنه من الضروري أن يكون هذا التمهيد معروفا لكل اليهود في الشام ، بمن في ذلك اليهود من رعايا دول أخرى غير إنجلترا . ولا بد أن يعرف اليهود النمساويون أو الفرنسيون ، أو الأوروبيون بصفة عامة ، أنه يحق لهم أن ينجسوا إلى القنصل البريطاني لحمايتهم في حالة تقصير قنصل دولهم الأصلية عن توفير هذه الحماية . فكلهم يجب أن يستقر في وعيه أن إنجلترا هي حامية اليهود ."

وبالفعل فإن توجيهات "بالرستون" - كما وردت في منشوره - بدأ تنفيذها في الشام بهمة استدعت أن يقوم حاكم القدس - باسم سكانها اليهود - بإرسال حجاب واق من الفرس إلى الملكة "فيكتوريا" ، وقد سلم لها الحجاب فعلا سنة ١٨٤٩ ، وجرى ذلك في أعقاب مؤتمر يهودي صغير عقد في لندن برعاية عائلة "روتشيد" ، وانتهى إلى إعلان مطلبين :

١ - إعلان قبول "يهود العالم" - ١١ - للحماية الإنجليزية لهم حيثما كانوا .

٢ - التوجه بالرجاء للحكومة الإنجليزية بأن تسهل لليهود استعمار فلسطين على نمط ما يحدث في مناطق أخرى .

وكان المقصود بهذه الإشارة إلى "مناطق أخرى" هو حركة الاستيطان الأوروبي الدائرة وقتها على قدم وساق في جنوب أفريقيا وأستراليا وكندا . فقد كان ذلك عصر الهجرات الاستيطانية المسلحة ، وكان اليهود يطلبون الحاملة بالمثل فيما يتعلق بفلسطين .

ويكتب اللورد "شافنيسيري" في مذكراته :

"نصحت ومعنى البارون روتشيلد لمقابلة بالرستون . وكان روتشيلد مؤثرا إلى أبعد درجة وهو يقول لبارنستون مشيرا إلى خريطة كانت أمام رئيس الوزراء :

"إنكم تريدون محمد علي من هنا" (مشيرا إلى الشام - Levant) "ولكنكم تركتم
بعده فراخا . إن الأتراك عانوا إلى الشام بعد رحيل محمد علي ، وكل الناس يعرفون
أن السلطان مهزوم وأنه ما كان يستطيع العودة إلى دمشق إلا بفضل قوتكم . ولذلك
فحكمه في الشام ضعيف ، والأحوال فوضى ، والطوائف تتناحر ، وهناك فراخ لا
هيك فيه" . ثم وصل روتشيلد إلى الذروة الدرامية في حديثه حين قال لرئيس
الوزراء : "إنكم خلصتم من هنا قوة خريفة ، لكنها كانت مسيطرة وقادرة على
ضبط الأمور . والآن يتحتم عليكم أن تقوموا بدلا من تلك قوة أخرى تسيطر وتضبط
الأمر ولا تكون خريفة وطن قومي لليهود" .



كان رئيس وزراء بريطانيا يتلقى تقارير عن الأحوال في سوريا من مصادر مختلفة كان
بينها السير "موسى مونتيفيوري" ، وهو شخصية بريطانية معروفة في ذلك الوقت
بنشاطها في مجال الجمعيات الخيرية . وقد تكررت رحلاته إلى الشرق ، بما فيها سبع
زيارات لفلسطين . وكان الهدف الواضح لاهتمام "مونتيفيوري" بالشرق هو العمل على فتح
أبواب هجرة اليهود إلى فلسطين ، متأثرا في ذلك الوقت بمناخ هام اتسع تأثيره في لندن .

وفي أول زيارة لـ "مونتيفيوري" إلى المنطقة ، سئحت له الفرصة لأن يقابل "محمد
علي" (باها) في مصر وأن يتحدث إليه في موضوع هجرة اليهود إلى فلسطين ، وكانت
في ذلك الوقت تحت حكمه ... ولاية من ولايات سوريا . وكان رد "محمد علي" - طبقا
لكتابات "مونتيفيوري" وللوثائق المنظمة التي كانت تكتبها زوجته - : "إنه شخصيا يتفهم
ما يسمعه من السير موسى (مونتيفيوري) ، ويتعاطف مع ما يعاني منه اليهود في أوروبا ،
لكن القرار في شأن فتح أبواب فلسطين لهجرة اليهود إليها هو أمر يتصل بسلطة الخليفة
العثماني" .

ويمكن استنتاج أن والي مصر الذكي راوبرتش الشكوك حول حقيقة ما يعرض عليه
ودوافعه الخفية . وبالتالي فإنه أحال الأمر - عكس تصرفه في مسائل كثيرة - إلى الباب العالي
في استانبول . لكنه ليس هناك دليل قاطع في كل وثائق تلك الأيام على أن "محمد علي"
رأى القصد مبكرا ، وحاول أن يتوقاه محيلا قراره إلى استانبول .

وبعد هزيمة "محمد علي" فإن "مونتيفيوري" وغيره لم يجد أمامهم غير التركيز على
لندن ، خصوصا وأن أبواب استانبول أصبحت مواردة ، لا هي مغلولة ولا هي مفتوحة ،
لأن الضغوط اليهودية حاولت أن تستغل هزيمة "محمد علي" وتدفع بموجات هجرة مؤثرة
من أوروبا إلى فلسطين . وذلك أدى إلى إحراج السلطان الذي عاد إلى دمشق ضعيفا - كما

وصفه "روتشيلد" في حديثه إلى "بالرستون" - وسبب هذا الضعف فإن السلطان وقع تحت ضغوط عناصر في بلاطه تتخوف من هجرة اليهود إلى فلسطين على نطاق واسع ، وكانت وراء هذه الضغوط إيهامات إسلامية ، كما كان وراءها تأثير علاقات بين رجاله يلاطسه وبين كثيرين من الحكام والعلماء العرب والمسلمين في الشام نفسها .

وعاد "مونتيفوري" من إحدى رحلاته إلى المنطقة ليقابل "بالرستون" ويقول له (طبقا للذكرات ليدى "مونتيفوري") : "إنه لاحظ أثناء زيارته لاستانبول أن حماسة الباب العالي لليهود بردت تحت تأثير عناصر متعصبة تحبط به . وقد حاولت إلهامهم أنه لا داعي لتقلعهم ، فليس كل يهودي على الأرض مستعدا للذهاب إلى فلسطين أو رغبيا في ذلك . وبالتالي فليس للسلطان أن يخشى من ظهور ملايين من اليهود على شواطئ فلسطين . إن ما تريده أبسط من ذلك وأسهل . فنحن لا نريد إلا أن يكون اليهود - مثلهم مثل الإنجليز والهنجاريين والألمان واليابانيين - أصحاب بلد يمكن أن يصبح ملكا لهم ، وعاصمته هي القدس ."

ومع مطالع الخمسينات من القرن التاسع عشر كانت الحمى اليهودية في إنجلترا قد بلغت مداها ، في تناسق وتناغم ملحوظين مع موسيقى المظاهرات العسكرية التي ترافق التوسع الإمبراطوري البريطاني عبر البحار . وفي هذه الفترة نشر الدكتور "توماس كلارك" ، وهو أحد أبرز أساتذة التاريخ في جامعة "أكسفورد" ، كتابه الشهير بعنوان "فلسطين لليهود" . وترافق ذلك مع نشر المجموعة الكاملة للأغاني العبرية التي كتبها الشاعر الإنجليزي الكبير اللورد "بايرون" ، وذاقت بهذا قصيدة جديدة تقول :

"أطلع أيها الإله العظيم ودع قدرتك تتجلى

وأرسل أفعقتها مضيفة وناظرة على أبناء يعقوب

وأعد فلؤلهم الثالثة إلى أرضهم الموعودة هناك

وأهدم لكي يذهبوا إلى فلسطين فهي وطنهم"

لم يكن الساسة المنتمون في بئاه الإمبراطورية من أمثال "بالرستون" ، أو الراساليون اليهود الزاهيون في تصدير يهود الشرق إلى فلسطين للتخفيف عنهم من أمثال "روتشيلد" ، ولا العسكريون المطالبون بفصل مصر عن الشام وحجز القوة المصرية في أفريقيا من أمثال "ولنجستون" ، ولا المحستون من أمثال "مونتيفوري" ، ولا الضمراء من أمثال "بايرون" ، هم وحدهم الذين يدفعون الأمور في اتجاه فتح أبواب فلسطين أمام هجرة اليهود ، ولكن الحوادث نفسها راحت تزيد من ضغطها بما يساعد هذا الاتجاه . ففي تلك الفترة (١٨٥٤) قامت الحرب في شبه جزيرة القرم ، وأدت معاركها إلى تدفق عشرات آلاف

من يهود البلقان مهاجرين ينحدون مساعداً أبناة دينهم في أوروبا الغربية . وهكذا بدأت سقوط الحوادث تصف قوتها إلى سقوط الاستراتيجيات الكبرى الإمبراطورية والعسكرية والمالية ، فضلا عن أحلام المحسنين وأوهام الفخراء .

كانت الحوادث أيضا قد دفعت إلى الثقة في بريطانيا بجهل جديد من الساسة الإنجليز لم يكونوا أقل حماسة للمخططات القديمة من أسلافهم . ففي ذلك الوقت راح يتناوب على رئاسة الوزارة في إنجلترا الثثن من الساسة هما "جلادستون" - البروتستانتى - و"دزرائيلى" الذى كان أول وآخر يهودى يتولى رئاسة الوزارة في بريطانيا . وكان كلاهما صهيونيا :

أولهما ("جلادستون") صهيونى بالمعنى المسيحى للكلمة . أى هؤلاء الذين يؤمنون دينها بحرفية ما جاء في العهد القديم من "عودة اليهود" إلى فلسطين .

والثانى ("دزرائيلى") صهيونى بالمعنى اليهودى الذى أصبحت يهوديته - رغم إنجليزيتها - جصرة تحت الرماد في أصدائه .

وكان "دزرائيلى" الذى مارس في بداية حياته هواية الكتابة والأدب ، قد أفسى مكونات سره على أسنة أبطال رواياته . فقد ورد على لسان أحد هؤلاء الأبطال مثلا قوله : "إن إنجلترا أكبر بكثير من أن يحولها بعض ساستها إلى مكتب محاسبات تجارى كبير .. إنجلترا لها قلب ولها ضمير ، ولهذا فهي تقف مع اليهود مدركة أن الله ذاته يحارب من أجل يحمى إسرائيل ."

ولم يترك "دزرائيلى" جمرته تحت الرماد تتوهج على مؤلف أبطال رواياته فقط ، وإنما ذهب يوما - طبقا لكتاباتة - يقول لـ "جلادستون" - منافسه في رئاسة الوزارة وقتها - وكانت قوافل اليهود اللاجئين من حرب الترم في البلقان تصل إلى عواصم أوروبا الغربية - ما نعه :

"أرى بك أن تعرف أن الدول التى أحسنت إلى اليهود هى وحدها التى تتقدم وازدهرت" .

ولم يكن الأمر بالنسبة للآخرين - "جلادستون" أو "دزرائيلى" - قاصرا على الإحصاءات الدبلوماسية فقط ، وإنما كان كلاهما استعماريا من الدرجة الأولى .

ثم إن كليهما في ذلك الوقت بدأ يحس بالمناخ مع فرنسا التى خرجت من نواصت الثورة الفرنسية وهوايق قيام إمبراطورية "نابليون" وسقوطها ، ومشاكل عودة "البوربون" ثم فشلهم ، إلى حكم "نابليون الثالث" الذى بدأ يستجمع خطوط دور فرنسى بدأت أسلاؤه تصمغ في مصر بالتحديد .

كان "نابليون الثالث" هو الذى أعطى زعامته لمشروع حفر قناة السويس . وكانت زوجته الإمبراطورة "يوجينى" هى التى ركبت مع الخديو "إسماعيل" على السفينة المحروسة التى تقممت قافلة الميوز الأولى فى هذه القناة سنة ١٨٦٩ .

وبدا واضحا لكل من "جلاستون" و"ديزائيلى" أن النفوذ الفرنسى فى مصر يتزايد فى عصر الخديو "إسماعيل" . وكان ذلك مصححا إلى حد كبير ، وإن لم يكن سببه قصدا فرنسيا بقدر ما كان سببا عمليا نشأ من حقيقة أن عشرات من المبعوثين إلى فرنسا فى عصر "محمد على" ماؤوا إلى مصر وزادوا يفتلون أهم المواقع فى إدارتها ، متأثرين بالطبع بكل ما تعلموه فى جامعات فرنسا ، وكل مكتسبات ثقافتهم من الحياة فى باريس .

لكن "جلاستون" و"ديزائيلى" كليهما كانت له وجهة نظر ومقاصد وخطط أخرى ، تربط ما يجرى فى مصر بما يجرى فى الشام ، خصوصا وأن ذلك العصر شهد - أيضا - تدفق آلاف من نخب الشام الفكرية والفنية إلى مصر هربا من الاضطهاد العثمانى فى أوقات خبغت فيها هيئة الدولة وسلطانها ، ومن ثم عوقبت من ذلك بالبطش والعنف .

وبلغت النظر هنا فيما تقوله الوثائق الفرنسية - أن "نابليون الثالث" - إمبراطور فرنسا - طلب من موازنة لبنان - وهم جزء من الشام - أن يساعدوا قبل غيرهم فى أسهم شركة قناة السويس لأن لهم مصالح متشابكة مع مصر .

وفى هذه الأجواء فقد كان واردا ومحتملا لأسباب كثيرة ، عبيدة ومتشعبة ، أن تعود صلات مصر بالشام لتتجدد على نحو أو آخر .

وعادت السياسات القديمة تمارس مطالبتها بقوة دفع جديدة ، وتركز هذه المرة على مصر .

دزرائيلي

"اللعيب جاهز لإتمام الصفقة بأسرع ما
يمكن"
(البارون "روثفيلد" - "دزرائيلي")

إذا كان من الخطأ تصوير التاريخ على أنه مؤامرة ، فالأشدّ تورطاً في الخطأ تصويره على أنه مصادفة . والواقع أن التاريخ أفكار وخطط وإرادات أسم وفهموب وأشهاد ، وصراعات مصالح وقوى تتلقف والتفوق والفلبه ، وتسمى للمعرفة معها للفاحدة .

إن سلسلة الحوادث الكبرى التي وقعت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر في مصر وحولها ، وبالذات في فلسطين ، تصعب نسبتها إلى عهد المصادفات .

● سنة ١٨٧٥ قام "دزرائيلي" بمساعدة "روثفيلد" بشراء الحصه المصريه في شركة قناة السويس . وبدأت القصة حينما عرف "هنري لوبنهايم" - وهو مال يهودى من دائنى الخديو "إسماعيل" - أن و إلى مصر يريد أن يبيع أسهمه في شركة قناة السويس وأنه يبحث عن مستر يأخذها سرا ويضع ثمنها نقداً ، فهو يخفى أنه إذا عرف دالتوه يرفقه ميكرا ، وإذا تم تحقيق هذه الرغبة بوسائل بنكهة ، فإن هؤلاء الدائنين - وهم كثر - سوف يسبقونه بالحجز على ما قد يحصل عليه من الصفقة . وسمع مال يهودى آخر (وصاحب جريدة في نفس الوقت) هو "جرينوود" بالقصة من "لوبنهايم" ، وكان أن توجه على الفور إلى وزير خارجية إنجلترا - اللورد "ديرسى" وقتها - وأبلغه بما سمع ، وأخذه وزير الخارجية معه فوراً إلى مكتب رئيس الوزراء "دزرائيلي" محذراً أن هذه فرصة لإنجلترا تفزع فيها موطن قدم في مصر .

وزاح "دنزاثيلي" يفكر بمصر ، والمصلحة أمامه هي رغبة الخديو في إتمام البيع سرا والحصول على الثمن نقدا . فهو من هذين الشرطين لا يستطيع أن يعرض المصلحة على البرلمان . ولم يطل التفكير "دنزاثيلي" ، فقد وجد الحل بمنزلة ، وبعت بمكبره الخاص اللورد "راوتون" لهجى له بالبارون "روتشيلد" . وطلب "روتشيلد" من اللورد "راوتون" مهلة أيام يدير فيها الأمر .

كان المبلغ المطلوب أربعة ملايين جنيه ذهباً ونقداً وعدا . وكان رئيس الوزراء يدرك أنه حتى "روتشيلد" لا يحتفظ بمثل هذا المبلغ جاهزا في خزنته ، كما أنه لا يملك أن يتصرف في هذا الحجم من المال دون اتفاق فروع الأسرة كلها (في فرنسا وألمانيا) . ورغم ذلك فإن "دنزاثيلي" فوجئ في الصباح التالي بوصول "روتشيلد" إلى مقره مبكرا يطلب إتمامه من توبه ليلفله أن "الذهب جاهز لاتمام الصفقة بأسرع ما يمكن" قبل أن يغير خديو مصر رأيه أو يتصرف سر الصفقة إلى آخرين .

وتدافعت أمواج متلاحقة في مجرى قناة السويس فاضت على ما حولها عبر سيناء :

- سنة ١٨٧٧ - بعد ما لا يزيد كثيرا من سنة واحدة من شراء بريطانيا حصّة الخديو في قناة السويس - كانت أسرة "روتشيلد" تحول إنشاء أول مستعمرة استيطانية لليهود في فلسطين على مساحة ٢٢٧٠ فدانا ، وهي مستعمرة "بتاح تكفا" .

- في نفس السنة كانت الحكومة الإنجليزية تطلب من السلطان السماح له بإنزال قوات عسكرية في قبرص لأن تلك ضرورية عسكرية لمراقبة ما يجري في سواحل الشام من بعد ؛ وذلك تطهيرا لاتكالفة "المساعدة" الإنجليزية التركية التي عقدت بعد انتهاء حرب القرم ، والتي تعهدت إنجلترا للسلطان بمقتضاها أن تحمي ممتلكاته الشرقية . وكانت قبرص هي المواقع المثالي لمراقبة ومتابعة ما يجري في كل من مصر وسوريا .

- سنة ١٨٨٢ تلزمّت الحكومة الإنجليزية بوجود قلائل في مصر (ثورة "عرابي") ، واتخذ مجلس الوزراء الإنجليزي قرارا بخول قائد القوات البريطانية اللورد "ويسلي" باحتلال مصر وقمع الثورة العرابية . (وكانت التكلفة التي استند عليها القرار البريطاني هي خروج "عرابي" بأهله من طاعة خديو مصر ومن ثم حقوق السلطان) .

- في نفس السنة - سنة الاحتلال البريطاني لمصر - قام البارون "اموند روتشيلد" بتنظيم أول هجرة جماعية يهودية إلى فلسطين ، وهذه العملية فإن تعداد اليهود في فلسطين ارتفع من ثمانية آلاف إلى ٢٤ ألفا .

وفي نفس الوقت كانت أسرة "روتشيلد" قد بدأت في جمع تبرعات ومساهمات طائلة لشراء أراض في فلسطين ، وكانت الواجبة الظاهرة لهذه العملية مؤسسة للاستثمار في الأرض الزراعية في المشرق .

● بلغت النظر بـسدة في السنوات التالية مباشرة للاحتلال البريطاني ، حجم الزيادة التي طرأت على حركة الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وتصارع إنشاء المستعمرات للمستوطنين القادمين . وفي ظرف عشر سنوات من احتلال الإنجليز لصـر تم إنشاء للمستعمرات التالية :

- مستعمرة "كائرا" على مساحة ٥٠٠ فدان .
- مستعمرة "ريشون ليهيون" على مساحة ١١٨٠ فدان .
- مستعمرة "روفي بينا" على مساحة ٣٨٠٠ فدان .
- مستعمرة "ريشون جاكوب" على مساحة ١٨٥٠ فدان .
- مستعمرة "وادي الشانين" على مساحة ١١٨٠ فدان .
- مستعمرة "بيكرون" على مساحة ١٢٧٥ فدان .
- مستعمرة "كاستلنا" على مساحة ٥٥٠ فدان .
- مستعمرة "ريهوفوت" على مساحة ١٣٠٠ فدان .
- مستعمرة "أرتوف" على مساحة ٤٦٠ فدان .
- مستعمرة "أم الديشمال" على مساحة ٢٥٣ فدان .
- مستعمرة "الشويحة" على مساحة ٨٥١ فدان .
- مستعمرة "معاله" على مساحة ٩١٠ فدان .
- مستعمرة "شعار هابردين" على مساحة ٢٣٠ فدان .
- مستعمرة "هين زيتون" على مساحة ٥٠٩ فدان .
- مستعمرة "ميتولا" على مساحة ١٣٥٠ فدان .
- مستعمرة "بن شيمون" على مساحة ٢١٠ فدان .
- مستعمرة "ملهاصي" على مساحة ١٣٥٠ فدان .
- مستعمرة "هبة" على مساحة ٢٧٥٠ فدان .
- مستعمرة "الخضيرة" على مساحة ١٧٥٠ فدان .
- مستعمرة "كهفار سابه" على مساحة ٤٦٠ فدان .

وإضافة إلى ذلك فقد ظهرت عشرات المستعمرات الأصغر حجما ، وكان بينها مستعمرة "بن يهودا" على مساحة ٣٥٠ فدانا ، وكان موقعها في شرق الأردن . أي أن خطة الاستيطان اليهودي كانت تشمل الأردن غربا وشرقا .

• سنة ١٨٩١ أنشأ البارون "دي هيرتز" (مالى يهودى آخر) بالتعاون مع البارون "روتشيلد" مؤسسة للمشروعات الزراعية برأسمال قدره ٢ مليون جنيه استرليني ، وشارك في المشروع مالى يهودى ثالث هو السير "ارنست كاسل" الذى أبدى اهتماما ملحوظا بالمشروعات الزراعية فى مصر ذاتها ، وأنشأ شركة "وادي كوم أمبو" التى تملك مساحات شاسعة من الأراضي قرب مدينة "كوم أمبو" فى صعيد مصر .

ومن الظاهر أن تسلسل الوقائع كان أكثر تماسكا من أن ينسب للمصادفات .



وكان ذلك هو المسرح الذى ظهر عليه رجل قدر له أن يلعب دورا كبيرا فى الحركة الصهيونية : "ثيودور هيرتزل" وهو صحفى مولود فى فيينا نال قدرا من الشهرة واتصل بالمسألة اليهودية من طريق جمعيات ومنظمات فكرية وثقافية تعنى بالمسألة اليهودية ، وتعمل من منظور إنسانى فى الظاهر لتسهيل هجرة أعداد من يهود الشرق إلى فلسطين .

ولم يكن "هيرتزل" وحيدا فى ميدانه ، فقد سبقه وأحاط به جمع لا يستهان به من المفكرين والدعاة اليهود الذين رأوا الفكرة مثله ، وإن لم يقدروا على تحديدها والتفسير بها صراحة وهلنا .

• ومثلا فلن "موزيس هيس" كتب فى ذلك الوقت كتابه "روما والقدس" ليقول فيه ما مؤداه :

"إننى أهدم كيهودى أنسى أنتمى إلى شعب بائس ، مسكين الحظ ، محتقر ومهتكت بين أمم العالم . إن اليهود فى بعض البلاد يهرون من يهوديتهم . وفى ألمانيا يحاول اليهود أن يخلصوا عنهم كل ما يشير إلى أنهم يهود . والشعوب الأوروبية كلها تفهم أن اليهود غرباء عنهم . وسيخلص اليهود دائما غرباء بين الأمم."

• ومثلا فإن "ليو بلسكر" في كتابه "التحرر الذاتي" راح يقول :

"يجب أن نجد ونظما لهذا الشعب حتى تكف من التجوال في العالم . وليس من الضروري أن نحلم باستعادة أرض يهودا القديمة ، فلا داعي لأن نربط أنفسنا بالمكان الذي تحطمت فيه حياتنا السياسية وتوقفت . ليس من الضروري أن يكون هدفنا استعادة الأرض القديمة ، وإنما من حقنا أن نطالب بأرض . أية أرض . أي قطعة من الأرض تكفي لإخواننا من اليهود . قطعة أرض تكون ملكا لنا ولا يستطيع أحد أن يطردنا منها ."

• ومثلا فإن "توماس كلارك" بدأ يقترب أكثر من صميم الموضوع حينما قال في كتابه "الهند وفلسطين" (رابعا بوضوح بين الاثنين) :

"إذا كانت الضرورة تقتضي بالإبقاء على مملكة تركية كندوة محاربة وأمانة على حدودها ، فمن المؤكد أن نهاب اليهود إلى فلسطين تحت حماية بريطانيا يمكن أن يعطي لتركيا هذا الحماد وهذه السلامة . إن بريطانيا تعتمد على التجارة كحجر زاوية في عظميتها . وأفضل وأقرب مكان إلى حركة التجارة العالمية يمر عبر المنطقة التي تلتقي عندها القارات الثلاث الكبرى . وبما أن اليهود يؤلفون شعبا تجاريا في الأصل ، فإنه ليس هناك أكثر ملائمة ولا منطقا من زرعهم على طول ذلك الطريق العظيم للتجارة طوال كل العصور . إن سوريا يجب أن يوجد فيها شعب تجاري ، وإن أصبح سوريا في أمان إلا عندما تصبح في أيدي شعب شعاع مستقل يزخر بالحيوية . وهذه الأوصاف تنطبق على اليهود."

• ومثلا فإن "إدوارد لودفيج ميغفور" (وهو دبلوماسي إنجليزي شير يهودي) ، كتب في نفس الفترة ما أسماه "نداء بالنهاية عن اليهود لإكشاف كومنولث بريطانيا في الشام" ، اقترب فيه أكثر وأكثر من صميم الموضوع فقال :

"إن فلسطين إذا ما أخذنا في الاعتبار مساحتها ، تبدو صغيرة ولا تتسع لكل اليهود . وقد تنشأ مشاكل بسبب هجرة مستوطنين كثيرين . لذلك يستحسن قبل القيام بتوسيع نطاق الاستيطان في فلسطين أن يتم أعداد البلاد كلها لاستقبال شعبها الجديد . ويمكن إقناع الحكومة الألمانية بتهجير كسل السكان "المعتمدين" وتوطينهم في المناطق الخاسرة الحالية من شمال العراق^(١) حيث يستطيعون امتلاك أرض أفضل من تلك الأرض التي سوف يتركونها وراءهم ."

(١) تجند الحنيث عن التهجير إلى شمال العراق بعد حرب الخليج سنة ١٩٩١ . وكان التهجير لهذا اللاجئين من الفلسطينيين الموجودين في بعض أجزاء الأرض المحتلة وإلى لبنان أيضا .

لكن "هيرزل" - خلافا لهؤلاء جميعا - توجه إلى صميم الهدف مباشرة !

وربما ساعد "هيرزل" على التوجه المباشر إلى الهدف أن هجرة موجات من اليهود إلى فلسطين لم تعد خافية على أحد . ثم إن عواقبها بدأت تلفت الأنظار على الأرض .

فقد بدأت المشاكل فعلا بين المستوطنين اليهود المتدفقين على فلسطين وبين السكان العرب الأصليين . ولتكت هذه المشاكل نظرا كثيرين ، وبينهم عدد من المهاجرين اليهود أنفسهم . وكتب "أحد حامام"^(٢) فيما يكاد يكون تحديثا مبكرا من شكل ما هو قادم .. يقول:

"لقد اعتدنا على التفكير والتصرف وكأن جميع العرب يقوم بدائهمون يعيشون في الصحراء ولا يرون ولا يفهمون حقيقة ما يجري حولهم . وهذا خطأ قاتح لأن العرب ، وخاصة سكان المدن منهم ، يرون ويفهمون ما نفعله في فلسطين . وإذا كانوا لا يقابلون عملنا بفعل مضاد ويظهرون بأنهم لا يلاحظون شيئا ، فذلك لأنهم في الوقت الحاضر لا يرون فيما نفعله الآن تهديدا لمستقبلهم . ولكن إذا ما تطورت الأمور وبدأ زحفنا الكبير على فلسطين ، فإن العرب لن يتخلوا عن مواقعهم بسهولة . إن المستوطنين اليهود الجدد في فلسطين كانوا عبيدا في التربة ، ولجأة وجدوا أنفسهم وسط حرية بلا حدود ، بل وسط حرية لا رابع لها . وقد أحدث هذا التحول المفاجئ في نفوسهم ميلا إلى الاستبداد كما هي الحال حين يصبح المبدع سيدا . وهم يسممون العرب بكثير من العداء والفراسة ، ويمتهنون حقوقهم بصورة فجأة وفير مقبولة ، ثم يواجهون لهم الإهانات دون مبرر كاف ، ويلاعون بما يفعلون . يتصرفون وكأن العرب كلهم همج متوحشون يعيشون كالحوانات دون فهم لحقيقة ما يجري حولهم."

وكان لا بد لأحد أن يتزع السناثر والأشطية ، وأن ينصح بمباراة صريحة وفعل مباشر ، لأن الحركة لا تقدر على الوقوف طويلا عند منتصف الطريق ...
وكان هذا دور "فيلدور هيرزل" .

(٢) "أحد حامام" تعني في العبرية "واحد من الناس" ، وكان ذلك اسم اللقب لواحد من أبرز الكتبة والمفكرين اليهود ، وأوسعهم نفوذا في ذلك الوقت ، واسمه الحقيقي "أدور زافي جيلزبرج" .

هيرتزل

"سبيل الفرائضة الذين اضطهدونا يطلب
مساعدتي أنا اليهودي !"
("هيرتزل" بعد لقائه بـ "مصطفى كامل" بالقاهرة)

كأنت مهزلة "هيرتزل" على كل الآخرين في زمانه أنه استطاع استيعاب مجمل الظروف
الاستراتيجية ، ورأى أن اللحظة مناسبة لكي يتخلى العمل اليهودي عن سواتره^(٣) بما في
ذلك التمييز والهجرة الخيرية ، وأن يدخل مباشرة - بقوة - إلى عالم الحقائق السياسية .

(٣) من المفارقات التي تستحق التأمل ، أن كل ما قبل من الوعد المقدس بالمسيح لليهود لم يفت مطلقاً ، وهو
على حد تصوير الأستاذ "فريمان كاتنر" - أكبر كتاب التاريخ اليهودي - : "في" يقتبس إلى عالم الأدب أكثر مما
يقتبس إلى عالم الدين . وفي دراسته الهامة عن التاريخ اليهودي بعنوان "السلال المقدسة" ، يستشهد "كاتنر"
بخلاصة توصل إليها الأستاذ "روبرت أفر" أستاذ العناية اليهودية في جامعة "بروكلي" (كاليفورنيا - الولايات
المتحدة) يقول فيها : " إن التوراة المتكاملة الآن يجب قراءتها بميون الأدب وليس بميون التاريخ أو الدين !"

ويضيف "وليام داريميل" في كتابه عن القدس بعنوان "المنطقة المسحورة" ، تفاصيل مؤثرة عن الجهد
الذي بذلته الدولة الإسرائيلية من سنة ١٩٤٨ إلى سنة ١٩٩٥ ، في التخلص من آثار تدل على تاريخ يهودي في
فلسطين يمكن الإشارة إليه وأشهره في وجه المشككين في اقتصاص الأسطوري . ويصلي "داريميل" مثلاً لذلك قصة
التخلص من بقايا هيكل سليمان ، ويقول : "كان تقدير العلماء الإسرائيليين أن موقع الهيكل قريب من أسوار مسجد
قبة الصخرة ، وبدأت الحفريات واستمرت رغم اعتراضات البوليسكو (منظمة الثقافة والعلوم التابعة للأمم المتحدة) ،
وعثرت الحفريات الإسرائيلية على بقايا معالم أعلنت عليها وعملت لها ، ثم اضطرت إلى تغطية الاكتشاف كله بستان
من الصمت ، لأن البقايا التي عثر عليها لم تكن إلا آثار قصر لأحد الملوك الأموريين ، وهو أمر يدفع العمل
اليهودية من الأساس ويكشف أنه ليس هناك ما في يديهم عليه حاضر ومستقبل !"

وكان تعليق المائلة اليهودية الشهيرة الدكتور "فولاميت جولا" - أستاذ الدراسات اليهودية في جامعة تل
أبيب - قولها بالتمس : "إن علم الآثار اليهودي أريد له تسلياً أن يكون أداة للحركة الصهيونية ، فحظت بواسطته
سلة بين التاريخ اليهودي القديم والدولة اليهودية المعاصرة . وذلك يخلق تضامناً مع دراسة للأستاذ "جيمس ويليام"
تخبرنا بعنوان يفتي عن كل شيء : "اختراع التاريخ اليهودي القديم وخلق التاريخ الفلسطيني كله !"

واقترح "هيرتزل" دوره الخطير ينشر ككتيب تحول فيما بعد - وعندما توسع فيه كتابته - إلى دستور للحركة الصهيونية ، وقد نشره بعنوان "الدولة اليهودية" ، وأحدث نشره أصداء كبيرة بين اليهود وإن كان كثيرون منهم قد اعتبروا أفكاره وقلتها نوعا من الهالك السياسي. كان منطق "هيرتزل" كما تبدى في كتابه بسيطاً إلى درجة تبعث على القلق :

- ١ - اليهود لن يندمجوا في المجتمعات الأوروبية .
 - ٢ - الذين سوف يندمجون هم أغنياء اليهود فقط ، هؤلاء وحدهم هم الذين تقبل المجتمعات الأوروبية اندماجهم فيها .. هؤلاء لن يهاجروا .
 - ٣ - اليهود الفقراء القادمون من الشرق سوف يكونون مصدر إزعاج ولقلق لليهود الأثرياء الذين استقروا في غرب أوروبا .
 - ٤ - إن اليهود عندما تهوى بهم الظروف يصبحون من البروليتاريا الثورية . لكنهم عندما ينتهزون تنفض معهم قوة المال الرهيبة .
 - ٥ - إن أغنياء اليهود في أوروبا الغربية هم الذين يجب أن يدفعوا تكلفة هجرة فرائدهم خارج أوروبا .
 - ٦ - فلسطين هي المكان الوحيد الذي يستطيع اليهود أن يذهبوا إليه . فمجرد ذكر اسمها يثير عند الشعب اليهودي ذكريات تاريخية تقدر على الهامة وتحريكه .
- كان ذلك منطق "هيرتزل" الفكري ، وكانت ثنائيه تحمل رسائل مبجلة هدفها طمأنة أغنياء اليهود وطمأنة القوى الأوروبية أيضاً . وزاد عليه "هيرتزل" بخطة عمل تقوم على ثلاثة محاور:
- محور يتجه إلى السلطان صاحب الولاية الاسمية على فلسطين ويوصفه خليفة للمسلمين.
 - ومحور يتجه إلى بريطانيا التي تقدمت نشيطة وقوية وسابقة للآخرين نحو إرث ممتلكات الخلافة في الشرق .
 - ومحور يتجه إلى مصر لاعتبارات استراتيجية أندركها "هيرتزل" واستوعبها من متابعتها للسياسة الإمبراطورية البريطانية ودراسته لها .



على المحور العثماني كانت خطة "هيرتزل" أن يشتري فلسطين من السلطان . وذلك خطة تكشفها يوميات "هيرتزل" وتشرح مقاصده فيها بوضوح لا تقويه ظلال .

وبتاريخ ١٥ يونيو ١٨٩٦ يكتب "هيرتزل" في يومياته قائلا :

"سوف أقدم للسلطان ٢٠ مليون جنيه استرليني لإصلاح الأوضاع المالية المتدهورة في تركيا ، منها مليونان بحد فلسطين ، والباقي وقدره ١٨ مليوناً يمكن استخدامه في تحرير تركيا من الحماية الأوروبية وهراء سخافات ديونها ."

وأثناء زيارة بعد شهرين لاستانبول يكتب "هيرتزل" في يومياته :

"انتهيت اليوم مع جاويد بك وهو ابن الصخر الأعظم خليل رفعت باشا ، ورتبا الأمور مع جاويد بك (قدم له رخصة في الغائب) . جاويد بك مستعد لتلهم مصرنا والمساعدة فيه . لكن امتراضه الوحيد هو مصير الأماكن المقدسة ، فالقدس يجب أن تظل تحت الإنارة التركية . وعنده بذلك . وعنده أن تبقى القدس خارج حدود الدولة اليهودية إذا قامت ، لأن الأماكن المقدسة تخص الممالك المتعددة كله ، ويجب أن تظل للجميع .

سألني جاويد بك عن شكل العلاقة التي أراها بين دولة يهودية إذا قامت وبين دولة الخلافة . ولقد له إنذا لا نطلب الاستقلال ولا نفكر فيه ، ولكننا نريد نوعاً من العلاقة مثل تلك التي كانت بينكم وبين مصر ."

ويغادر "هيرتزل" استانبول ، ويصحبها بشهور يكتب في يومياته قائلا :

"أبلغوني أن السلطان أخذ علماً بمشروعي لكنه يعارض فكرة بيع فلسطين لليهود . وفهمت أنه يمكن عقد صفقة إنذا وجدنا صيغة مناسبة . من رسائل حاشية السلطان فهمت أنهم يريدون صيغة لإتخاذ ماء الوجه . وقد بعثت إلى استانبول برسالة قلت فيها "إن جامعتنا تعرض على صاحب الجلالة عرضاً بعشرين مليون جنيه استرليني ، وفي مقابل ذلك فإن جلالتهم يمنح اليهود الامتيازات التالية :

١ - يصدر جلالتهم دعوة كريمة لليهود بأن يسودوا إلى أرض آبائهم . والدعوة من السلطان سوف تكون لها قوة القانون خصوصاً إنذا جرى إخطار الدول الكبرى المعنية بأمرها مسبقاً .

٢ - يمنح المهاجرون اليهود الاستقلال الذاتي للمعروف في القانون الدولي ، ويكون لهم الحق في إدارة شؤونهم التنهنية ، بما في ذلك المحدث والأمن والنظام .

٣ - تجري في استانبول مناقشات حول الشكل الذي به تتحقق حماية السلطان لفلسطين اليهودية ."

ثم يكتب "هيرتزل" في يومياته :

"كثمت إلى مدحت بك مكرتير السلطان عن مشروعنا لإصدار جريدة "نرى
فهلّت" ، وأشرت له بأننا سوف نحاول أن نساعد حكومة السلطان عن طريقها بنهر
ما يمكن أن يؤدي إلى تحسين صورتها في العالم . وهذه خطوة نحو تكريس جهود
الصحافة اليهودية لخدمة الخلافة ، خصوصا إذا قام صاحب الجلالة بتشجيعنا
وأمن لنا الظروف الضرورية لإسكان الشعب اليهودي في فلسطين . إننا سوف نضع
كل قوتنا في خدمة الاقتصاد التركي . إن أعدائنا هم أنفسهم أعداء السلطان
الرافضين في إضفاء الخلافة العثمانية وتلقّيها ، وهم الذين يريدون امتصاص دماء
تركيا بترويضهم الهرعة (من المفارقات أن كل البنوك الدائنة لتركيا كانت مملوكة
لـيهود معظمهم ممن يقومون بتمويل المشروع الصهيوني في فلسطين) . وسوف يصبح
المهاجرون اليهود إلى فلسطين رعايا مخلصين لصاحب الجلالة السلطان شرط حصولهم
على حق مطلق لحماية أنفسهم بأنفسهم ، وأن يكون لهم حق شراء الأراضي دون
أي قيد . وأطمئناكم أنه لن يكون هناك انقصاب لأرض أحد أبدا ، فاللكتبة شرع
مقبس لا يمكن التنازل له . أما ممتلكات السلطان الخاصة فيمكن دفع ثمنها مقدما
ونقدا حسب التهمة التي يقرها إن شاء بهما . إن صاحب الجلالة يجب أن يدرك
أن نشاط اليهود وأهميتهم ماليا وتجاريا مسألة معروفة جدا ، فهم نهر من الذهب
والتقدم والحيوية جاهز لخدمة تركيا ."

وكان السلطان مترددا يخشى من ضغوط إسلامية وعربية يحس تأثرها وبهمه تطالبها .



وعلى المحور البرلماني لم يكن "هيرتزل" يحتاج إلى هناك كبير ، فهناك أساس موجود
وقائم ، وكل ما هناك أن الظروف المستجدة تقتضي الإسراع فيه . ومن الملاحظ أن ممسّى
"هيرتزل" تجاه إنجلترا لم يعتمد كثيرا عن مصر ، وإنما اتصل بها على نحو قد يكون
مباشرا . وكتب "هيرتزل" إلى "لانسدون" وزير خارجية إنجلترا خطابا يقول فيه :

"إن هناك موجات هجرة متدفقة من شرق أوروبا الآن ، وإننا لم نتقنوا لها
التياب بسرعة لتذهب إلى فلسطين فسوف تجسّدون رجالها ونساءها وأطفالها
بممتلكاتهم أمامكم في أقصى الشرق من لندن (East End) . إن بعضهم جاء
بالمل إلى هنا ، ونحن لا نريد كثيرين منهم هنا بحيث تضطرون إلى التوالف من

منهم حتى اللجوء السياسي ، ولذلك فإن من الخير أن تسارع إنجلترا على الفور إلى حل هذا الإشكال . والحل في هذا ، فهي تملك في جنوب شرق البحر الأبيض المتوسط أقاليم خالية من السكان ، وبالتالي في المنطقة الساحلية الموجودة بين المريش وشبه جزيرة سيناء . إن السلطان ليس مستعدا حتى الآن لإعطائنا فلسطين أو جزءا منها . وقد تأخذ المفاوضات مع تركيا وقتا طويلا . لكنه حتى يتم الأمر على نحو ما ، فإننا نتمنى أن تأذن الحكومة البريطانية بإنشاء مستعمرات يتجمع فيها المهاجرون اليهود في شبه جزيرة سيناء حتى يتاح لهم الذهاب إلى فلسطين . إنني سوف أمضي في المحادثات مع الباب العالي حتى أبعد عنكم شبهة أن يبدو الاستيطان اليهودي في المريش وغيرها عملا عناديا ضد السلطان .

إن هناك ١٠ ملايين يهودي في العالم ، وقد لا يستطيعون إعلان ولائهم لبريطانيا فورا ، لكنهم سيغدون إليها بالقوة إذا هي سهلت لهم الحصول على فلسطين وأصبحت بذلك فعلا وعملا حاميه الشعب اليهودي وحاضنته . إن قرارا إنجليزيا واحدا سوف يعطي إنجلترا عشرة ملايين من المخلصين يدينون لها بالولاء في جميع أرجاء العالم . ربما يقال لكم إن بعضهم مجرد بائس خردوات ، ولكن لا ينبغي نسيان أن بعضهم الآخر أصحاب بنوك وتجار كبار وعلماء وفنانون وصحافيون وأصحاب مهن عظيمة أخرى . باختصار فإنه سيكون لإنجلترا عشرة ملايين مهمل يتحركون من أجل عظمتها وسيطرتها .”

ولم تكن الحكومة البريطانية في حاجة إلى جهد لكي تتفتح . وكانت تعرف حجج “هيرتزل” ومنطقه ، وكانت ترى تردد السلطان ، وتكتهم رغبة الحركة الصهيونية في تسريح الأمور ، وذلك عن طريق إعطاء اليهود موطن قديم - ولو مؤقتا - في سيناء حتى يصل السلطان في استئنافه إلى قرار يتحدد به الأمور .

وهكذا جاء الدور على المحور المصري .



كان “هيرتزل” - قبل أن يتحرك على المحور المصري - قد أنهى مهمة أعطته أساسا شبه فرهي يثق عليه ويعمل منه . فقد دعا إلى عقد مؤتمر صهيوني تشارك فيه كل القوى المطالبة والمؤيدة لاستيطان اليهود في فلسطين . واتخذ المؤتمر فعلا في مدينة “بازل” السويسرية يوم ٢٩ أغسطس ١٨٩٧ ، وأسفر هذا المؤتمر عن أربعة مقررات رئيسية هي :

١ - العمل وفق خطة محددة على استعمار فلسطين بواسطة اليهود زراعيا وصناعيا .

٢ - العمل على إنشاء مؤسسات يهودية تمثل وتربط وتجمع جهود الشعب اليهودي من أجل إنشاء دولته .

٣ - العمل على تحريك الروح اليهودية والتفسير اليهودي بما يوقظ العاطفة الوطنية اليهودية ويخلق الوعي بها .

٤ - العمل على تحقيق أهداف الصهيونية بما في ذلك إحياء اللغة العبرية والأدب العبري والثقافة العبرية .

ومن الملاحظات أن أول مصري قابله "هيرتزل" كان "مصطفى كامل" (باشا) زعيم الحزب الوطني ، الذي برز نجمه في الحركة الوطنية المصرية حينئذ . وكان "مصطفى كامل" هو الذي سمى إلى لئلا "هيرتزل" لكي يقتله بمنح تأييده للقضية المصرية . ويكتب "هيرتزل" في مذكراته بتاريخ ٢٤ مارس ١٨٩٧ ما يلي :

"جاء مصطفى كامل لزيارتي . إنه في رحلة لجمع التأييد الدولي لقضية الشعب المصري الذي يسعى للخلاص من السيطرة البريطانية . إن هذا الشاب الشرفي ترك هدى إعطاهما معًا ، إن سليل الفراعنة الذين انطمسوا في مصر ويتهدد اليوم أسس من هذاب الرق البريطاني ، وتقوم طريقته إلى أنا اليهودي طالبا مسامحتي . أشعر - مع أنني لم أخبره بذلك - أنه مما يفيد قضيتنا أن يضطر الإنجليز إلى الخروج من مصر لأن ذلك سوف يفرض عليهم أن يبحثوا عن طريق آخر إلى الهند بدلا من قناة السويس التي ستصبح منهم أو تصبح غير مأمونة . وحينئذ سوف تصبح فلسطين اليهودية الجديدة طريقا مناسبها لهم من يافسا إلى الخليج الفارسي وإلى الهند ."

.....

.....

بعد لقائه بـ "مصطفى كامل" وبعد المؤتمر الصهيوني الأول في "بازل" ، بدأ "هيرتزل" حركته النشطة في اتجاه المحور المصري . وقد جاء إلى مصر لأول مرة محبطا . فقد ترددت أصوات كثيرة في أوساط اليهود في أوروبا تفكك في إمكانية تحقيق مشروع الدولة اليهودية في فلسطين . بل إن رجلا مثل "ماكس نوردي" - وهو من أقرب الأصقاء إلى "هيرتزل" - أخذ يتأرجح في اتجاه القول بوطن آخر لليهود غير فلسطين . وقد ظهرت في الأجواء بالنمل مقترحات يشير أحدها إلى الأرجنتين ، ويشير ثان إلى أوغندا . وكان يبعث تردد "نوردي" يعود إلى واقعة غريبة . فقد أراد قبل المؤتمر الصهيوني أن يقتح بعض الحاضرات الأوروبيين المترددين ، فرأى أن يبعث بالثلاث منهم إلى فلسطين يرياتها رأى الصين ثم يهودان

ليحدثا زملاهما عنها ومن حقائق الأحوال فيها ، سواء بالنسبة لسكانها الأصليين أو بالنسبة للمستوطنين اليهود . وبالفعل فإن الحاخاميين سافروا إلى فلسطين ، لكن ما رأيها كان صمعة لهما . وكانت أول إشارة إلى الصمعة برقية تلقاها "نوردو" منهما - وهما بعد في فلسطين - يقولان فيها بالرمز : "إن العروس جميلة جدا وهي مستوفية لجميع الشروط لكننا متزوجة فعلا" . وفهم "نوردو" الإشارة على أن المقصود بها أن في فلسطين شعبا يسكنها ، وأنها ليست - كما يقول "هيرتزل" - : "أرضا بلا شعب لشعب بلا أرض" .

وعندما عاد الحاخامان والتقاها به "ماكس نوردو" في فيينا ، كان تقريرهما الشغوى مؤكدا لعلى البرقية التي بعثا بها إليه من فلسطين . فقد كانت روايتهما أن هناك شعبا عربيا فلسطينيا يسكن فلسطين من آلاف السنين ، ويزرع أرضها ويعتبرها وطنه ، وهي كذلك بالفعل . وبالتالي ، فإن اليهود الراغبين في الذهاب إلى فلسطين والاستيطان فيها أمامهم معركة قاسية مع أصحابها الأصليين .. النزج الغرعى والحى للعروس الجميلة .

كان تقريرهما أيضا يشير إلى خطر يستقبل وسببه المستوطنون اليهود الذين هاجموا إلى فلسطين . فقد أحس كلا الحاخاميين بأن تصرفات المستوطنين تحمل طواغر عسل نفسية قد تزيد مع الأيام ، ومن المضحك أن تزيد . ذلك أن المستوطن اليهودي ، لكي يريح ضميره ، ولكي يستطيع مواصلة حياته في الأرض الموعودة ، يتحتم عليه إنكار وجود "الأخر" - أي الفلسطيني - "بمثل ما يمكن تصويره من رغبة عاشق لزوجة رجل آخر في الخلاص من زوجها إلى درجة قلته لكي ينتهي منه جسدا وروحا وتكرى" .

إن تلك الحالة بدت لهما في الطريقة التي يتصرف بها المستوطن اليهودي إزاء المواطن الفلسطيني ، وحسب وصف الحاخامان فإنها : "استعلاء إلى درجة الاحتقار والكراهية ، وهتف في التصرف ليس له ما يبرره ، واقتصاف لأسباب ليس لها هدف ، إلا أن تسع مسافة بين الطرفين بحيث لا يستطيع أحدهما أن يرى الآخر أو ينظر إليه في وجهه" .

.....
.....

وجاء "هيرتزل" إلى مصر ، وبدأ من تعرفاته الأولى أنه مستعد لأن يؤجل مشروعه الهجرة الكثيفة إلى فلسطين ، وأن يتكفى في اللحظة الراغبة بمشروع استيطان كبير في سيناء يركز على الممرش ويتسع منها . ولذهب "هيرتزل" لزيارة منطقة السويس والواديان المحيطة بها ، والتقى بالجندي "عباس حلمي الثاني" وتحدث إليه في مشروعه . وكان "مشروع

"هيرتزل" يهدف إلى تأجير مساحة أرض قدرها ستمائة وثلاثون ميلا مربعا حول الميناء ، اعتبرها "هيرتزل" منطقة تجمع وتركيز ووثوب . وكان اقتراحه أن تؤولها المنظمة الصهيونية لمدة تسع وتسعين سنة ، وأن تكون بشكل مباشر تحت حماية الحكومة البريطانية وبمقتضى تعهد موقع وموثق. ولا يظهر أنه كان لدى الخديو اعتراض كبير ، وربما أن معظم مناقشات "هيرتزل" معه تركزت حول ما يمكن أن يعود عليه (الخديوي) من أرباح مشروع "هيرتزل" الزراعي والاستيطاني . وكان الذي تصدى لمشروع "هيرتزل" - مع الأسف - هو اللورد "كرومر" المعتمد البريطاني في مصر ، وكان اعتراضه فلها بالدرجة الأولى واعتمد فيه على تقارير المهندسين الإنجليز لحجم المياه المطلوبة للمشروع من موارد النيل . وكان رأى المهندسين الإنجليز أنه من الصعب توفير كمية المياه المطلوبة لمشروع "هيرتزل" لأن ذلك يؤثر على الزراعة في مصر ، وعلى إنتاج المحصول الحيوي لمصانع "لانكشاير" في إنجلترا ، وهو الفحم المصري .

ومن ناحية أخرى ، فإن "كرومر" كان في مصر يواجه موقفا بالغ الدقة بسبب خلافه المستمر مع الخديو "عباس حلمي" . كما أن بوادر حرب عالمية - تدور بعض معاركها في الشرق الأوسط - لم تكن بعيدة عن مواجهته . وربما كان ظنه أن الظروف الراهنة في مصر والمنطقة المحيطة بها ليست في هذه اللحظة مناسبة لتصرف قد يؤدي لاستنزاف المظاهر الوطنية والدينية. وكان من اللافت للنظر أن بعض الصحف المصرية - وفي مقدمتها جريدة "الانار" ، التي كان يرأس تحريرها في ذلك الوقت الشيخ "زاهد رضا" ، تلميذ الإمام "محمد عبده" - راحت تنشر أخبارا وتعليقات تحذر كلها من مطامع اليهود في فلسطين وخطرهما على دار الإسلام . وقد بدأت هذه الأخبار والتعليقات تستثير اهتماما مبكرا بالخطر .

وبما أن مشروعات "هيرتزل" تتمتع أمام موقف معتد بدأت مقدماته تخيم على أجواء الشرق .

ويمكن ملاحظة أن الحركة الصهيونية كلها - و"هيرتزل" على رأسها - في هذه اللحظة لم تكن تتفاوض أصحاب الحق القوي وهم شعب فلسطين .

لقد حاولت أن تنتج بريطانيا بحق اليهود في فلسطين ، وحاولت أن تشتري من السلطان وطلبا بأكمله من ممتلكاته ، وحاولت أن ترتب للنسبها موطن قدم في مصر ، لكنها لم تكن تتفاوض مع الطرف الآخر الذي يملك الوطن اللامتناهي ويعيش فيه .

وكان منطق الإنكار ضروريا ، فأى تفاوض مع هذا الآخر معناه الاعتراف بوجوده الشرعي ، وإذا وقع هذا الاعتراف فهو النقي المباشر للدهوى الصهيونية في فلسطين !

وفيما بعد خلق الزعيم الصهيوني الشهير "ناحوم جولدمان" على أفكار "هيرتزل" بقولسه:

"إن هيرتزل رفض أن ينظر إلى كافة وجوه قضية الاستيطان اليهودي في فلسطين ، وصمم على أنها "قضية أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" ، إلى درجة أنه اعتبر عملية الاستيطان كلها مشكلة توفير وسائل نقل تحمل اليهود من أوروبا إلى فلسطين طالما أن لديهم التاجرة بذلك من السلطان وتذكرة السطر من إنجلترا ."

الفصل الثالث

"الساحل" و "الداخل"

"على أي خريطة للعالم العربي
يلمح أي باحث مهتم أن هناك سياسة غريبة ثابتة
تستهدف عزل "الساحل" عن "الداخل" ..
هكذا في البحر الأبيض ، وفي الخليج ، وفي المحيط .
و "الساحل" في أكثر الأحيان للفاشين أو معهم . و "الداخل"
متروك لتناقضات أهله وخلافاتهم" .

ماكهاميون

" علماء الأفكار تحولوا كلهم إلى شباط
مخابرات"

(واحدة من حقائق الدبلوماسية الخفية لبريطانيا في
الحرب العالمية الأولى)

في السنوات الأولى من القرن العشرين كانت موازين القوى الدولية ، وخطوط التحالفات الدولية تتحرك وتظهر معالمها وتوجهاتها مضمرة إلى احتمالات صدام كبير قادم . ففي سنة ١٩٠٤ توصلت بريطانيا وفرنسا إلى الاتفاق الودي بينهما ، وفي نفس الوقت فإن ألمانيا التي خرجت تطالب بمستحقاتها في توزيع المستعمرات ، انهمكت أيضا في بناء قوة عسكرية ضخمة ، ثم إنها راحت تفكر في تحالفات سياسية وعسكرية جديدة جعلتها تصحى نحو تركها التي كان حكامها ينظرون بشك إلى الخطط البريطانية في الشرق . فإيطاليا ، رغم وعود متكررة بالجلاء عن مصر ، تثبت أقدامها في وادي النيل ، وتحكم قبضتها على السودان . وفي ذلك تساعد بضعة على زرع هفريات المستوطنات اليهودية في فلسطين . وفي نفس الوقت فإن فرنسا - خصوصا بعد الوفاق الودي مع إنجلترا - تقوم بتحركات تثير الرعب في بيروت ودمشق . وفي الواقع ، فإن خطوط الحرب العالمية الأولى وتحالفاتها راحت مبكرا تحفر مجاريها . وإزاء هذه الوافير كانت استانبول تقرب يوما بعد يوم من برلين ، وكل الإشارات تدل على أن منطقة الشرق الأدنى تقرب من ساعة الحقيقة التي تتقرر فيها المصائر . ولم يكن لدى أحد من المراقبين شك في أن هذه المنطقة سوف تشهد بعضا من أهم معارك القتال من أجل رسم خريطة جديدة لمواقع القوة والنفوذ .



ومن اليوم الأول لنشوب الحرب العالمية الأولى أصبحت القارة واحدا من أهم مراكز إدارة هذا الصراع المسلح الكبير .

كان الطرفان الرئيسيان في معسكر الحلفاء وهما : بريطانيا وفرنسا ، قد تفاعلا منذ اللحظة الأولى على عدة نقاط محددة :

١ - أن تكون الأولوية الأولى للجهد الحربي في أوروبا وعلى الجبهة الحرجة بين فرنسا وألمانيا مباشرة ، فهناك في رأيهما يتقرر النصر أو تقع الهزيمة .

٢ - يتربط على ذلك أن تمتنع الدولتان عن التورط في أية مباديء أخرى ، وتحصران نشاطهما - خارج الميدان الأوروبي - في حدود دفاعية بمقتضى ما تسمح الظروف .

٣ - إن الجائزة الكبرى التي تنتظرها الدولتان بعد الحرب - إلى جانب هزيمة ألمانيا - هي الممتلكات الشرقية للخلافة العثمانية . ولما كان هذا الموضوع حساسا فمن الأفضل تأجيل البت فيه إلى ما بعد انتهاء الحرب حتى لا تؤثر حساباته على العلاقة بين البلدين ، وهما يحذرن حذف ألمانيا في التفريل بينهما .

ولكن هذا التفاهم بين الحليفين الرئيسيين في الحرب ضد ألمانيا ، لم يكن في استطاعته أن يغطي على حقيقة مرئية ومحسوسة تقتضى الظروف السياسية والفكرية للأطراف أن يجرى التعامل معها بحذر . وكانت تلك الحقيقة تفسر بوضوح إلى أن بريطانيا هي الطرف الأكبر والأقوى في التحالف . فالقرن التاسع عشر كان قرن توسع وإزدهار للإمبراطورية ، كما أنه بالنسبة للحزب البرلماني كان فترة تطور سياسي سلمي ، في حين كان المكس حال فرنسا التي كان القرن التاسع عشر مؤلّا لها في الخارج والداخل ، ثم جاءت هزيمتها أمام ألمانيا في حرب البعدين (١٨٧٠) فكانت تقتضى عليها كقوة عظمى لولا أحكام الجغرافيا ، ولولا مطالب توازنات القوة في أوروبا وعلى مواجهة ألمانيا بالتحديد .

إن الحقائق تعمل فعليا مهما حاول الساسة أن يتصرفوا معها بحذر تقتضيه الحساسيات ، وهكذا فإن بريطانيا طوال الحرب كانت تتصرف بقوة وبجاء ، كما أن فرنسا كانت عصبية بما يمكن أن تغلبه بريطانيا من وراء ظهرها .



فى ذلك الوقت كانت إدارة الإمبراطورية البريطانية ، وجهدها فى الحرب يعتمدان على ثلاثة مراكز مؤثرة فى القرار البريطانى :

- أولها مركز لندن : وهى عاصمة الإمبراطورية ومقر البرلمان والحكومة والعرض وفوق ذلك فإن فيها القيادة العليا للقوات المسلحة ، وقتها كان وزير البحرية هو اللورد "جيتشتر" الشهير ، الذى اكتسب سمعته باحتلال السودان عندما كان قائدا لقوات الاحتلال البريطانى فى مصر .

- والثانى مركز القاهرة : وكانت القاهرة مقر السياسة البريطانية فى البحر الأبيض وفى البحر الأحمر . وفى ظروف الحرب وطبيعة وسائل الاتصالات وقتها ، فإن مركز القاهرة كان يتمتع بسلطات واسعة ، وفى بداية الحرب كان على قمة هذا المركز فى القاهرة السير "هنرى ماكماهون" .

- وأما المركز الثالث فقد كان مركز دلهى : وكانت دلهى مسئولة - إلى جانب حكم الهند - عن كل السياسة البريطانية فى منطقة تمتد من بحر الصين إلى بحر العرب ، ومن هونج كونج على شاطئ شبه القارة الصينية إلى عدن على شاطئ البحر الأحمر وعند مدخله من شبه الجزيرة العربية .

وكان مركز دلهى مركزا بالغ الأهمية من أثر التجربة التاريخية للاستعمار البريطانى ، ونشأت نتيجة لذلك حكومة من نوع فريد لم يكرر على الإطلاق فى التاريخ . فحكومة الهند - كما كانت تسمى - لم تكن مجرد إدارة استعمارية وإنما كانت إدارة إمبراطورية ، والفرق بين الاثنين أن الإدارة الاستعمارية فى المادة موكلة بإدارة واستغلال مستعمرة ، وأما الإدارة الإمبراطورية فهى موكلة بالتوسع والسيطرة . وفى واقع الأمر فإن حكومة الهند كانت فى بعض الأحيان أقوى من حكومة لندن فى صنع القرار الإمبراطورى ، ولذلك لم تكن معارضة أن أظهر الساسة والإداريين البريطانيين ، نكثوا وعملوا فى أطر حكومة الهند . وفى فترة الحرب العالمية الأولى فقد كان نائب الملك فى الهند هو اللورد "هاردينج" .



وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى ، فإن تركيزها تأخرت لبضعة شهور قبل أن تحزم رايها وتقرر دخولها إلى جانب الألمان . وفى شهور التردد - وقبل الدخول - فإن المراكز الإمبراطورية البريطانية كانت تجرى تغييراتها للطريقة التى تتصرف بها فى حالة ما إذا

دخلت تركيها الحرب أو امتلكت من دخولها ، وفي الحالتين وفيها يبدو فقد كانت أملاك الخلافة في الشرق إرثا حان استحقاقه مهما كان الموقف الذي تتخذه استانبول .

واقعت التناقص في ذلك الوقت بين مركز القاهرة الجديد ومركز دلهي المتعد ، فكلهما يرى نفسه الأحق بالتخطيط والإشراف على تنفيذ عملية الاستيلاء على التركية :

مركز القاهرة يظن أنه يقره من الشام ، بما فيها فلسطين والحجاز - وربما العراق - أولى من غيره بالتفاهم على المسئولية والاختصاص .

ثم إن مركز دلهي يرى أنه الطرف الأقدر بتجربته التاريخية وبمواقع نفوذه حتى شواطئ نجد ، وقد اتصل فيها بالشيخ (السلطان الملك فيما بعد) "عبد الميز آل سعود" وغيره من زعماء قبائل الساحل حتى قرب البصرة من ناحية الشرق . كما أن هذا المركز الإمبراطوري في دلهي توسع غربا حتى توصل إلى احتلال عدن (ومن الملاحظ أن احتلالها تم سنة ١٨٣٩) في ظروف الضيق على "محمد علي" في الشام وإرغامه على التراجع إلى حدود مصر .



وفي هذه الفترة - وقبل أن تدخل تركيها الحرب - فإن المسئولية والاختصاص والممارسة في المركزين البريطانيين المعنيين كانت بطبيعة الظروف سرية ، أي أن الذي كان يهرف ويخطط وينفذ لم يكن المسئول السياسي الظاهر والمعروف ، وإنما كانت المسئولية في ذلك الوقت في يد الضابطون الكبار المسئولين عن المخابرات ، وهكذا فإن العمل الإمبراطوري في المنطقة ذلك الوقت استقر في يد مكتبين للمخابرات السياسية :

- مكتب القاهرة ، وكان المسئول عنه هو الكولونيل "جيلبرت كلايتون" .
- ومكتب دلهي : وكان المسئول عنه في الغرب وفي مجال أملاك الإمبراطورية العثمانية هو الكولونيل "بيرسي كوكس" .

إن حكومة الهند لم تقدر على الانتظار طويلا ، فقد كان مكتب دلهي يلح على المبادرة للعمل ، واتخاذ خطوة أولى باحتلال البصرة لتأمين السيطرة على الخليج وحتى لا تتمكن تركيها تحت أي ظرف من إعادة تأكيد سيطرتها على مهابلات الساحل من الكويت وحتى مضيق هرمز . وكان مكتب دلهي على اتصال بعدد من كبار الشخصيات العربية في البصرة ، وفي مقدمتهم السيد "طالب القليب" وهو من أبرز معارضي الحكم التركي ، والمخالفين باستقلال العراق والرافضين في التعاون مع بريطانيا من أجل تحقيق هذا المطلب .

لكن المركز الإمبراطوري في القاهرة لم تكن له هذه القدرة على أخذ المبادرة رغم إلحاح القيادة العسكرية في مصر ولقائهما العام الجنرال السير "جون ماكسويل".

كان الجنرال "ماكسويل" يرى أن تركيا سوف تدخل الحرب مع الألمان ، وأن أول خطوة لها في الميدان سوف تكون هجوماً من فلسطين عبر سيناء للوصول إلى قناة السويس وتهديد الوجود البريطاني عليها وفي مصر بعدها . وبالتالي فإن من الضروري استباق خطوة الأتراك المحتملة والتقدم بقوات كافية إلى المريش لملأثة احتمال هجوم تركيا بهذا عن قناة السويس .

لكن القيادة السياسية والعسكرية العليا في لندن كان لها رأى مختلف مؤداه أن الإكتراب من فلسطين شيء يختلف عن النزول في البصرة . فالبحر بعدة ، وفرنسا لا تريد هناك شيئاً ، لكنه إذا اتصل أى عمل بالشام - (وفلسطين جنوبها) - فإن فرنسا سوف تزاودها الشكوك فى أن هناك تخطيطاً يسبق بالفعل إلى "وضع اليد" على الجزء الأهم من الإرث العثماني ، وقد تحركت هاجسياً وتمازجت شكوك زميلة في اللوايا البريطانية ، وقد تدعى أن ذلك مخالف لتفاهم مع بريطانيا يفرض ألا يسبق أحد إلى شيء من التركية دون اتفاق على القصة ، ثم إن فرنسا قد تدعى أيضاً بأن فتح جبهة عسكرية في الشرق الأدنى مخالف لمبدأ تم الاتفاق عليه ، وهو إعطاء الأولوية الأولى لمسرح العمليات الأوروبي وإلحاق الهزيمة بألمانيا هناك باعتبار أن رأس الأفعى هي الخطر ، وأما ذيلها فأمير ههه ا

ومن هذا المنطق فإن التوجهيات من لندن إلى مركز القاهرة كانت تطلب إليه ما يلي:

١ - يقوم الجنرال "جون ماكسويل" بالاستعداد لوقف دفاعى يسمح له بحماية مصر في حالة هجوم تركيا إذا قويت إستراتيجيات دخول الحرب .

٢ - وحتى يتفصح موقف تركيا بطريقة قاطعة يقوم مكتب القاهرة (الخباياات) بدراسة احتمالات العمل وراء الخطوط التركية في سوريا .

وكان الكولونيل "كلاركسون" قد ضم إلى مكتب القاهرة فى ذلك الوقت مجموعة من الماساعدين قدر لبعضهم أن يلعبوا أدواراً بارزة فى التاريخ المريسى الحديث ، وكان أبرزهم الكاتبين "لورانس" (الذى اشتهر فيما بعد بوصف "لورانس العرب") - و إلى جانبه كان هناك آخرون أصبحوا أساطير عربية فى ظروف تالية وبينهم "كورنواليس" (وقد أصبح فيما بعد مندوباً سامياً فى العراق) - و"موجارت" (وقد أصبح فيما بعد رسولا دائماً للملك العربى) - و"جروتود بل" (وقد أصبحت فى يوم من الأيام ملكة العراق غير المتوجة ، والقوة الخفية وراء السياسة البريطانية هناك) .

ومما يستحق الملاحظة أن هؤلاء جميعا - وغيرهم - كانوا قبل الحرب من المشتغلين بعمليات الحفائر الأثرية في الشرق الأوسط ، وكانوا يعيشون ويعملون في مواقع مأهولة بالحرب ، وكانوا أيضا من الصارفين والمتكلمين باللغة العربية ، والمؤهلين للاختلاط بجهة العرب السياسية والاجتماعية .



كان المكتب العربي - تحت رئاسة "كلايتون" - مشغولا بعملية استكشاف للأوضاع العربية والإسلامية . فالعلماء العربي والإسلامي تأخرا في رفع ألوية الثورة ضد العثمانيين بسبب المكانة الخاصة لفكرة الخلافة والولاء لها . ولهذا فإن المكتبات الأوروبية للعثمانيين (كالبنان وبلغاريا وغيرها) سبقت إلى الثورة وسبقت إلى الاستقلال لأن مواجهتهما كانت صريحة مع إمبراطورية إسلامية ، لم تلتبس بالفكر أو بالفعل مع أي اعتبار ديني أو معلوي من قبيل الولاء للخليفة .

وفي الحقيقة فإن أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ، شهدت مراجعات واسعة في قضية الاعتبار الديني للخلافة والولاء للخليفة ، وزادت هذه المراجعات في إلحاحها خصوصا بعد انقلاب ضباط حركة "تركيما الفتاة" على الخليفة نفسه ، وفي عاصم الخلافة ذاتها . وقد تركزت عملية المراجعة وتداعياتها في الشام تحديدا ، خصوصا وأز مصر كانت إلى حد ما بعيدة عن إطار الخلافة بالاحتلال البريطاني ، وإن كانت القاهرة في ذلك الوقت قد أصبحت موثلا ومعقلا لكثيرين من ضواري الشام ومكثريه المسلمين والمسيحيين على السواء .

وكان "المكتب العربي" - تحت رئاسة "كلايتون" - يحاول أن يرصد صورة للحقيقة قبل أن تزحف جيوش النار وتحدد مواقع الخطوط والخنادق .

مضافا إلى عملية الرصد ، فقد كان هناك سؤال يلح على السياسة البريطانية في الشرق حول الطريقة التي يمكن أن يكون عليها رد فعل الضغوط الإسلامية والعربية ، إذا ما قرر الخليفة بعد دخول الحرب أن يعلن الجهاد ، وهو الترفيز المذموم به أيا إذا ما تهدد أرض المسلمين خطر أو داهمهم حدو .

وتضاعفت أهمية هذا السؤال بحقيقة أن القوات الإمبراطورية البريطانية كانت تضم في صفوفها جيوشا من المستعمرات وبينها الهند ، وفي جيش الهند كان هناك قرابة ربع مليون مسلم ، وإذا أعلن خليفة المسلمين الجهاد وبريطانيا في جانب الأعداء فسادا يكون

موقف هذه القوة ؟ وماذا يكون الموقف في الهند المسلمة — (باكستان فيها هند) — هذا إلى جانب أقاليم أخرى شاسعة في آسيا وشمال أفريقيا يحتمل أن يؤثر فيها تحرك الجهاد صادرا من مقر الخلافة في إسطنبول ؟

.....

.....

وفي خلفية التفكير الإستراتيجي البريطاني كان هناك قلق مما يمكن أن يصيب المستوطنات اليهودية في فلسطين إذا احتشد الأتراك ومعهم الألمان حول هذه المستوطنات ضمن استعدادهم لهذه الحرب بهجوم كبير عبر سهله في اتجاه قناة السويس |

عزيز المصري

" قابلت نوري السعيد . هذا لي شابطا حاليا
له ميول اشتراكية "

(السيد "بيرسي كوكس" بعد أن صغر على
"نوري السعيد")

في الوقت الذي كان فيه "المكتب العربي" يحاول استكشاف الفكر والنوايا العربية
والتيارات الفاعلة في العالم العربي ، كان بعض العرب المطالبين بالحرية والاستقلال يحاولون
استكشاف النوايا البريطانية في الشرق الأوسط ، وقبل أن تقوم الحرب أيضا .

وتكشف الوثائق البريطانية التي فرست عليها السرية - بعضها لمدة خمسة وسبعين عاما
وبعضها لمدة مائة عام - وبينها الوثيقة ٢١/٤٦٦٦١ - ٧٣١ - الممنونة "حديث بين الكولونيل
عزيز المصري^(١) والمستر ر. أ. م. راسل" بمكتب الاستخبار الشرقى لحداز المعتمد البريطانى فى
مصر - وتاريخ ١٦ أغسطس ١٩١٤ - عن تفاصيل بالغة الأهمية بخصوص القنابات العربية
التي كانت تبحث عن الحرية والاستقلال بعيدا عن تركيا ، وتتصور أنها تستطيع أن تتعاون
مع بريطانيا لتحقيق هذا الهدف .

(١) "عزيز المصري" باشا شخصية مصرية شهيدة ، فقد كان شابطا في الجيش التركي ووصل إلى مراكز
قيادية ، وشارك في الثورة العربية ، وعمل فيما بعد مغرلا على ترعية الملك "فازوق" وناز صراع بينه وبين المشرف
الأخر على نفس المهمة وهو "محمد محمد حسين" باشا (وهو رئيس الديوان للكنى لها بعد) ، وقد أصبح "عزيز
المصري" باشا ملقبا عاما للجيش المصري بعد معاهدة سنة ١٩٣٦ ، واختلف مع الإنجليز واعتزل مدة الحرب العالمية
الثانية بتهمة التعاون مع الألمان . وقد اعتبر لها روحيا لحركة الشباط الأحرار التي قادته ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢
في مصر .

في هذه الوثيقة التي كتبها "راسل" بعد لقائه بـ "عزيز المصري" ، تدعى تفاصيل اللقاء على النحو التالي :

" اليوم ١٦ أغسطس جاء إلى مقابلي الكولونيل عزيز المصري ، وهو شخصية لها مكانتها في العالم العربي ويجب أن تؤخذ أقوالها باهتمام وتوضع للدراسة بمثابة ، لأن عزيز المصري أحد القادة البارزين لشورة تركيا الفتاة ، وقد خدم بامتياز كضابط بالجيش التركي . وهو أيضا ضابط عربي قومي شديد الإيمان بالثورة . ولد ألف في بداية هذا العام ١٩١٤ جمعية سورية ، اسمها جمعية "المهد" ، اعتزك فيها مع عدد من زملائه الضباط العرب في الجيش التركي وهدفهم استقلال العرب والكفاح من أجل تحقيقه . إننا - لا نحن ولا الأتراك - كنا نعرف كثيرا من هذه الجمعية . كنا نعرف اسمها من خلال معلومات غير مؤكدة ترددت في أوساط استانبول ودمشق . لكننا منذ فبراير هذا العام تابعنا اهتمام الحكومة التركية بهذه الجمعية مما أدى إلى القبض على عزيز المصري . ثم علمنا أن مجلسا عسكريا شكل لمحادثته في ابريل ، وحكم عليه بالإعدام . ونظرا لنفوسه بين الضباط النشطين ، ونظرا لحقيقة أنه مصري ، فإن الحكم لم ينفذ واكتفى بترحيله إلى وطنه الأصلي: مصر ، مثابا في حقيقة الأمر .

بهذه الخلفية في ذهني استقبلت عزيز المصري اليوم ، وقد أراد أن يحدثني عن أهداف جماعته ، ولكنه لم يطني تفاصيل كافية عن جمعية المهدي ولا عن رؤاياه فيها ، وإنما اكتفى بأن قال لي إنه يجرى إلى مفوضا مما أسماه "اللجنة التنفيذية لجمعية المهدي" بقصد استكشاف نوايا الحكومة البريطانية تجاه احتمال قيام دولة عربية مستقلة عن تركيا ومن كل القوى الأجنبية ، مع رغبتهم في إيجاد علاقة خاصة بينهم وبين الحكومة البريطانية في مجال السياسة الخارجية .

إن عزيز المصري عرض أمامي تصوره لحضود الدولة العربية المستقلة التي يفكر فيها هو ورفاقه . ولد حدها بخط يمتد شمالا ما بين مهناة الإسكندرية (جنوب تركيا على شمال البحر الأبيض) ، وولاية الموصل امتدادا إلى حدود فارس . وهو ورفاقه يعتبرون أن قلب هذه الدولة ومركز قوتها سوف يكون المثلث ما بين بغداد والحجاز ونجد وسوريا . وهم لا يفكرون الآن في جنوب شبه الجزيرة العربية (اليمن وعسن) لأن هذه المنطقة ممزقة بالصراعات في الوقت الحاضر ، وغير قادرة على الإسهام في المشروع العربي كما يفكر فيه عزيز المصري ورفاقه . سألت عزيز المصري عن يكون قائد هذه المجموعة ؟ ولم يفصح لي عن جواب .

إن عزيز المصري متحمس إلى أقصى حد لمشروع الدولة العربية المستقلة . وهو يعتقد أن العرب عموما جاهزون للثورة . ويعتقد أيضا أن غالبية المسيحيين السوريين (في لبنان) وكذلك المروزي ، يؤيدون حركتهم . و لعل عزيز المصري يبالغ في هذه النقطة .

إن عزيز المصري تحدث معي بصراحة عن أن كل ما يريدونه هو بيهان بريطاني بإعلان حسن النية تجاه الأمة العربية ، وبالحياة في حالة تحركهم للعمل فعلا في طلب الحرية والاستقلال. وقد سألته عما إذا كان يريد منا مساعدات عملية إلى جانب التأييد المعنوي ؟ وكان تقديره أن أي مساعدة نستطيع تقديمها على شكل مساعدات مادية - خصوصا بالسلح والذخيرة - سوف تكون موضع تقديرهم . وفي هذه الحالة فإنه يتطلب توصيل الأسلحة وأية مساعدات أخرى سرا إلى مكان معين موجود في العراق أو أي مكان آخر نتفق عليه . وفي مقابل ذلك فإن عزيز المصري كان مغولا أن يقول لي بأن الدولة العربية المستقلة بعد تأسيسها تتعهد لنا باحترام مصالحنا في الهند وأيضا في فارس ، وأن توفر لنا معاملة تجارية تفضيلية من خلال معاهدة مع دولة عربية مستقلة قادرة على النمو بسرعة . "



يوم ٢٤ أكتوبر عاد عزيز المصري فاتصل بـ "جلبرت كلايتون" - مسؤول مكتب القاهرة - طالبا مقابلاته ، وكانت كل الدلائل تشير إلى أن تركيا على وشك أن تدخل الحرب أخيرا في صف الألمان . وكتب "كلايتون" بنفس التاريخ مذكرة يقول فيها :

" هاجرت عزيز المصري بك على الفور بسؤال قلت له فيه "هل ينوي المرب تأييد تركيا عندما تدخل الحرب ؟" وأجبت "إن ذلك إذا حدث سوف يكون هينا تأسف له بريطانيا المظمي التي تحتفظ بملاقات ودية مع المرب ، وهي لا تريد أن تتأثر هذه العلاقات بأي خطوات عدوانية تقوم بها تركيا . " ثم سألته مباشرة أن يقول لي رايه في كيف تستطيع الحكومة البريطانية أن تؤكد للقادة المرب نواياها الطيبة تجاههم ؟

إن عزيز بك كان صريحا إلى أبعد الحدود ، وقال لي "إنه بدون تنظيم عربي قادر فإن الاتجاه العربي العام سوف يميل مع الأقوى أيها كان . ولما كانت تركيا باحتلالها لأجزاء كبيرة من العالم العربي هي الأقوى بالأمر الواقع الناضن من حكمها لعظم البلاد العربية ، فإن المهل للأترك قد يفرغ نفسه بالضرورة ، خصوصا إذا ما ساعدت تركيا عليه بابرار العامل الإسلامي والضغط عليه" . ثم قال عزيز بك "إن الصورة يمكن أن تختلف إذا كان هناك برنامج كامل لمصل مربي موحد هدفه تحرير البلاد العربية من السيطرة التركية ، وذلك يتأتى بتنظيم ثورة عربية عامة تظهر همة وغياال المرب وتكتل عملهم نحو تحقيق استقلال بلادهم" .

وكان رأى عزيز بك "إن العرب يستطيعون تكوين قوة عسكرية لا بأس بها . وإن قوالة هذه القوة يمكن توفيرها من الجنود العرب في الجيش التركي ، وبالتالي الجيش التركي في العراق ، على أوساط هذا الجيش تسرى أفكار الثورة العربية" . وفي تقدير عزيز بك أنه "على شعور القليلة يمكن جمع خمسة عشر ألف جندي وتدريبهم ليكونوا قوة جيش الثورة العربية . ثم إن هذا الجيش العربي عندما يقوم سوف يصبح الركيزة التي تتجمع حولها كل القيادات العربية الدينية أو القبلية" . وقد أضاف عزيز بك "إنهم لا يريدون قوات من الإمبراطورية البريطانية تدخل بلادهم للمساعدة على الثورة ضد الأتراك ، لأن ذلك يمكن أن يعطى الانطباع بأن بريطانيا تسعى إلى ضم العالم العربي إلى ممتلكاتها ، وليس إلى مساعدتهم على الاستقلال" .

وختم "كلايتون" تقريره عن المقابلة بقوله :

"إنني استمعت إلى عزيز بك بكل الاهتمام الذي يستحقه رجل في مكانته ، ولكنني لم أكنه بعض لأن تركها لم تدخل الحرب بعد ، وأي خطوة من جانبنا الآن يمكن أن تتسرب وتحدث من المشاكل ما لا نستطيع توقعه . وكل ما وعدته به هو أن نظل على اتصال حتى تتضح الأمور" .



وعطيفة العلاقات بين إدارات الإمبراطورية البريطانية فإن الاتصالات بين الكولونيل عزيز بك المصري ممثلاً لتنظيم "المهد" ، وبين كل من "راسل" و"كلايتون" ، وصلت سبلها إلى الهند . وفي آخر نوفمبر كتب رئيس مكتب دولي الكولونيل "بيرسي كوكس" براء إلى نائب الملك - اللورد "هاردينج" - تم تحويله إلى لندن ، قائلا فيه :

"إننا في حكومة الهند لا نرى تفجيع التوميسون العرب . إن القوات البريطانية الآن احتلت البصرة ورفعت العلم البريطاني عليها دون أي مقاومة أو شعور بالمداء من السكان المحليين . بل على العكس فإن هؤلاء السكان نظروا إلينا كأصدقاء وحماة . ولم يعد هناك في إقليم البصرة الآن أي أثر للإبارة التركية .

ولا بد أن يكون واضحاً أن الجمعيات السرية العربية لها مثيلات هنا في الهند ، وقد قامت الجمعيات الوطنية في الهند بإجراءات إجرامية كما تتكون في الفترة ما بين ١٩٠٧ و ١٩٠٩ . وكان رندا عليهم هو إغلاق مقارهم وحظر منشوراتهم ومنع اجتماعاتهم وتظاهراتهم . وقد لجأوا إلى المصلح المسلح وقاموا بحملات على حياة نائب الملك اللورد هاردينج .

وإنه لمن الصعب علينا أن نتصور كيف يمكن أن تساعد التنظيمات القومية العربية على العمل من أجل الاستقلال ، لم تمنع ذلك بالنسبة لمظاهراتها في الهند . وراينا هو أن سلامة الهند تقتضي الحذر في إعطاء أي تمهيدات باستقلال العرب ، لأن ذلك يمكن أن يعمل بالحدوى إلى هبة القارة الهندية . "

وأضاف اللورد "هاردينج" في رسالة إلى لندن مهدت لذكره "بيرسى كوكس" ملاحظة قال فيها : "إنه يرى أن القوميين العرب يدخلون العراق في مشروعاتهم ، بينما منطقة ما بين النهرين (بجلة والفرات) داخلة في اختصاص حكومة الهند ، وليس من حق القاهرة إقحام نفسها في شأن مصرها" .

ورد مكتب القاهرة لكتيب إلى لندن يقول : "إن قادة الحركة القومية العربية هنا من رأيهم أن نزول القوات البريطانية في البصرة ، إلى جانب تحركات عسكرية هائلة في البحر الأحمر ، تعطي الانطباع للعرب بأن الحكومة البريطانية تطمح لنفس أراضيهم إلى ممتلكاتها . وهذا لا يساعدهم على حشد الرأي العام العربي في الثورة على تركيا . "

ولعل "كلايتون" رأى ألا يكفى بنقل ملاحظات سلبية للقوميين العرب ، وهكذا كتب برقية قصيرة إلى لندن يقول فيها :

" إذا كان هناك جهد مطلوب ومرغوب فيه هنا من جانب الحركة القومية العربية فإننا نرجو توضيحه وتزويدها بتوجيهات محددة بشأنه . إن تعزيز بك المصري عنصر مهم جدا ، لكنه غير قابل على العمل إذا كنا سنعزل جهوده وجهود زملائه . "

ورد وزير الخارجية البريطاني السير "انوارد جراي" على ذلك ببرقية منه إلى العميد البريطاني في مصر السير "هزلي ماتكاهسون" - وهو المسئول عن المكتب العربي وعن "كلايتون" - جاء فيها :

" تستطيع أن تقدم أية تأكيدات تقترحها لميزر المصري باسم الحكومة البريطانية . إن الحركة العربية لا بد من تجميعها بكل وسيلة ممكنة ، ويمكن لميزر المصري أن يبدأ في تنظيم القوة التي يريد . وتستطيع أن تضع تحت تصرفه ٢٠٠٠ جنده استراتيجي إذا كنت ترى أن ذلك مفيد . ولك أن تطلب منه أن يظل على اتصال بمكتب القاهرة وبالمعتمد البريطاني ، وأن تتعهد له بأننا سوف نساعد الحركة القومية العربية بمقدار ما يبدو من تأثيرها . "

ودعى "ميزر المصري" إلى مقابلة "كلايتون" الذي أبلغه باستعداد الحكومة البريطانية لمساعدة القوميين العرب . وكان أول ما طلبه "ميزر المصري" هو مساعدته في الاتصال بالضباط العرب العاملين في الجيش التركي في العراق ، ويوحد منهم بالذات هو في نظره أنشطهم ، وهو ضابط شاب اسمه "توري السعيد" .



كان لا بد للاتصال بالشاب العراقي "نوري السعيد" (الذي أصبح فيما بعد رئيساً لوزراء العراق) من تعاون حكومة الهند التي كانت لوائتها في ذلك الوقت عاملة في البصرة ، وأدى ذلك إلى إخطار نائب الملك في الهند ورئيس مكتب دلهي - "بيرسي كوكس" - بما يدور في القاهرة من اتصالات مع القوميين العرب . ولم يكن نائب الملك في الهند ولا رئيس مكتب دلهي على اتفاق مع سياسة المتعهد البريطاني في مصر ولا مكتب القاهرة . وعلى أي حال فإن "بيرسي كوكس" (رئيس مكتب دلهي) تمكن من العثور على الشاب العراقي الشاب "نوري السعيد" وسهل له أن يجيء ليلقاه في البصرة . وكتب "بيرسي كوكس" بعد ذلك تقريراً عن المقابلة قال فيه :

" قابلت نوري السعيد . بدا لي شاباً حالماً له موهب اشتراكية . إنه شاب في حوالى الخامسة والعشرين سنة من العمر ، وهو يمانى من مرشدين في الصدر ، وبدأ لي أوروبا في مظهره . وقد حدثني عن المشروع العربي الذي يشارك فيه هو ورفاق له أبرزهم عزيز المصري الذي تعرفونه من القاهرة . وقال إن هدفهم هو تحقيق أهداف الأمة العربية بمئة عامه . وأبدى لي موافقته على قيامنا باحتلال البصرة إذا كان ذلك بداية لتجميع عمل عربي يحقق تحرير العرب الذين يريدون أن يحتفظوا بعلاقات ودية معنا . وقال لي إنه يستطيع أن يساعد على سحب كل الضباط العرب الذين يخدمون في جيش جاويد باها (والى بغداد) ، كما أنه يستطيع مع مدد منهم أن يحصلوا على ولاء كثيرين من قادة القبائل في وادي الفرات للتعاون معهم ، وأنه بالتنسيق بين الضباط وضيوف القبائل فإن قيادة الثورة العربية سوف تستطيع أن تهدد إليها أحلام الضموب العربية الرافضة في الاستقلال .

ومن جانبى ، فإذنى أنظر إلى هذه الأفكار والمشروعات بهذه كبر ، وأراها خيالية وغير عملية . ولست أعتقد أنه سيكون في استطاعة الضباط والضيوف أن يتعاونوا معاً . إن تصورات الضباط العرب ، بمن فيهم نوري السعيد ، من أن احتلالنا للبصرة هو مقدمة لتحرير العرب جموع إلى الشمال منهم . فنحن نزلنا هناك لتأمين الهند ، وهذا يتأتى بضم العراق إلى ممتلكات التاج البريطانى . وبصفة عامة فإذنى أخشى من كل هذا المشروع العربى ، وأقترح عليكم حتى نتجلى الأمور تجميع مشروعات عزيز المصري ورفاقه ، ومنه إذا أمكن من مفارقة مصر ."

وفي هذه اللحظة كانت حكومة الهند هي الأكثر نفوذاً في لندن . وهكذا فإن وزير الخارجية "إدوارد جراي" ما لبث أن بعث للقاهرة ببرقية حازمة جاء فيها بالنص :

"- في الوقت الحاضر ، وحتى صدور تلميحات أخرى ، يجب الامتناع عن إعطاء أي تشجيع محمد لمريز المصري ."

مارك سايكس

"من الذى قال لثائب الملك فى الهند إننا نريد حكومة عربية موحدة وممتلئة؟"

(تأشيرة لوزير خارجية بريطانيا السير "إدوارد جراى" على مكررة من الحاكم العام البريطانى للهند)

مع دخول تركيا الحرب عاد المركز الإمبراطورى فى القاهرة يستعيد ثقله ووزنه فى صنع السياسة البريطانية . وبالفعل فإن القاهرة فى بداية سنة ١٩١٥ تحولت إلى قيادة متقدمة للجهدين الممكرى والسياسى للحلفاء . ولاح على الفور أن ما توقعته الاستراتيجية البريطانية من هجوم تركى فى اتجاه قناة السويس على وشك أن يتحقق . وبالتالي فإن قائد القوات البريطانية فى مصر - الجنرال "ماكسويل" - صدرت إليه الأوامر بأن يستعد لهصد هجوم تركى محتمل ، وأن يكون جاهزا بعده لأخذ زمام المبادرة والتقدم عبر سيناء إلى فلسطين .

وهكذا أصبح مستقبل الملكات التركية فى الشرق مطروحا للمناقشة والقرار . ومع تدفق قوات عسكرية من كل أرجاء الإمبراطورية على مصر استعدادا لملاقاة الهجوم التركى المحتمل والرد عليه ، فإن النشاط السياسى فى القاهرة بلغ ذروة عالية :

١ - كان مكتب القاهرة طرفا فى التنسيق الضرورى الذى قامت به لندن مع باريس ، فالظروف فرضت بنفسها اتهام مصرى رئيسى للعمليات خارج أوروبا . ثم إنها طرحت واقعـ

ضرورة الاتفاق على خطوط عامة لقسمه التركية العثمانية . وكانت لندن وباريس قد اتفقتا على خطوط رئيسية :

- إنه لا بد من فصل بين "الساحل" و"الداخل" في خريطة جديدة للعالم العربي . فالقوى الأوروبية يمكن أن تتقاسم النفوذ في "الساحل" المطل على البحر الأبيض والمحيط به.^(٢) وأما "الداخل" بكل ما فيه من الصحارى والقبائل فأمره معقد ويمكن تركه للصرب إذا ما ساعدوا على هزيمة تركيا .
- وهكذا أضيف إلى تقسيم العالم العربي خط رأسي مواز للخط الأفقي .
— الخط الرأسي يمزج "الساحل" عن "الداخل" .

— والخط الأفقي يمزج مصر عن سوريا (يوطن قومي لليهود في فلسطين طبقا للسياسة البريطانية من "المارستون" إلى "نزالهلي" إلى "لويد جورج") .
وكانت فرنسا تريد سوريا الشمالية وتمتد أن لها حقوقا تاريخية في بيروت وجبل لبنان وما حولهما إلى وديان الشام ، بما في ذلك دمشق وحمص وحلب وحمص والموصل (شمال العراق) .

وفي مقابل ذلك فإن بريطانيا كانت تريد إلى جانب مصر والسودان منطقة ما بين النهرين (العراق) والخليج . كما أن بينها كانت على فلسطين ، فهي لازمة لخطتها في الفصل ما بين مصر وسوريا .

٢ - ولم يكن مكتب القاهرة رافيا عن هذه الخطوط المريضة ، معتقدا أن لندن أعطت لباريس فيها أكثر مما تستحق . ولأن باريس كانت تشك في النوايا البريطانية ، فإنها أرسلت إلى القاهرة خبيرا مقبها في المفوضية الفرنسية هو "جورج بيكو" . وفتح "جورج بيكو" في القاهرة فعلا مكتب اتصال كبيرا ، وزاح يقدم منه علاقات وثيقة مع كثيرين من اللاجئين من الشام ، وبينهم كثيرون من الشخصيات المسيحية التي اختارت القاهرة موطنها في ذلك الوقت هربا من الاضطهاد العثماني . ثم إنه راح يرسم مع بعض قياداتهم خططا لاستقلال الحكم في شمال سوريا بعد تحريرها من السيطرة العثمانية ..

٣ - وكان مكتب القاهرة متمسكا بحقه وسلطته في العمل . وفي هذا الوقت كان همه بالدرجة الأولى منصرفا إلى محاولة الاتصال بالداخل العربي رغم ما بدا من توافر على مستقبله ومصيره بين باريس ولندن .

(٢) كانت الإمبراطورية البريطانية قد طبقت هذه السياسة بالفعل في الخليج ، من رأسه عند البصرة نازلة إلى دمشق "مرص" وبتجهته بعد ذلك غربا حتى عدن في طوق ساحلي محيط ببحر الجزيرة العربية كله .

كان مشروع "عزير المصرى" قد أوقف ، لكن هناك بدائل غيره راحت تطرح نفسها . وكان من أهم البدائل التى طرحت نفسها أن تركها التى سارعت تحزق بسيطرتها على ممتلكاتها الشرقية ، رأت استبعاد الشيوع وزعماء الثغائل من راودها الشك فى ولائهم لها ، وكان من بينهم والى مكة الشريف "حميد بن عون" . وبحكم آلية الفعل ورد الفعل فإن الشريف الذى كان يضر الكراهية لتركها ويخشى من إقدامها على خلعها لأسباب محلية بحتة ، مضى يماهر ابنه الثانى الأمير "عبد الله" الذى كان من رايه الاتصال بالإنجليز فى مصر والحصول على تأييدهم كتكتل مواز لآية تصرفات تركية إزاء والى مكة . وكان ذلك يتفق على نحو أو آخر مع خطط بريطانيا فى الاهتمام بالداخل الذى لم يتم الاتفاق عليه بين باريس ولندن ، على عكس الساحل الذى تم الاتفاق عليه

وفى البداية فإن مكتب القاهرة كان على استعداد لأن يتصل بالشريف "الإبراهيمسى" والى عسير . ولكن حكومة الهند اعترضت طريقه مرة أخرى لأن عسير ملاصقة لحدود التى تحتلها بالفعل قوات حكومة الهند .

٤ - فى نفس الوقت فإن القوميين العرب من أنصار الاتجاه الإسلامى فى مصر ، وزعيمهم فى ذلك الوقت هو الشيخ "رشيد رضا" تلميذ الإمام "محمد عبده" ومحرم جريدة "النار" المعتدة - راحوا يتصلون بمكتب القاهرة وشاغليهم هو المحافظة على الخلافة ونقلها من الخلفاء الأتراك إلى خلفاء من المسلمين . وكان مصير الخلافة يطرح نفسه بالفعل بعد هزيمة تركيا . وكان هناك إحساس هام بأن مستقبل الخلافة يشغل بال جماهير عربية وإسلامية واسعة . وكان على الحكومة البريطانية أن تواجه هذه المسألة بتصرف يهدئ الخواطر ويطمئن جمهور المسلمين فى العالم العربى وخارجه .

٥ - ومن أقر هذا كله أن وزير الخارجية البريطانى السير "إدوارد جراه" بحث ببرقية إلى السير "هنرى ماكماهون" المعتد البريطانى فى مصر ، جاء نصها على النحو التالى :

" إنك مغول إذا وجدت ذلك مناسباً أن تعلن أن حكومة صاحب الجلالة سوف تصر ضمن شروطها بعدم النصر على أن تقوم حكومة إسلامية مستقلة لتتقلل إليها مسئولية الخلافة . إنك لست مطالباً الآن بأن تقول أى شيء عن حدود هذه الدولة الإسلامية ، و يكفيك أن تقول بطريقة دبلوماسية إن أمر الخلافة سوف يقرره المسلمون ويون تدخل من قوى أجنبية . وإذا قرر المسلمون قبول خلافة عربية ، فإن هذا القرار سوف يكون موضع الاحترام من جانب حكومة صاحب الجلالة " .



وبدأت هذه الخطوط تتلاقى في القاهرة عندما جاء الأمير "عبد الله" إليها لفتح أول لقاء اتصال بين والده الشريف "حسين" وإلى مكة وبين دار المتعد البريطانى فى القاهرة ممثلا للحكومة البريطانية . وبدأ الاتجاه إلى الهاشميين فى مكة (الشريف "حسين" وأبنائه ، وبالذات "عبد الله" و"فهملح" ، لكى يكونوا الركيزة المبدئية للكرسى الخلافة الإسلامية .

وفى اتصالات لاحقة مع مكتب القاهرة قدم الشريف "حسين" خريطة لمستقبل دولة عربية إسلامية تنتقل إليها خلافة المسلمين . ولاحظ مكتب القاهرة على الفور أن خريطة الشريف "حسين" تتفق إلى حد كبير مع ما كان يقول به كل من "عزيز المصرى" والشيخ "رشيد رضا" ، رغم أن أولهما كان يمثل التيار القومى ، والثانى يمثل التيار الإسلامى . وكتب السير "هنرى ماركهاون" إلى وزير الخارجية البريطانى - السير "إدوارد جبرائى" - يقول له :

" إن كبير عبرائى فى الشؤون العربية "روئالند ستورز" (وهو شخصية بارزة فى المخابرات البريطانية فى الشرق الأدنى ومؤلف كتاب شهير هو "مشرقيات" Orientations) يرى أن هناك تطابقا واضحا بين الأفكار التى يعرضها الشيخ "رشيد رضا" وبين خطة الشريف "حسين" ، خصوصا فيما يتعلق بمسألة حدود الدولة العربية المستقلة المقترحة ، الأمر الذى يقطع بأن الشيخ على اتصال بشريف مكة . كذلك فإن هذه الخطط لا تبعد كثيرا عما قاله "عزيز بك المصرى" . ويظهر أن هناك اتصالا من نوع ما بين الجميع ."

وكانت الخريطة الأولى التى بعث بها الشريف "حسين" إلى القاهرة لا تتوافق بالظن مع التمسك المتفق عليه بين لندن وباريس . فلم يكن فيها ذلك الفاصل بين مصر وسوريا (أفقيًا) ، ولا كان فيها ذلك الفاصل بين الساحل والداخل (رأسيًا) فى العالم العربى . وإنما كانت خريطة الشريف "حسين" تشمل سوريا كلها بما فيها فلسطين ، والعراق ، وشبه الجزيرة العربية . ثم إن الخريطة لم تدخل مصر فى إطارها لأن مصر كان لها وضع خاص مختلف إلى حد ما عن بقية العالم العربى ، كما أن الأسرة المالكة فيها - وهى أسرة "محمد على" - كانت ذات وضع متميز يفرق بينها وبين كل الأسر القبلية الحاكمة وقتها فى المنطقة .

وكانت الخطط والبراهن لا تزال بعد فى مراحل الإعداد الأولى ، ومع ذلك فإن ما تصرب من أمرها دعا أطرافا كثيرة إلى التطهير من أمرها . وكان أول المتطهرين هو حكومة الهند التى لم تكن تريد بالقطع حكومة إسلامية عربية مستقلة - حتى وإن كانت موالية لبريطانيا - مجاورة لشبه القارة الهندية . وتعللت حكومة الهند فى معارضتها لما يجرى

في القاهرة من مناقشات حول مستقبل العالم العربي ومستقبل الخلافة ، بأن صديقها "ابن سمود" حاكم نجد ، وهو على صلة وثيقة بها ، أن يقول بأى حال من الأحوال أن يعطى يبعثه للشريف "صعين" خليفة للمسلمين ، وأن يتقبل بنفس الدرجة سلاطين وضيوف اليمن وعسير وغيرهما من الأقاليم العربية الواقعة في اختصاص حكومة الهند .

وهلق "جراى" وزير الخارجية البريطانى على هذه البرقية بعبارة كتبها على هامشها قال فيها : "من الذى قال لنائب الملك فى الهند إننا نريد حكومة عربية موحدة ومستقلة؟"

وكان التعليق يلها فى دلائله !

وأما مصدر المعارضة الثانى فقد كان باريس التى أحسنت أن بريطانيا تجرى اتصالات ومشاورات وترتيبات فى المشرق العربى دون تشاور معها .

وهنا طلب "جورج كليمنصو" - رئيس الوزارة الفرنسية - من نظيره البريطانى ضرورة الاتفاق بين الحليتين الكبيرين ، على مستقبل المنطقة بطريقة أوضح وأصرح . ووافقت لندن على الطلب الفرنسى حتى لا يعتمد مسار الحرب ، وتقرر تأليف لجنة بريطانية فرنسية تجتمع فى باريس لكى تضع خريطة جديدة للمشرق الأوسط تصمد فى قسمة التركة العثمانية بين اللوتين الكبيرين . واختارت فرنسا رجلها فى هذه اللجنة وهو قنصلها العام فى القاهرة "جورج بيكو" ، كما أن الحكومة البريطانية اختارت السير "مارك سايكس" لى يكون ممثلها فى مقابل "بيكو" .



لا يزال ظهور "مارك سايكس" على مسرح الشرق الأوسط والنور الذى قام به فى تلك اللحظة لغزا من الألغاز . ولم يكن "مارك سايكس" يهوديا وإنما كان كاثوليكيا ، وكان إضافة إلى ذلك صهيونيا بالمعنى المسيحى . ويمكن أن يقال إضافة إلى ذلك إن التأثيرات اليهودية عليه كانت هائلة ، فوالدته اليهودى "هنريتا سايكس" كانت لسنوات طويلة عشيقة للسامسى البريطانى الشهير "بنجامين دزرائيلى" أول وآخر يهودى يتولى رئاسة الوزارة فى بريطانيا (وذلك طبعاً لما ورد فى تاريخ حياته المعتمد الذى نشرته "جيه رايدل" فى لندن سنة ١٩٩٥) . وكان "مارك" ابن "هنريتا" موضع اهتمام "دزرائيلى" الذى ظل فى رئاسة الوزارة أو خارجها سياسيا واسع النفوذ شديد الارتباط بالفكرة الصهيونية ، مؤمنا وصاملا من أجل توطيد اليهود فى فلسطين . ومن المقول أن كثيرا من قناعات "دزرائيلى" رسخت فى وصى "مارك

سايكس" من أهام طفولته وشبابه ، كما أن شخصيته تأثرت أيضا بروح المغامرة واللامبالاة التي اشتهر بها "نزيهيلي".

وقبل الحرب كان "مارك سايكس" قد أصبح عضوا في مجلس العموم البريطاني ، واشتهر - بالعلل - بتعاطفه مع اليهود ومع الحركة الصهيونية . وكانت صلاته وثيقة بكثيرين منهم ، وأولهم اللورد "روتشيلد".

وطبقا لرواية "مارك سايكس" نفسه فإنه فور نشوب الحرب التحق بفرقة وذهب معها إلى خنادق القتال في فرنسا . وذات يوم من ربيع سنة ١٩١٥ (بعد نشوب الحرب بعدة شهور) كان اللورد "كيتشنر" - قائد القوات البريطانية السابق في مصر والقائد العام للجيش البريطاني وقتها - يتفقد مواقع الجبهة في فرنسا ، ووصل إلى مركز قيادة متقدم ، فإذا عينه تقع على "مارك سايكس" . ويروى "مارك سايكس" في مذكرة كتبها أن اللورد "كيتشنر" فوجئ به موجودا في جبهة القتال ، فوجه إليه إحدى نظراته التي اشتهرت بحزمها ونفاذها، وقال له بحدة : "سايكس ، ماذا تفعل هنا؟" ورد "سايكس" قائلا لـ "كيتشنر" : "لأردى وأجيب يا سيدي". وقال له "كيتشنر" بصرمة : "مكناك في هذه الحرب ليس هنا ، مكناك في الشرق ، فالذهب إلى هناك" . ثم استطرد "كيتشنر" محددا أمره قائلا لـ "مارك سايكس" : "سلم كتبكك الليلة إلى لندن وتوجه إلى لندن ، وستجد هناك تعليمات تتفكر بها بتمعين عليك أن تعمل".



وعندما وصل "مارك سايكس" إلى لندن عرف أن مهمته في الوقت الراهن هي رسم خريطة الشرق العربي بالتنسيق مع فرنسا ، بما في ذلك الاتفاق على قسمته بين القوتين. وسافر "سايكس" من لندن إلى القاهرة ، ثم عاد بعد ذلك إلى باريس ليكتلي بـ "جورج بيكو" - الذي أصبح قنصل فرنسا في القاهرة - ويبدأ معه المفاوضات التي انتهت بينهما بالاتفاقية التي اشتهرت باسم "سايكس - بيكو".

إن الاتفاقية التي وقع عليها الاثنان ظلت سرا من أسرار الحرب حتى قامت حكومة "سان بيتسبرغ" المؤقتة بعد سقوط حكم "آل رومانوف" في روسيا ، وبعد قيام الدولة البولندية فيها ، بإذاعة نصوصها وخرائطها . وأحدثت إذاعتها صدمة كبرى في العالم العربي. وكان أكثر من أصهبوا بالصدمة هو المعتمد البريطاني في القاهرة السير "هنري ماركهاون"، بالإضافة إلى مكتب المخابرات فيها (مكتب القاهرة) الذي يصرّف عليه

"جابريل كلايتون"، "لأن ما فيها جاء متناقضا في كثير منه مع كل ما كانت تجري مناقشته من خلال الاتصالات مع الشريف "حسين" وأبنائه ، وبالأدات "عبد الله" و"فصل".

وبالفعل فإن الأطراف العربية جميعها أخذت على حدة ، خريطة "سايكس - بيكو" التزمت بالتقسيم بين "الساحل" و"الداخل" ، وهو أمر لم يكن الشريف "حسين" ، ولا كان القوميون والإسلاميون العرب - من أنصار مشروع الدولة العربية المستقلة والخلافة الإسلامية العربية - على دراية به . ثم إن الخريطة - بعد ذلك - كانت قاطعة في أن فرنسا سوف تحصل على سوريا ، وهذا أمر يعارضه الشريف "حسين" ، كما يعارضه كل الثوار العرب ، وهو كذلك أمر لا يوافق عليه المركز الإمبراطوري في القاهرة ، وعلى رأسه المعتمد البريطاني في مصر السير "هنري ماكماهون" ، ومكتب المخابرات (مكتب القاهرة) الذي يرأسه "كلايتون". وكان رأى هؤلاء جميعا ، وبمعهم القائد العام للقوات البريطانية في مصر، أن فرنسا بوجودها في سوريا سوف تكون قريبة أكثر مما ينبغي من قناة السويس ، مما يعطيها الفرصة لإثارة المظاهرات أمام بريطانيا في مصر ، مع العلم - على حد تعبير السير "هنري ماكماهون" - بأن "أصدقاء اليوم يمكن أن يصبحوا أصدقاء الغد" ، وأن الحلفاء قد يتحولون إلى أصدقاء إذا ما تغيرت الظروف .

وكانت دريعة المعتمد البريطاني في مصر وكذلك مكتب القاهرة في تحفظهما إزاء الاتفاقية أن توصفا ظلت سرا عليهما - رغم مسؤوليتهما الإمبراطورية - ، ثم إن الشريف "حسين" وكافة الأطراف العربية القومية والإسلامية سوف يعتبرون المعاهدة خيانة لهم ، وفي هذا الوقت الحرج بالذات فإن ذلك قد يؤدي إلى مضاعفات خطيرة .

والغريب أن المعتمد البريطاني في القاهرة تلقى تعليمات بإبلاغ الشريف "حسين" أن ما قيل من خريطة مزعومة تم الاتفاق عليها لتقسيم المشرق بين بريطانيا وفرنسا ، هو "محض دعاية مفروضة قام بها الهلافسة الملاحدة في روسيا لإفساد الصداقة العربية - البريطانية".

إن الشريف "حسين" - رغم شكوك راحته تعاوده بين حين وآخر - كان على استعداد لأن يصدق ما يقوله الحكومة البريطانية . وربما أنه كان لا يزال بعد مؤمنا بـ "وعد الشريف" الذي تقطعه الحكومات الكبرى على نفسها لأصقائها في الحروب . أو ربما أن وعده بأموال السياسة الدولية كان ما زال مأخوذا بتجاربه القبلية السهلة والبسيطة . وأما الشخصيات العربية من القوميين والإسلاميين الذين التلوا حوله وجعلوا منه راية يتناضلون تحتها ، فقد كانت صدمتهم كبيرة ، وضاعفت من وقع الصدمة حادثة شريفة وقعت في ذلك الوقت . فقد حدث والجهش البريطاني يتقدم تحت قيادة الجنرال "النبلي" إلى تخوم فلسطين أن

الاحتكام الأمراك ميثى التتصلية الفرنسية فى بيروت ، فإذا هم هناك يمحرون على قائمة كاملة بأسماء الزعماء السوريين الذين يتعاونون فى حركة الثورة العربية مع الشريف "حسين" ، وكان أن قاموا بتشكيل محكمة عسكرية أصدرت حكم الإعدام على أربعة عشر من هؤلاء الزعماء ، وجرى تنفيذ الحكم فيهم فعلا بعد أيام من صدورهم ، وألقت جيل المخلقة على صفوة من الزعماء السوريين من أنصار دولة الخلافة العربية الجديدة . وأدى ذلك ومضاعفاته إلى نوع من الإحباط فى صفوف الثورة ، تبنى ضرره فى العلاقات بين العناصر القومية من الضباط والتجار والأعيان والموظفين ، وبين القيادة القبلية المتمثلة فى الشريف "حسين" وأبنائه .

كان هناك اعتقاد جازم فى صفوف الثورة العربية ومواقفها فى الشام ، بأن الأمراك لم يمحروا على هذه القائمة بأسماء القادة السوريين مصادفة ، وإنما كان الأمر ترتيبا فرنسيا قصد منه التخلص من العناصر القومية المحركة للثورة والفائلة فى صفوفها ، والممارسة لتقسيم سوريا، والمطالبة بنبولة هربية موحدة . ومن المفارقات أن مكتب القاهرة البريطانى كان مشاركا فى هذه الطنون ، ولكنه مع ذلك أكمل اتصالاته مع الشريف "حسين" وكان شها لم يحدث .

الشريف حسين

"الفاوضة على الحدود والتخوم سابقا
لأنها وهي مضيعة للوقت الآن"

(للمعهد البريطاني في مصر "ناكسهاون" فر
خطاب إلى شريف مكة)

يستطيع أي قارئ لمجموعات الوثائق البريطانية لرئاسة مجلس الوزراء ولوزارة الخارجية ولوزارة المستعمرات ولوزارة الحربية ولوزارة شؤون الهند ، أن يكتشف بدون عناء أن السياسة البريطانية ، لم يكن في نواياها ولا في خططها ما يشير إلى أنها تريد أن تفي بكل التعهدات التي قطعتها على نفسها أثناء الحرب . يستوى في ذلك تلك المهود التي اتفقت عليها مع فرنسا بمقتضى اتفاقية "سايكس - بيكو" ، أو تلك التي أعطتها لقيادات الثورة العربية في ذلك الوقت : الشريف "حسين" وأبنائه ، أو "عزيز المصري" ورشيد رضا" ، وغيرهم .

والشاهد أن أكثر ما يكشف الرغبات الحقيقية للحكومة البريطانية ، هو مجموعة محاف وزارة الحرب التي ناقشت الاستراتيجية العليا لبريطانيا في منطقة الشرق الأوسط . وقد اعتدلت هذه المناقشة بالدرجة الأولى على تقرير قدمه اللورد "كهتشتر" وزير الحربية ، وهو في نفس الوقت خبير بقضايا الشرق من تأخير خدمته الطويلة في مصر .

وفي مجموعة الوثائق السرية لمجلس الحرب البريطاني ، (مجموعة الوثائق التي تبدأ من محضر اجتماع لمجلس الوزراء رقم ١/٢٧ (مجلس الوزراء) إلى برقية وزارة الخارجية رقم م س ٦٣٥٤٩) - وهي مجموعة يضمها دوايب كامل في محفوظات سنوات الحرب وتصل إلى

قراءة ثلاثة آلاف صفحة - فإن صورة الزوايا والخطط البريطانية الحقيقية تتكشف على النحو التالي :

١ - إن بريطانيا يجب أن تحتفظ بسيطرة فاعلة على الساحل السوري بدءاً من فلسطين وانتهاءً بالإسكندرية على الحدود التركية ، فلتك ضرورة تكملة سيطرتها على الساحل المصري في شمال أفريقيا . وأقصى ما يمكن أن تسمح به بريطانيا هو أن تترك لفرنسا جزءاً من ساحل سوريا الشمالي تحت اشتراطات معينة . ولما كان احتلال القسم الأكبر من الساحل السوري بأكمله قد يثير مشاكل مع فرنسا ، فإن مواقع منه يمكن أن يسمح لها بطابع خاص يستجيب لمطالب السيطرة البريطانية . (وكان التفكير الذي ورد في مناقشات مجلس الحرب هو أن يكون هناك موزاييك من القوميات والأديان في منطقة الساحل . وقد أشار اللورد "كيتشنر" في هذه النقطة إلى حيات هدد بينها : مسلمون في سيناء - يهود على ساحل فلسطين الجنوبي - مسيحيون في وسط الساحل السوري - طوائف عربية غير سنية في شمال الساحل السوري - ثم يكون من شأن هذا الموزاييك للتجاوز وربما للتناقل أن يحدد لنفسه مصلحة بشكل من الأشكال مع بريطانيا تحلق هذا مزدوجاً : يتخلف الموزاييك الساحلي من ضغط الداخل عليه ، وفي ذات الوقت فإن ذلك يعطي لبريطانيا - إذا استلزمت مصالحها - منافذ تضغط منها على هذا الداخل نفسه .)

٢ - إن الأماكن المقدسة لكل الأديان في الشرق يجب أن تكون تحت الحماية البريطانية . وعلى لسان "كيتشنر" نفسه فقد رويت عبارة قال فيها أثناء مناقشات وزارة الحرب : "إن الأماكن المقدسة للمسلمين" (كتبت في محضر الجلسة Mohametsans) في مكة وفي المدينة يجب أن تكون تحت الحماية البريطانية بطريق غير مباشر لرأى القمصين الإسلاميين . وكذلك يجب أن تكون كربلاء والنجف في العراق . ونفس الشيء ينطبق على كنيسة القيامة وقبة الصخرة وحائط المبكى في القدس . لذلك يعطى الإمبراطورية البريطانية حق أن تواجه العالم باعتبارها حامية كل المقدسات الدينية ."

٣ - إن بريطانيا يمكن لها أن تفكر جدياً في التمهيد لإقامة خلافة إسلامية عربية خريطة أن تجد "البيت الإسلامي" الذي تعينه تأييدها في مقابل ضمان ولائه لها . ومن المعلوم أن يكون قيام الدولة العربية الإسلامية محصوراً في الداخل الصحراوي من السالم السرى ، فهذه المنطقة بين الخليج الفارسي والبحر الأحمر سوف تقل مهمة للإمبراطورية ولضغوط الدفاع عنها .

٤ - إن بريطانيا لا بد أن تضمن سيطرتها على ما بين النهرين (يقصد العراق) لأن هذه هي المنطقة التي يمكن منها منح روسيا من الوصول إلى المحيط الهندي . ولا بد لبريطانيا أن تمتد فيها وتحت إشرافها خطوط مواصلات - ضمنها سكك حديدية تعتمد من الموصل إلى البصرة - لربط شبكة المواصلات الإمبراطورية .



كانت هذه هي الخطوط الاستراتيجية . وأما أساليب تنفيذها فإن الوثائق البريطانية تتكفل بإعطائه صورة عنها ، وبالأذات الوثيقة رقم ٢٧٦٨/٧٨٣ - ٣٧٩ ، وهي تحمل تعليمات موجهة إلى السير "هنري ماكملان" الممثل البريطاني في مصر ، وإلى البريجادير "جلبرت كلايتون" رئيس مكتب القاهرة ، وقد جاء فيها ما يلي :

" إن الوقت قد أذن لكي يقوم العرب بدورهم في مساعدة المجهود العربي البريطاني في الشرق . ونحن نرى أن ذلك يمكن أن يبدأ بنظر لحساسيات الفرنسية التي تريد منا أن نتجاوز معهم في كل كبيرة وصغيرة . إنه من الضروري لنا أن نلاحظ أن لدينا صداقات مع العرب لا تملكها فرنسا . بل إن بعض أصدقائنا العرب يكرهون الحكومة الفرنسية أكثر من كراهيتهم لحكومة السلطان في إسطنبول .

لقد ناقشنا أفكار عزيز المصري الجديدة كما عرضها عليهم . وكذلك ناقشنا أفكار شمسه مثل نوري السيد والسيد الفساروي وحسن خالد والدكتور شهيندر ، وكذلك الشيخ رهيد رضا .

إننا نرى أن عزيز المصري يحمل أفكارا متشعبة ولا يشير بصعوبات في المستقبل ، ولذلك فإن التعامل معه يجب أن يكون بحذر دون إعطائه الفرصة لكي يتصل من التعاون معه . وفي نفس الوقت فإن نوري السيد يظهر قدرًا من الاعتدال يشجع على التعامل معه . وأما الشيخ رهيد رضا فيمكن ترك أمره إلى مرحلة لاحقة .

وفي الاتصالات مع هؤلاء جميعا فإننا نريد مراعاة النقاط التالية :

- ١ - إن التعامل مع الشيوخ أثبت أنه أفضل ، فطالبهم ببساطة ومحددة ، وهم لا يهتمون الوقت مثل الآخرين في تفاصيل لم يحن وقتها بعد .
- ٢ - ليس من الضروري لنا أن نتعامل مع كل من يتصل بنا على نفس المنهج . فكل واحد من العرب الذين يتصلون بنا له منطقته وله أهدافه .
- ٣ - يجب أن نحاذر في هذه المرحلة من إعطاء أية تمهيدات تفصيلية ومحددة ، خصوصاً بشأن المطالب الخاصة باستقلال العرب . فنحن في هذه المرحلة من الحرب لا نستطيع أن نربط أنفسنا بأكثر من وعود بسيطة تتركز التفاصيل إلى ما بعد الحرب .
- ٤ - ليس من الحكمة ترك الكتائب العربية تعمل في مواطنها عندما تبدأ عمليات الثورة لأن وراء هذه الكتائب بين أهلها قد لا يكون مضمونا . ومن المستحسن أن يكون هناك تنسيق أفضل مع دولسي ، لأن اللورد هاريننج قد تعهد بتدبير

قوات مسلحة من جيش الهند لأداء بعض الأعمال الرئيسية وخصوصا على خطوط المواصلات الحيوية .

٥ - لا بد من ملاحظة أنه في هذه المنطقة فإن موائل معينة يمكن حراؤها بالمال بدلا من اضاءة الوقت والجهد في عمليات عسكرية قد لا تكون ضرورية . وعلى سبيل المثال فإننا عرضنا مليون جنيه استرليني على خليل بك قائد القوات التركية في المراق حتى يرفع الحصار عن القسوة البريطانية المزدوجة في "الكوت" تحت قيادة الجنرال "تاوئند" . وهذا نموذج يمكن تطبيقه في مواقع أخرى . "

كانت الترجمة المفارقة لمل هذه التعليمات - وهناك اشارات متقاربة في كل المجموعة البريطانية في تلك الفترة - تظهر أسلوبا في التعامل يمكن أساسيات واضحة لا نهم فيها :

• إن الحكومة البريطانية تغطي نفسها حق العمل منفردة في كل المنطقة . وهي تعرف أن فرنسا لها مطالب تاريخية واستراتيجية قد تتسكك بها . تكن المرونة مطلوبة . ففى فترة من الفترات يكون التأجيل أو السكوت أسلم ، وفى فترة أخرى تستطيع بريطانيا أن تتصرف على الأرض بما يناسب مصالحها ، ثم تتصور لنفسها القدرة على تهدئة مشاعر فرنسا وتطويع عصية مطلبها (مثل "جورج بيكو" ، وحجتها عليهم أن العرب لا يريدون فرنسا ، ثم إن تعاون هؤلاء العرب مع الحلفاء ضرورى الآن . وبالتالى فإن فرنسا مطلوب منها أن تقيط أعصابها وترك بريطانيا لتصرف بحرية ، وهي سوف تكفل ذلك مراعية لضرورات الحرب ولصالح النصر .

• إن الحكومة البريطانية تحاول التفرقة بين العناصر التقليدية (السلطنات والقبائل والمشايع) وبين العناصر الجديدة في العالم العربى (الفساط والتجار والأعيان والمفكرين) . ومن أثر هذه التفرقة يمكن أن يحدث تناقض بين الطرفين يكون المظنون السبابيون البريطانيون هم المرجع فيه والحكم .

• إن الحكومة البريطانية يمكن أن تمارس متاورات تكفل بالتفرقة داخل معسكر العرب التقليديين المطالبين بالملك والنفوذ ، وداخل معسكر العرب الذين يمثلون التيار الجديد المطالب بالحريّة والاستقلال . والمقصود أن يكون من شأن تطور الأمور وضغوط الحوادث أن يتعمق الخلاف بين التقليديين - مثل الهاشميين والسعوديين - وأن يتوسع المداوة بينهم . كما أن العناصر الجديدة - تحت نفس الضغوط - سوف تواجه تهاددا وخصاما بين أروابها الذين سوف ينقسمون بالتأكيد إلى متفصدين يطلبون التضحيات مسبقا وتلصقية مثل "عزيز المصرى" ، وآخرين معتدلين يمثلون بالتصاون الآن على أصل وضع التفاضيل بعدالحرب مثل "نورى السعيد" .

• إن الحكومة البريطانية خلال هذا كله لن تقدم أى تمهيدات أو ضمانات لتهدد حرمانها مستقبلا وبعد انتهاء الحرب بأية تصوص محددة أو قاطعة في شأن المستقبل . وليس من حق أحد أن يحاسبها أو يطلب منها إشاحا على تصوص تلذخ بواسطة طرف من الأطراف ، فذلك كلها إما دهايات سياسية ، وإما ضرورات ظروف سوف يتكفل النصر بتوضيح حقيقتها جميعا وتحديد قيمة كل منها .



وعندما بدأت الثورة العربية تقترب من مرحلة العمل الفعلي ، كانت العناصر الجديدة في العالم العربي في مبادي القتال في الحجاز - وفي مواقع عديدة في الشام والعراق - بعيدة إلى حد كبير عن المراسلات التي تدور بين الشريف "حسين" وبين السير "هنري ماكماهون" .

وفي نفس الوقت كان الإنجليز - بصلات مباشرة - أقرب إلى خطط الشريف "حسين" منهم إلى العناصر القومية صاحبة حلم الثورة والدولة العربية المستقلة . وكان أبرز تواجد بريطاني مع الشريف يمثل في "توماس إدوارد لورانس" ضابط الارتباط البريطاني الذي اختير من مكتب القاهرة ليتولى التنسيق بين مكتب القاهرة وبين "قيادة الثورة العربية في الحجاز" .

وكان "لورانس" قد أعجب بثالث أبناء الشريف "حسين" ، وهو الأمير "فaisal" ، على حساب ابنه الثاني "عبد الله" ، والذي كان أرشد الأبناء وأكثرهم قربا من دائرة الاتصالات بين والده وبين القوى العربية المشاركة في الثورة .

وكان رأى "لورانس" أن "عبد الله" أكثر ثقافة وألح ذكاء ، لكنه رجل يصعب الاطمئنان إليه . وأما "فaisal" فقد قال في وصفه باختصار : "عندما قابلته لأول مرة عرفت أني عثرت على الرجل الذي جئت إلى الصحراء العربية باحثا عنه" .

وكان "لورانس" يفرى "فaisal" بأن يتقدم بها لديه من قوات وأسرع ما يمكن إلى العقبة ، ومنها إلى دمشق ، ويعدها إلى الإسكندرية ، لكي يقطع طريق التراجع على الجيش التركي عندما تهاجمه القوات البريطانية الزاحفة على فلسطين ، وتعمل في مؤخرته في الوقت الذي يخطط فيه الجيش البريطاني على مقدمته .

ومن المفارقات أن جيش الأمير "فaisal" الذي اندفع شمالا إلى العقبة كان يضم قوات مدعومة مصرية رتبها "مكتب القاهرة" وألحقها بجيش "فaisal" .

وفى هذه الظروف كتب السير "عزى ماكملون" المتمد البريطاني فى مصر إلى الشريف "حسين" رسالة جاء فيها بالنص :

" إلى السيد الحبيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار وفرع الهجرة المحمدية والنوحة القرشية الأحمديّة صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية السيد ابن السيد الشريف ابن الشريف الجليل المهمل دولتو الشريف حسين سيد الجميع أمير مكة المكرمة قبلة المالين ومحط رحال المؤمنين الطائعين صمت بركته الناس أجمعين .

بعد رفع ربوب وإفر التحيات المطرة والتسليمات القلبية الخاصة من كل هائلة نعرض أن لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لإظهاركم عاطفة الإخلاص وحرف الصبور والإحساسات نحو الإنجليز . وقد سرنا حلاوة على ذلك أن نعلم أن سيادتكم ورجائكم على رأى واحد وأن مصالح العرب هى نفس مصالح الإنجليز والمكمن بالمكس . ولهذه النسبة فحين نؤكد لكم أقوال فخامة اللورد كيتشنر التى وصلت إلى سيادتكم . . . ، وهى التى كان موضعها بها وفتحنا فى استقلال بلاد العرب وسكانها مع استصوابنا للخلافة العربية منذ إعلانها .

وإننا نصرح هنا مرة أخرى أن جلالة ملك بريطانيا العظمى يرحب باسترداد الخلافة إلى يد عربى صميم من فروع تلك النوحة النبوية المباركة .

وأما من خصوص مسائل الحدود والتخوم ، فالمفاوضة فيها تظهر أنها سابقة لأوانها وتصرف الأوقات سدى فى مثل هذه التفاصيل فى حالة أن الحرب دائمة رحاها ."

وكان الشريف "حسين" فى حجة من أسره ، ولم يتوقف كثيرا عند حديث الحدود والتخوم كما فعلت العناصر العربية القومية (مثل "مؤيد المصرى" و"رشيد رضا" وغيرهما) . وهكذا فإن الشريف "حسين" رد على السير "ماكملون" كما يلى:

" إلى حضرة لى الأمانة فخامة نائب جلالة الملك دام عرضها

ويعد ،

فهايدى التوقير والاحتشام تلقينا رقمكم (خطابكم) الأخير ، وإن مضامينه أدخلت علينا مزيد الارتياح والسرور لحصول الظاهر المطلوب والتقارب المربوب . أسأل الله أن يسهل المقام ويخرج الناس ، ومن الإيضاحات الآتية نفهم الفخامة الأعمال الجارية والأسباب للفتنة .

أولا - قد أمننا قدامتكم بأننا بعتنا بأحد أبنائنا إلى الهام ليرأس ما
يقتضى عمله هناك

ثانها - مزمتنا على إرسال دجلنا الكثير إلى اللجنة الفورية بقوة كافية ليكون
دعما لأخيه الذي بالهام

بقي علينا بيان ما نحتاجه والحالة هذه هو :

أولا - مبلغ ٥٠,٠٠٠ جنيه ذهبيا لخاصرة القوات المجتدة ونحوها مما ضرورته
تلقى من يهانه. فالرجاء إخبارها بوجه السرعة للمكنة .

ثانها - إخبار ٢٠,٠٠٠ كهم أوز و ١٥,٠٠٠ كهم دقيق و ٣,٠٠٠ شمير و ١٥٠
كهم بن قهوة ومثلها سكر ومقدار ١٠٠ صندوق من النوع للرسل منه مرميتين طيه

النفود المطلوبة يقتضى إرسالها في الحال إلى أمير بورسودان وسيرده من طرفنا
معتد بتسلمها إما دفعة أو دفعتين على حسب استطاعته . وهذه علامة اعتماد
الرجل (X) .

لورانس

"بمسئلك لا بمسيف الإنجليز"

(قصيدة لعماد الملك "عميد الميز في وصف دخول
الأمير فيصل إلى دمشق)

هذه هذا المنمطف الخطير من التلويح العربي الحديث لم يكن العرب يتفاوضون أو
يتحاورون مع العالم باعتبارهم قوة لها رأى ولها دور في مستقبل المنطقة التي يعيشون فيها .
ولقد كان مؤسسا في تلك اللحظة أن المناصر القومية التي كان يمكن أن تتوالى لديها المعرفة
وبعد النظر الكافهان للمشاركة في صنع المستقبل يحدث وفابنت .

وبن ناحية أخرى ، فإن الشريف "حسين" راح يحاول أن يدير أموره مع الحكومة
البريطانية بطريقة مستقلة ، لكنه لم يكن يملك المعرفة بشئون العالم أو الثقافة السياسية
الكافية للتعامل مع خطط إمبراطورية واسعة ومعقدة . وقد بدأ يحس على نحو ما أنه حتى
أولاده يتصرفون بممزل عنه .

ولم يكن الشريف "حسين" راضيا في أعماله عن تقدم "فيصل" مع "لورانس" إلى الشام
دون تشاور كاف معه ودون أمر صريح منه . وبدأت المخاوف تراوده من أن "فيصل" يريد
سوريا لنفسه . وفي ذات الوقت فإن "فيصل" كان يشكو لـ "لورانس" وتغيره من الضباط
الإنجليز "إن الوالد لا يعرف ما فيه الكفاية عن العصر الحديث ، وهو غير قادر على
التعامل مع عالم جديد سوف يظهر بعد الحرب" .

وكان الأمير "عميد الله" لا يطفى شبقه هو الآخر بـ "سياسات الوالد" ، ولا يكف عن
إظهار قلقه من انفراد شقيقه الأصغر "فيصل" برضا الإنجليز دونه ، وقد ألقاه أن
"لورانس" انفراد بـ "فيصل" وأخذ مع جهته في اتجاه العقبة ، ويعدنا إلى دمشق .

وبدوره فإن الأمير "عبد الله" سحب جيشه وراح وتوجه هو الآخر شمالاً حتى وصل إلى منطقة عمان في شرق الأردن ، وتوقف هناك بمسكته ينتظر ما سوف يحدث سواء في جدة أو في دمشق .

ولم تكن حكومة الهند راضية بالردة عن سياسات مركز القاهرة ، معتبرة أن هذا المركز الذي أنشأه ولقبه شروف الحرب يرسم خطاً قد تؤثر على الأوضاع في الهند . وفي ذلك الوقت فإن السير "يرسي كوكس" (رئيس مكتب دلهي) راح يناوئ خطط التعاون البريطاني - الهندي ، ويحظى كل تشجيعه وتأييده لأمير نجد "عبد العزيز آل سعود" ، ويخبر له من طرف خفي بخلافه للمسلمين ، فهو المسمى الأصمى الخارج من قلب الصحراء ، والذي لم يتأثر بالثقافة وطرق الحياة التركية - كما حدث للهشاميين الذين عاش معظم سنوات شبابه في إسطنبول .

وبوم وصل "فصيل" بجيشه إلى مشارف دمشق بعد أن انضمت إليه أعداد من باقي القوميين والوطنيين في سوريا الذين كانوا يمثلون أنفسهم بأى أمل يستبقى في أيديهم ولو جزئاً من حلمهم ، فإن سلطان نجد كان على استعداد لأن يسخر علناً من خصومه الهاشميين . ووقف شاهر بلاطه ، وهو وقتها "فؤاد حمزة" (أصبح فيما بعد سفيرة في تركيا) ، يلقى لصيدة يسخر فيها علناً من دخول "فصيل" إلى دمشق . وكانت بداية الصيدة بيتاً يقول :

"بسهلك لا بسيف الإنجليز دخلت الشام الهزى" ثم "هزى"

مستملاً كلمة (saw) الإنجليزية ، ومماها "سهل" ، لتكملة الفطرة الثانية من بيت الشعر وتركيب قليبها على نفس الروي .



وكان التخطيط البريطاني لترتيب أمور الشام يلتفت بسرعة للتركيز على فلسطين ، وبالتحديد للعمل على إقامة وطن لليهود فيها يؤدي دوره الرسوم في الاستراتيجية البريطانية .

وفجأة مرة أخرى عاد إلى الظهور في اللامعة نفس الرجل الذي تولى اتفاقية "سايكس بيكو" ، وهو السير "مارك سايكس" ، وقد جاء هذه المرة لكي يرتب لما بعد تقسيم العالم العربي ، وأولاه التمهيد لإنهاء الوطن اليهودي الموعود في فلسطين .

وتروى وثيقة وزارة الخارجية رقم ١٠٦٧٦٤ - ٣٧١/٢٤٧٦ بتاريخ ١٢ يوليو ١٩١٥ أن

الثلاث المام البريطانى فى مصر الجنرال "ماكسويل" تحدث فى شأن فلسطين مع السير "هنرى ماكمليون" ، وعرض عليه اقتراحا أطال التفكير فيه وهو أن توضع فلسطين تحت الحماية البريطانية شأنها شأن مصر ، ثم يمهّد بإبارتها إلى سلطان مصر "لأن القدس لا بد فى هذه الظروف أن تبقى تحت الحماية الطاهرة لأمير مسلم" .

كان السلطان "حسين كامل" هو سلطان مصر وقتها ، وكانت شوافله المحلية تفرض عليه هموما تطرد أى حلم يتجاوز حدودها ، مما يدخله فى صراع حول مستقبل العالم العربى فى الشرق ، بما فيه الصراع على الخلافة بين الهاشميين والسعوديين الذين دخلوا الحلبة الآن . ولم يكن الجنرال "ماكسويل" بهذا الاقتراح مهتما بوجود أمير مسلم (مصرى) على القدس ، وإنما كان ذلك بحثا عن فضاء يتيح الفرصة ودون متاعب كثيرة لإمكانية تغيير التوازن السكانى فى الأرض الموعودة . فقد كان عدد المسلمون اليهود فى فلسطين حتى هذه اللحظة لا يزيد عن خمسين ألفا . وكان يمكن لولاية سلطان مصر على القدس أن تتصدى لمطامحات وطنية وقومية هربية معينة ، بحيث تجرى فى مناح هادئ عملية استبدال بصرى على نطاق واسع ، يفسح مجالا أكثر أمانا لشرائط ألوف من اليهود كان منتظرا أن يتوجهوا فور انتهاء الحرب إلى الوطن الموعود من معسكرات مؤقتة أقيمت لهم فى أوروبا .



كانت الحركة الصهيونية قد اجتازت مرحلة صعبة من حياتها أعقبت وفاة "هيويد هيرتزل" فى يوليو سنة ١٩٠٤ .

وبعد وفاة "هيرتزل" اختارت اللجنة التنفيذية مجموعة صغيرة من أعضائها ، لإدارة شؤون الحركة الصهيونية حتى يتعقد مؤتمر صهيونى عام جديد يختار زعيما آخر . وكان أبرز أعضاء اللجنة المؤقتة "ناحوم سوكرولوف" ، رفيق "هيرتزل" وصديقه ونائده فى بعض الأحيان . وكان أهم ما واجه هذه اللجنة أن عرب فلسطين تنهبوا إلى خطوة المستعمرات اليهودية التى تظهر كل يوم فى أنحاء مختلفة من وطنهم . وكانت موانع إنشاء هذه المستعمرات تشق بغطاء أوسع : فهى أولا أعصب الأراضى فى فلسطين يتم شراؤها ، ثم هى ثانيا أهم المواقع الحاكمة على مفازل الطرق ، مما يشير إلى استعداد للعمل العسكرى إذا اقتضى الأمر . وبالفعل فإن الفترة ما بين ١٩٠٦ إلى ١٩١٤ (تسم الحرب العالمية الأولى) شهدت معارك دامية بين عرب ويهود سقط فيها قتلى وجرحى بالمئات فى معارك ساخنة وقع أحطرها فى منطقة الناصرة .

وكان من نتيجة وصول الأمر إلى درجة الاحتكام للسلاح أن المندوبين العرب في المجلس النيابي العثماني ، تقدموا في مارس ١٩١١ بمشروع قانون يطلب وقف الهجرة الصهيونية الجماعية في فلسطين . وقيل تفويج الحرب المالية مباشرة كانت صحاحات التحذير والإنذار تسمع في كل قرية ومدينة في الأرض المقدسة . وكتبت صحيفة "فلسطين" افتتاحية شهيرة كان أول سطر فيها يقول : "إن المستوطنين اليهود يزحفون على أرضنا ويصطبرون على بلادنا قرية بعد قرية ، وبلدة بعد أخرى" .

وخلال السنة الأولى من الحرب المالية الأولى فإن اللجنة التلغرافية للمؤتمر الصهيوني ، والمسئول عنها وقتئذ هو "ناحم سوكولوف" ، اهتمت أن أمامها مهمتين :

١ - إنشاء وإقامة معسكرات مؤقتة لليهود النازحين من الشرق ومن البلقان في أوروبا الغربية ، وترتيب أمورهم هناك حتى يمكن نقلهم بعد أن تخف المارك إلى فلسطين .

٢ - إن اللجنة التلغرافية ينبغي أن تتلهم فرصة الحرب وإعادة رسم خريطة المنطقة من جديد بكتفي اتفاقية "سايكس - بيكو" ، لكي تطالب بما تعتبره حقها في فلسطين وتحصل عليه في مئاع أصبح ملائما .



قبل الحرب وأثناء الحرب وبعد الحرب ، كانت السياسة البريطانية تعرف ما تريد ، تفكر فيه وتناقش احتمالاته ، وتتردد مرة ثم تعزم أمرها وتتصرف . كانت التصورات القديمة لا تزال سارية . هل إن عملية تجديد طرأت عليها بتوصية تقدم بها رئيس الوزراء البريطاني "كاميل بازمان" في الفترة السابقة على الحرب مباشرة ، وجاء فيها بالنص : "إن إقامة حاجز بشري قوي وشرعب على الجسر الذي يربط أوروبا بالعالم القديم ، ويربطهما ما بالبحر الأبيض والبحر الأحمر هو مطلب يجب أن يكون هاديا لنا باستمرار . ويطعن علينا أن نضع في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة معادية لأهل البلاد وصديقة للدول الأوروبية وعارفة لمصالحها . ومن المحتمل أن نجد الوسيلة العملية لتنفيذ هذا المطلب" .

ولم يكن ذلك يعني بهذا آخر غير إنشاء دولة يهودية في فلسطين .

وأثناء الحرب طلبت الحكومة البريطانية سنة ١٩١٥ من النهر "هربرت صمويل" ، أن يشرح تصورا لما ينبغي أن يكون عليه أمر فلسطين بعد النصر . وكتب "هربرت صمويل" ،

بوصفه عضواً في وزارة الحرب - إلى جانب كونه يهودياً وصهيونياً أيضاً - مذكورة بعنوان "مستقبل فلسطين" تاريخها ٥ فبراير ١٩١٥ ، توصل فيها إلى نتيجتين :

١ - إنه مهما يكن من شأن أية اتصالات مع فرنسا ، فإن فلسطين يجب أن تخرج من هذه الاتفاقيات ، لأن سيطرة دولة أوروبية عظمى على موقع قريب من قناة السويس إلى هذه الدرجة يشكل تهديداً مستمراً ومخيفاً لخطوط المواصلات الإمبراطورية (البريطانية) . إن الحزام الصحراوي الذي تمثلته سيناء استطاع أن يؤدي دوره كحاجز إستراتيجي كاف ضد الأتراك، لكنه ليس كافياً للصدود أمام حملة عسكرية تقوم بها دولة أوروبية قوية . "ولا نستطيع أن نفترض أن علاقاتنا الطيبة مع فرنسا سوف تستمر كذلك طوال الوقت ."

٢ - إن الحل الذي يوفر أكبر فرصة للنجاح ولضمان المصالح البريطانية ، هو إقامة اتحاد يهودي كبير تحت السيادة البريطانية في فلسطين . إن فلسطين يجب أن توضع بعد الحرب تحت السيطرة البريطانية ، ويستطيع الحكم البريطاني فيها أن يعطي تسهيلات للمنظمات اليهودية في شراء الأراضي وإقامة المستعمرات وتنظيم الهجرة والمساعدة على التطور الاقتصادي بحيث يتمكن اليهود من أن يصبحوا أكثرية في البلاد . "هذا مع ملاحظة أن هناك عقلاً واسع الانتشار وصحيح الجذور في العالم البروتستانتي لفكرة إعادة الشعب المبرالي إلى الأرض التي أعطتها له التيومبات القديمة ."



ولم يكن المؤتمر الصهيوني ولجنته التنفيذية ، ولا يهود أوروبا بكل نفوذهم في عواصمها - وبخاصة لندن - يتكثرون في هذه الفرصة .

وهكذا عاد إلى المسرح لحظتها السير "مارك سايكس" موظفاً كل ما تعلمه من "دنزيلي" ، وحاملاً كل ما حصله من تأثير نفوذ عائلة "روتشيلد" ، وممزقاً بنجاحه في ترتيب الأمور مع فرنسا باتفاقية "سايكس - بيكو" .

ويكتب "تايكوم سوكولوف" وهو وقتئذ المسئول الأول في اللجنة التنفيذية للمؤتمر الصهيوني بعد وفاة "هيرتزل" ما نصه :

"إنه من واجبي أن أوجه تحية خاصة إلى السير مارك سايكس . لقد كان هو الروح الملهمة والحركة في توجيه عملنا تلك الفترة الدقيقة والحساسة . إن سايكس أصبح الرجل الذي يتولى في واقع الأمر معظم أمورنا ، ويقوم بالتنسيق بين وزارة المستعمرات ووزارة الحرب والقيادة العليا ووزارة الخارجية واللجنة التنفيذية للمؤتمر الصهيوني .

لقد سألني سايكس في أول لقاء بهيئتنا :
— هل أنت المسئول عن الحركة الصهيونية ؟
ورددت عليه قائلا :

— نعم ... وموقف فذبح إذا ساعدتنا .

ورد علي بذخيرة قاطعة وحاسمة :

— حسنا . هذه مسئوليتي !

وأحسست بجرعة قوية من الاطمئنان .

وبواصل "سوكولوف" شهادته فيكتب :

"كما نعتبر أن هذه الحرب هي التي ستعطينا بعد النصر وطننا اليهودي في فلسطين . وفي الفترة الحاسمة من عملنا كان سارك سايكس هو الذي يقوم بكل الاتصالات ، وينسق كل الجهود من أجل تعهد واضح من الحلفاء بعد النصر بأن يعطونا الفرصة والحق في إنشاء وطننا اليهودي في فلسطين . إن سايكس لم يتم بهذه المهام في لندن وحدها ، ولكنه أخذ على عاتقه أن يمهّد لنا الطريق في باريس مع الحكومة الفرنسية ، وفي روما مع الحكومة الإيطالية ومع الفاتيكان .

إن سايكس في هذه الفترة لم يكن يسمح لنفسه بفرصة للراحة أو للنوم . فقد كان يعمل بلا كلل وقد جعل من الصهيونية جزءا أساسيا من حياته . وهو لم يتم بهجته فقط مع الدول ، وإنما مهد لنا أيضا مع الرأي العام الإنجليزي . فقد كان هو الذي رتب للمكتور حاييم وايزمان فرصة أن يلتقي بأهم صحفي في إنجلترا ، وهو س. ب. سكوت رئيس تحرير جريدة "المانشستر جازيتيان" . وإن أنسى له أبدا أنه صحبني معه حينما كان برفقة رئيس الوزراء لويد جورج والأميرال جيليكو القائد العام للأساطيل البريطانية ، وفي هذه المقابلة أتاحت لي الفرصة لأن أتحدث إلى رئيس الوزراء الذي قال لي "إن هذه الحرب سوف تكون بلا فائدة إذا لم نستطع أن نعطي للشعوب حقها في تقرير مصيرها ، بمن في ذلك اليهود في فلسطين" .

ملف

" سوف تحدث في المستقبل محاولة مصرية
لاعتراض حقنا في قناة السويس "

(مذكرة مرفوعة لرئيس وزراء بريطانيا سنة ١٩٢١)

كانت تلك هي الظروف التي صدر فيها "عهد بالقور" الشهير موجهاً من وزير
الخارجية البريطاني اللورد "آرثر بالفور" إلى زعيم اليهود الإنجليز وراعي للمنظمة الصهيونية
اللورد "جيمس روتشيلد" . كان نص العهد بسيطاً واضحاً وقاطعاً ، وكان على
النحو التالي:

"وزارة الخارجية - ٧ نوفمبر ١٩١٧

عزيزي اللورد روتشيلد

إنه من دواعي سروري الكبير أن أنقل إليكم باسم حكومة صاحب الجلالة
الإعلان التالي عن التصالح مع الأماني اليهودية والصهيونية الذي تم عرضه
وإقراره بواسطة مجلس الوزراء ونصه كما يلي :

إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بالمعجب إلى إنشاء وطن قومي للشعب
اليهودي في فلسطين . وسوف تبذل قصارى جهدها لتسهيل تحقيق هذا الهدف .
ومن المفهوم أن هذا الإعلان لا يمثل تحيزاً ضد الحقوق الممنوحة والخدمة لطوائف غير
يهودية موجودة في فلسطين . كما أنه لا يؤثر على الأوضاع القانونية أو السياسية

التي يتمتع بها اليهود في البلاد الأخرى . وسأكون شاكراً لكم إذا تفضلتم وأبلغتم هذا الإعلان لعلم الاتحاد الصهيوني .

المخلص

آرثر بلفور

وربما أن أهم ما يمكن ملاحظته في الظروف المتصلة بصندور "وعد بلفور" ، هو ما تقول به وثيقة بريطانية تحوى محضراً لجلسة مجلس الوزراء بتاريخ ٣ سبتمبر ١٩١٧ (أثناء مناقشات صندور "وعد بلفور" وفي التصديق لإعلانه) ، وقد ورد في محضر الجلسة أن وزير الحرية "هيرل ديري" أبلغ المجلس أن "ولندا يهودياً على مستوى عال يمثل المؤتمر الصهيوني توجه لمقابته وعرض عليه رغبة يهود السالم في مشاركة الحلفاء في تصفية السدم ، وذلك بتشكيل قوة من اليهود يطلق عليها اسم "الفيلق اليهودي" حتى تحارب في صفوف الحلفاء ، ومن ثم يكون لهم دور في تحقيق النصر ."

ومن الملاحظات أن الصوت الوحيد الذي ارتفع في مجلس الوزراء لمعارضة الاقتراح كان صوت اللورد "مونتاجو" وزير شؤون الهند (وهو يهودي أيضاً) ، وقد بنى معارضة على أساس أن هناك أربعين ألف يهودي يحاربون في صفوف الجيش البريطاني ، وأنه ليس من العدل تحوهم ولحو سمعتهم تميز لواء واحد وتسميته باسم "الفيلق اليهودي" .

وشاخ صوت اللورد "مونتاجو" هباء . وأقر المجلس مشروع تكوين فيلق يهودي يشارك في الحرب المالية الأولى وتكون منه قوة عسكرية يهودية مستعدة للمستقبل جاهزة له .



وبعد انتهاء الحرب ، وأثناء إعداد وثائق مؤتمر السلام في "فرساي" ، أصبحت الحركة الصهيونية على ضرورة أن يحتوى قرار المؤتمر بانتداب بريطانيا على فلسطين إشارة واضحة في مقدمته لـ "وعد بلفور" ، تاکیدا اضافیاً بأن المهمة الرئيسية للانتداب البريطاني هي العمل على إنشاء الوطن القومي لليهود في فلسطين .

وكان ذلك كله يرتب ويدبر في شعبة مصر وفي انشغالها بثورة سنة ١٩١٩ ، التي كان مطلبها الرئيسي جلاء القوات البريطانية عن مصر وإعلان استقلالها .

واللافت للنظر أن كل ما يتصل بفلسطين كان لا يزال مؤثرا أساسيا على مصر سواء عرف قانتها أو غابت عنهم معرفته .

كان اللورد "اللتبي" قائد الجيوش البريطانية - التي شرت فلسطين وأخرجت الأكراد منها - قد عين متهما بريطانيا في مصر . وكانت الأوضاع الاستراتيجية العامة في المنطقة تشغله ، وقد عقد عدة اجتماعات لمناقشتها ، وانتهت المناقشات إلى توصيات محددة جرت صياغتها في مذكرة بتوقيع الكولونيل "ريتشارد ماينرتزهاجن" مدير العمليات في الشرق الأوسط ، وقام "اللتبي" بتحويل المذكرة إلى رئيس الوزراء البريطاني "لورد جورج" .

كان نص المذكرة كما يلي بالنص :

" عزيزي رئيس الوزراء

طلب مني الماريغال اللتبي أن أرسل اليكم مذكرة غير رسمية عن السيادة على سيناء . وهو موضوع له أهمية خاصة لا بالنسبة إلى الظروف الراهنة فحسب ، بل بالنسبة إلى السنوات القادمة أيضا . وإسبحوا لي بتناول هذا البحث براسم : إننا نسير بحكمة زائدة ، مستهدفين السماح لليهود بإنهاء وطنهم القومي في فلسطين ، فقد حرروا العرب من النير التركي ، وإن نستطيع البقاء في مصر إلى الأبد ، وقد تمخض مؤتمر الصلح عن ولدين ، القومية اليهودية والقومية العربية ، وهذان بينهما : فالأول يمثل الصهيونية ونشاطه ، على حين يمثل الثاني بكسله وعموله للكتسبون من الصحراء .

يضاف إلى ذلك أن اليهود بالرغم من تفتتهم يمتازون بولائهم وولاء شعورهم وعلمهم ... كما أنهم قدموا لبريطانيا أحد رؤساء حكوماتها المتنازعين ("نيرازيلي") ، وسيلتصق العرب واليهود من الآن إلى خمسين سنة بقوميتهم ، وسوف يزدهر الوطن القومي اليهودي إن عاجلا أو آجلا ويصل إلى مرحلة السيادة ، وإنني أفهم أن بعض أعضاء حكومة جلالتهم يمتازون إلى هذه المرحلة .

وكذلك ستتطور القومية العربية إلى مرحلة المناذاة بالسيادة من المحيط إلى الخليج ١- . وما لا شك فيه أن السائدتين العربية واليهودية ستمتدنان . وإذا قدر لخروج الهجرة اليهودية إلى فلسطين أن ينجح ، فإن الصهيونية ستتوسع على حساب العرب دون سواهم . وسيهدد العرب قساري جهودهم للقضاء على قوة وعظمة فلسطين اليهودية ، وهذا يعني سفك الدماء .

وبريطانيا لتحكم الآن في الشرق الأوسط ، ونحن لا نستطيع أن نكون أصدقاء للعرب واليهود في آن واحد ، وإنني أقترح منح الصداقة البريطانية لليهود وحدهم باعتبار أنهم الشعب الذي سيكون صديقا الخالص الموالي في المستقبل . إن اليهود

مدينون لنا كثيرا ، وهم يحفظون لنا هذا الجميل ... وسيكونون ثروة لنا ، بعكس العرب الذين سيكونون سلبيين معنا برغم خدمتنا لهم .

وسوف تكون قلمسطين حجر الزاوية في الشرق الأوسط ، فهناك تحدها الصحراء من جهة يحددها البحر من جهة أخرى ، ولها ميثاء طبيعي ممتاز (حيثا) ، وهو أحسن ميثاء على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، ثم إن اليهود يرهقوا على كفايتهم الحربية منذ احتل الرومان البلاد ، على حين ممتاز العربي بقوته في الحرب ، وحبه للسلب والتدمير والقتل .

والآن دعني أتكلم من فلسطين بالنسبة إلى مصر : ففي حالة تطور السلاح من طائرات ودبابات ، سيكون الفصل في المعركة للسلاح الأحدث ، وللشجاعة وقوة الأصحاب والصبر ، ولذلك فإنني أرى في مصر العدو المصلح لليهود . ويتطور القوميتين العربية واليهودية إلى مرحلة السيادة ، وبخسارتنا لقناة السويس في سنة ١٩٦٨ : أي بعد ٤٧ سنة ، فإن بريطانيا ستخسر مراكزها في الشرق الأوسط . ولتقوية هذه المراكز ، أقترح ضم سيناء إلى فلسطين . فقبل سنة ١٩٠٦ كان الحد التركي المصري ممثدا من رفح في الشمال إلى قرب القنطرة . وكان طرفي سيناء وجنوبها قسما من الحجاز الخاضع للعثمانيين . وفي أكتوبر سنة ١٩٠٦ منحت مصر حق إدارة سيناء حتى الخط الممتد من رفح إلى رأس خليج العقبة . أما ملكيتها فهبت لتركيا . وقد احتلتها القوات المصرية بجيشه البريطاني دون مساعدة الجيش المصري ، فأصبح مصيرها منوطا بقرار من الحكومة البريطانية المحتلة ... وفي حالة ضم سيناء إليها ، فإننا نربح حدا فاصلا بين مصر وفلسطين ، ونؤكد لبريطانيا مركزا قويا في الشرق الأوسط ، مع اتصال سهل بالبحرين المتوسط والأحمر ، وقاعدة استراتيجية واسعة النطاق مع ميثاء حيثما المعتاز الذي نستعمله بموافقة اليهود .

ومن حسنات هذا الخضم أنه سيحيي أية محاولة مصرية لاختلال القناة في وجه ملاحتنا ، كما سيمكننا من حفر قناة تربط بين البحرين المتوسط والأحمر ، ثم إن ضم سيناء لن يضر أية قضية قومية هنا ، إذ إن البندو الرحل القيمين فيها لا يتجاوزون بضعة آلاف .

امضاء

مايترزهاجن *

ويصرف النظر عن الأوصاف والتموت ، مدحا في اليهود أو فدحا في العرب ، فإن مذكرة الكولونيل "مايترزهاجن" تبدو وكأنها تصور مستقبل أكثر منها مذكرة مكتوبة لرئيس وزراء بريطانيا سنة ١٩٢١ .

.....

.....

ولم يكن هناك اتصال أو تفاوض مع أهل المنطقة ، لا في فلسطين التي كانت أبوابها
على وشك أن تفتح إلى مصارعها ، ولا في مصر التي كانت منفلحة إلى الشرق معلقة في
الهواء مرهونة بالأهواء !

فهرس

" يجب أن تتخذ الإجراءات الكفيلة
بتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين
والحد منها " .
(اتفاق "بيلسان")

كانت الأمة العربية لا تزال تعتقد أنها شاركت في ثورة عربية كبرى ، وأنها
اختارت بمفكرتها الحرة شريف مكة وأبنائه لكي يتولوا قيادتها . وهكذا فإن إعلان
"عهد بلفور" بعد اتفاقية "سايكس - بيكو"، جاء ضربة صاعقة لهؤلاء الذين ظنوا أن
الحرب العالمية الأولى وسقوط الدولة العثمانية سوف يستتبعهما بالضرورة قيام دولة عربية
جديدة تشمل الشام كله والمراق والحجاز .

وكان أول رد فعل للأمة هو أنها راحت تتلفت بمخاض يختلط فيها القلق والأمل صوب
الأمرء الهاشميين، تتنظر ربحهم على الصدمة وتتوقع منهم حلولاً لمخاضات الأمور وهواقبها.
ومن الحق أن ذلك كان فيه تحميل للأمرء بأكثر مما تحتمل ، ذلك أن الخططات
الدولية كانت أقوى من علم ومن طاقة الأمرء ، ثم إن هؤلاء الأمرء كانوا بفرضاً يعتريهم ما
يعتري البشر من أسباب للضعف والتصور .

وقد وجدت الحكومة البريطانية على أي حال أنه من المفروض عليها أن تتصل بالأمرء
لكي تفرح لهم أسبابها فيما يتعلق بالاتفاقية "سايكس - بيكو" (وقد أديمت توصيها سنة
١٩١٧) - وتوافق ذلك بالضبط مع صدور "عهد بلفور" . فقد ذهب الكوماندنر "هوجارت"
(ممثلًا لمكتب القاهرة) لمقابلته الشريف "حسين" في جدة بملف رسالة تختص

بمضروع "سايسكس - بيكو" وبـ "وعد بلفور" ، وكتب الكوماندنر "هوجارت" تقريراً عن
المقابلة قال فيه :

.. "فيما يتعلق بـ "سايسكس - بيكو" ، قال الشريف "حسين" إنه إذا كان هناك
تعديل ثانوي في الخطط الأصلية تفرضه ظروفات الحرب ، فهو مستعد لأن يمتدح
بمثل هذه الضرورة بصراحة. ولكنه طلب أن نبلغه بمثل هذه الصراحة تفاصيل
التعديلات المطلوبة والظروف التي تقتضيها . ثم أثار الشريف "حسين" مطالب
فرنسا في سوريا ، ورد عليه الكوماندنر "هوجارت" قائلاً :

"إن فرنسا صارت ترى الأمور بميوناها (يقصد هيون الإنجليز) فيما يتعلق
بسوريا ، وكل ما تريده فرنسا هو أن تحمي وتساعد على استقلال سوريا" .
وبدا أن الشريف "حسين" كان مقتنعاً .

.. وفيما يتعلق بـ "وعد بلفور" فإن الكوماندنر "هوجارت" راح يشرح للشريف
"حسين" تفاصيل طويلة عن نمو الحركة الصهيونية خلال الحرب ، وعظم أهمية
المصالح اليهودية والثقل اليهودي ، وأنه من المفيد التعاون معهم (يقصد اليهود
ومصالحهم ونفوذهم) .

.. كان رد الشريف "حسين" يفيد باستعداده لقبول صيغة "وعد بلفور" .

وروى الكوماندنر "هوجارت" في تقريره لوزارة الحرب في لندن "إن الشريف
والقي حفاصة قائلاً إنه يرحب باليهود في كل البلاد العربية" .

● وجه الدور على الأمير "فaisal" وألقمه مستشاره الكابتن "لورانس" بمقعد اجتماع
مع "حاييم وايزمان" في العقبة . ثم رتب بعد ذلك لقاء بينهما في لندن تمهيداً لمؤتمر
الصلح في "فرساي" ، وهناك في الأسبوع الأول من شهر يناير ١٩١٩ تم توقيع اتفاق
مكتوب بين الاثنين أورد المورخ الكبير "جورج أنطونيوس" في كتابه المرجعي "نقطة
العرب" (The Arab Awakening) على النحو التالي :

"إن صاحب السمو الملكي الأمير فيصل ممثل المملكة العربية الحجازية والقائم
بالعمل نيابة عنها ، والكتور حاييم وايزمان ممثل المنظمة الصهيونية والقائم
بالعمل نيابة عنها ، يدركان القرابة في الجنس والصلات القديمة القائمة بين
العرب والشعب اليهودي . وهما متأكدان أن أهم الوسائل لبلوغ غاية أهدافهما
الوطنية هو في الأخذ بالأيدي ما يمكن من أسباب التعاون في سبيل تقدم الدولة
العربية وتقدم قنطين (١) ، ولكونهما يربطان في زيادة توطيد حسن التفاهم الذي
يقوم بينهما فقد اتفقا على المواد التالية :

١ - يجب أن يسود جميع علاقات والتزامات الدولة العربية وفلسطين (١) أقصى درجة من النوايا الحسنة والتفاهم للخص ، وللوصول إلى هذه الغاية تؤسس وتقوم وكالات عربية ويهودية معتمدة حسب الأصول في بلد كل منهما (٢) .

٢ - تحدد بعد إتمام مشاورات مؤتمر السلام مباحرة الحدود النهائية بين الدولة العربية وبين فلسطين من قبل لجنة يتلقى على تعيينها من قبل الطرفين المتعاقدين .

٣ - عند وضع دستور لإنارة شؤون فلسطين تتخذ جميع الإجراءات التي من شأنها تقديم أولى الضمانات لتنفيذ وقد الحكومة البريطانية المؤرخ في اليوم الثاني من شهر نوفمبر ١٩١٧ "وعد بلفور" (١)

٤ - يجب أن تتخذ جميع الإجراءات لتسهيل الهجرة اليهودية إلى فلسطين على مدى واسع والحد منها وبأقصى ما يمكن من السرعة لاستقرار المهاجرين في الأرض عن طريق الإسكان الواسع والزراعة الكثيفة . ولدى اتخاذ مثل هذه الإجراءات تحفظ حقوق الفلاحين والمزارعين والمستأجرين العرب ويجب مساعدتهم في سهرهم نحو التقدم الاقتصادي .

٥ - يجب ألا يسن نظام أو قانون يمنع أو يتدخل بأي طريقة في ممارسة الحرية الدينية

٦ - إن الأماكن الإسلامية المقدسة يجب أن توضع تحت رقابة المسلمين .

٧ - تقترح المنظمة الصهيونية المالية أن ترسل إلى فلسطين لجنة من الخبراء لتقوم بدراسة الإمكانيات الاقتصادية في البلاد، وأن تقدم تقريراً عن أحسن الوسائل للذهوض بها . وستضع المنظمة الصهيونية اللجنة المذكورة تحت تصرف الدولة العربية بقصد دراسة الإمكانيات الاقتصادية في الدولة العربية ، وأن تقدم تقريراً عن أحسن الوسائل للذهوض بها . وسوف تستخدم المنظمة الصهيونية المالية أقصى جهودها لمساعدة الدول العربية بتزويدها بالوسائل لاستثمار الموارد الطبيعية والإمكانيات الاقتصادية في البلاد .

٨ - يوافق الفريقان المتعاقدان أن يعملوا بالاتفاق والتفاهم الكاملين في جميع الأمور التي همتها هذه الاتفاقية لدى مؤتمر الصلح .

٩ - كل نزاع قد يثار بين الفريقين المتنازعين يجب أن يحال إلى الحكومة البريطانية للحكم .

فصل - وإيمان "

كانت نصوص الاتفاق حقل ألغام يكمله :

ف "وايزمان" وضع نفسه طرفاً مؤزناً لـ "فيسل" على قدم المساواة ، أحدهما عن الدولة العربية والآخر عن الشعب اليهودي . والكلام عن الدولة العربية يجعلها شيئاً وفلسطين شيئاً آخر . وهناك حدود نهائية بين الطرفين من قبل لجنة يتفق عليها الطرفان . والاعتراف بـ "وعد بلفور" صريح . وكذلك بحق اليهود في الهجرة . ثم إن الحكومة البريطانية هي الحكم بين الطرفين في حالة نزاع يطرأ بين الفريقين ، إلخ ... إلخ ...

ويبدو أن بعض مستشاري "فيسل" العرب كانوا يستهلون النصوص التي تنتظر توقيع أميرهم ، ولذلك فإن "فيسل" حين جلس لوقيع الاتفاقية أضاف إليها تحفظاً يخط يسهه قال فيه بالحرف :

"يجب على أن أوافق على المواد المذكورة أصلاً شرط أن يحصل العرب على استقلالهم . ولكن إذا وقع تمثيل أو تحويل في مطالبهم فيجب ألا أكون عندها متعبدا بأي كلمة وريت في هذه الاتفاقية التي يجب اعتبارها ملغاة لا شأن ولا قيمة قانونية لها ، ويجب ألا أكون مسئولاً بأية طريقة مهما كانت .

فيسل "

ولم تكن هناك جدوى عملية لهذا التحفظ ، لأن الأمير "فيسل" في هذه الوثيقة اعترف في واقع الأمر بفلسطين دولة لليهود ، وقيل كل ما من شأنه التمهيد لإقامة هذه الدولة.

• بقي من بين الأمراء الهاشميين الشريف "عبد الله" وكان مروراً مما بدا له من أن السياسة البريطانية تفصل "فيسل" عليه . وقد راح يتهم شقيقه بغيائته وخيائته والده والتعامل مع الدول والأطراف من وراء ظهرهما ، ويعتبر أن "لورانس" هو الذي جمعهم وحرفهم عليهما.



وكان المؤتمر الصهيوني المالي - تحت قيادة "حاييم وايزمان" - الآن يتحرك بطريقه مختلفة ، ويبدو ذلك جليا في خطاب ألكاه "وايزمان" نفسه في لندن بعد شهر قليل من اتفاقه مع الأمير "فيصل" . فقد قال في هذا الخطاب :

"إن الدولة اليهودية سوف تأتي . ولكنها لن تتحقق بالعودة والتصريحات السياسية ، بل بحرق الشعب اليهودي وبموهه . هذه هي الطريقة الوحيدة لبناء الدول . وأما وعد بلغور فهو مجرد مفتاح ، وقد يكون مفتاحا ذهبيا ، لكنه المفتاح الذي يفتح أبواب فلسطين ويمطينا الفرصة لبذل كل جهودنا هناك .

لقد سألتنا (يقصد الدول الكبرى) عما نريد ، فقلنا نريد خلق أوضاع في فلسطين من هائلا أن تسمح لنا عندما يندو ذلك البلد أن نصب فيه أعدانا ضخمة من المهاجرين اليهود حتى نستطيع أن نخلص في آخر الأمر مجتمعا يجعل فلسطين يهودية بمقدار ما إن إنجلترا إنجليزية وأمريكا أمريكية .

هل تصبح فلسطين دولة يهودية في المستقبل أم لا ؟ وعلى من سوف يتوقف هذا المستقبل ؟ وعلى من يتحدد مده ؟ قريبا أم بعيدا ؟

إنني أقول لكم إن ذلك يتوقف علينا نحن . إنه يتوقف إلى حد كبير على الدول الكبرى ، ولكن استجابة الدول الكبرى - ولا سيما بريطانيا - لنا سوف تتوقف على الضغط الذي نمارسه ، وهذا الضغط سوف يتوقف على قوة تنظيمنا وعلى امتلاء خزانة ، وعلى معرفتنا بما يتوجب علينا عمله لكسب تأييد الشعب إلى بلده ."

وكانت ثقة "وايزمان" في الحكومة البريطانية في محلها ، فإن هذه الحكومة - التي حصلت على سلطة الدولة للكتابة في فلسطين بقرار من مؤتمر "فرساي" أشار في ديباجته إلى "وعد بلغور" - لم تلبث أن عينت حاكما عاما لفلسطين هو بنفسه السير "هربرت صمويل" ، وهو الوزير اليهودي الصهيوني صاحب المكرة الشهيرة إلى مجلس الوزراء البريطاني ، والتي أوصت بأن الفرصة مناسبة في أعقاب الحرب للبدء في مباشرة إقامة الدولة اليهودية في فلسطين .

وأصبح "هربرت صمويل" حاكما عاما على فلسطين ومهمته طبعا لا تقتاده وطبا لـ "وعد بلغور" وهو سياسة حكومته : العمل على إنشاء الدولة اليهودية .

وراحت نيران "الثورة العربية الكبرى" تخبو ، ثم مضت صافيا تتقارب وتتعاقد ، ولم يعد لدى بريطانيا هي تقدمه للمغرب الذين قلصوا معها ومع الحلفاء في الحرب العالمية

الأولى . وفي الحقيقة فإنها لم تكن تعاملت مع الشعوب ولا ربطت نفسها بأى التزام تجاهها ، وإنما كان التزامها تجاه الأمراء الهاشميين . وقد أحست بضرورة تعويضهم ، وربما أحست أيضا أن تعويضهم قد ينشئ توازنات عائلية أو قبلية تساعد أكثر على تحقيق المصالح البريطانية . وهكذا فإن وزير المستعمرات البريطاني ، وهو وقتها "ونستون تشرشل" ، جاء إلى القاهرة وعقد فيها مؤتمرا لتوزيع بقايا الدولة العثمانية على الأمراء الهاشميين .

كان الشريف "حسين" لا يزال فى الحجاز يهكى خروج أبناؤه عليه وشروط كل واحد منهم إلى ما يحقق مصلحته الذاتية . فقد ذهب "فهمل" بمشورة "لورنس" إلى الشام ، ودخل دمشق آملا أن يؤسس فيها دولة عربية ، لكن الفرنسيين أخرجوه منها بملقضى حقهم وفق نصوص اتفاقية "سايكس - بيكو" . ثم إن الأمير "عبد الله" توجه هو الآخر شمالا يبحث عن فرصة ملائمة ، وقد وصل ركبه إلى مدينة عمان (فى شرق الأردن) وعسكر فيها ينتظر التطورات .

والآن جاء مؤتمر القاهرة برئاسة "تشرشل" وإذا هو يصدر القرار التالى :

" عقد وزير المستعمرات البريطانية المستر ونستون تشرشل مؤتمرا عاما لشرق الشرق الأوسط فى القاهرة فى الفترة ما بين ١٢ إلى ١٤ مارس ١٩٢١ . وقد شارك فى المؤتمر معه السير بهرسى كوكس (ممثل مكتب الهند) والسير هيربرت صوميل (الحاكم العام للمين للفلسطين). وشارك فيه من الخبراء كل من المهجور لورانس والمهجور كلايتون (من المخابرات العسكرية والسياسية) والمستر كورنواليس والأئمة جرتروود هيل (من مخابرات وزارة المستعمرات) . وأصدر المؤتمر لقراراً يقدم عرض المرافق إلى الأمير فهمل (ملك سوريا المخلوع) ..

وقراراً ثانئها يقدم إمارة شرق الأردن إلى الشريف عبد الله ، الابن الأكبر للشريف حسين ."

وكان الأمير "عبد الله" يعتبر نفسه مظلوما فى هذه القضية ، فأخوه الأصغر أخذ منه عرض العراق ، وأما هو الأخ الأكبر فلم تتفق له غير إمارة شرق الأردن ، وأمل بعيد برأوده بأن الظروف ، فى يوم من الأيام ، قد تمهد له الطريق إلى عرض فى سوريا . لكن أحلامه توجهت فى الوقت الراهن نحو فلسطين ، ولعله أحس - فى أعماقه - أن الحركة الصهيونية - الفاعلة والخطية فيها الآن - طرف رئيسى فى أقدار المنطقة . وهكذا راح يمد بصره واتصالاته عبر نهر الأردن ، ويفتح قنوات اتصالات سرية مع الوكالة اليهودية فى تل أبيب ، ويبحث بالرسائل متتالية إلى زعمائها يعرض عليهم أن يساعده لإنشاء مملكة موحدة

تضم فلسطين وشرق الأردن - شفتي النهر ، وفي مقابل ذلك فإنه يتعهد لهم بأن يعطى اليهود في هذه المملكة استقلالاً ذاتياً وضمانات للأمن تحقق مطالبهم .

وكان الوسيط الذي ينقل الرسائل الأمير إلى تل أبيب في ذلك الوقت هو "بنحاس روتنبرج" ، وهو صاحب شركة لتوليد الكهرباء تلج نفسها على نهر الأردن . لكن زعماء الوكالة اليهودية ردوا على الأمير بحرف مضاعف ، وهو أن يقوموا بالإشراف على تنمية ثروة الخاصة واستثمارها ، ويضمنوا له منها دخلاً وفيراً ، ثم يكون عليه في المقابل أن يساعدكم بتلؤده في تخفيف معاناة الفلسطينيين لخروجات الهجرة والاضطهاد .



لويس جـورج

" لك أن تأخذ القدس أيها ... هل هذا
يرضيك ؟ "

(رئيس وزراء فرنسا لرئيس وزراء بريطانيا)

كانت شعوب المشرق العربي في حالة يرثى لها :

● فالشعب السوري الذي كان حاضنة الثورة العربية الكبرى وجد آماله تخبب ، ثم
عادوه فيء من الأمل عندما نودي بالأمير " فيصل " ملكا على دمشق لأشهر معدودات ، ثم
جرى خلمه وإخراجه من سوريا لكي يدخلها الجيش الفرنسي لتنفيذاً لاتفاقية " سايكس -
بيكو " . ثم إن أربعة ألوية من الأرض السورية سلخت عنها وأعطيت لتكملة دولة لبنانية تقوم
تحت الانتداب الفرنسي هي الأخرى .

وقد تم خلع " فيصل " من عرش سوريا بعد مشهد مزعج آخر بدا وكأنه نوع من
استجواب متهم في محضر بوليس . والحقيقة أن المشهد جرى في وزارة الخارجية
الفرنسية - الـ " كي مورسه " - وقد ذهب إليه الأمير " فيصل " ليشكو من أنه منزع من
المثل أمام مؤتمر الصلح في " فرساي " لإبداء وجهة نظره .

وكان الذي التقاء في وزارة الخارجية هو المسيو " جان جويت " مساعد مدير شئون آسيا
في الوزارة . وجرى الحديث بينهما - طبقا لمذكرة بخط " لوران " قدمت إلى وزير الخارجية
البريطاني وأودعت سجلات الوزارة تحت رقم ٦٠٨/٩٧ ملف ٧ - ٤٤٥ - على النحو التالي :

فيصل : إنني لا أستطيع أن أفهم لماذا جرى استبدائي من قائمة الممثلين الذين
يحق لهم الكلام أمام مؤتمر الصلح ؟

جوت : هذه مسألة من السهل عليك أن تفهمها . لقد ضحكوا عليك . إن الإنجليز تغلبوا منك ، ولو أنك ولّفت معنا لكان في وسعنا ترتيب أمورك .

إنذا نمترب بوجوبك هذا كضيف كريم ، ولكن ضيف لا علاقة له بمؤتمر السلام ، والخطأ يقع عليك لأنك جلست إلى هذا دون أن تحصل على إذن "بيكو" ودون إخطاره .

كنت واقفا تحت دهبجة خاطلة . والنصائح التي أعطيت لك لا تفلحك .

فيصل : الجنرال اللنبي في دمشق أباننى أن الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية كليهما ، تمترفان بقواتي كطرف محارب .

جوت : هذه أكلوبة . نحن لا نعرف شيئا عن جيش عربي في سوريا .

فيصل : الجنرال اللنبي كان قائد جيوش الحلفاء ، وكانت قواتي تحت قيادته كان هو قائدنا الأعلى ، وقد قال لي في دمشق إنه يعتبرنا طرفا محاربا وقد صدقته .

جوت : هذه مشكلتك . وعليك أن تفهم أنك إذا أردت صداقة فرنسا فيجب أن تطرح ما تقول به نحن ."

.....
.....

● والشعب العراقي وجد نفسه يستبدل السيطرة التركية بالتدابير البريطانية يستلخه ما فكرة الدولة العربية الكبرى ، ولا يعطيه استقلالاً كان يطمح إليه بديلا عن الحلم الكبير . ثم استغل ذات يوم فإذا الاستعدادات تجري لإثفاء عرق في بغداد هدفه بالدرجة الأولى تمويه الملك "فيصل" عن كل ما قام به وعن كل ما انتهى إليه أمره بعد ضياع سره سوريا .

ولم يكن "فيصل" راضيا بالعراق بعد سوريا . وقد راح "لورانس" - طبقا لما كتب بنفسه في خطاب بخط يده إلى صديقه وزميله في المكتب العربي "جرينز" ، وقد أورد "جرينز" نصه في صفحة ٣١ من مذكراته في هذا الخطاب يحاول إقناعه بأن العراق أحد من سوريا فقال :

"إن العراق هو الذي سيصبح مركز حركة الاستقلال العربي وليس سوريا . وبمقدار ستصبح القاعدة وليس دمشق . إن تعداد سكان سوريا الآن خمسة ملايين ، وتعداد سكان العراق ثلاثة . لكنه في المستقبل لن يزيد عدد سكان سوريا عن سبعة ملايين ، في حين سيصل تعداد سكان العراق إلى ٤٠ مليوناً . إن ذلك سوف يتحقق خلال عشرين سنة لا أكثر ."

● والشعب في الحجاز يتابع ما يجري من تطورات متلاحقة ويجد نفسه متطرباً على صراع شيوخ . فقد بقي فيه الشريف "حسين" لبعض الوقت محصوراً وممروراً وسط نصائح تقدم إليه بأن يتنازل عن العرش لابنه الشريف "علي" ويكتفي هو بدور "أبو الملوك" ، لكن السلطان "عبد العزيز آل سعود" ما لبث أن وجد فرصته سانحة ، فإذا هو يزحف بجيوش الإخوان من نجد ويستولي على الحجاز لكي يعلن فيما بعد قيام المملكة العربية السعودية .

وفي مجمل الأحوال فإن مشهداً آخر من أشرب بمشاهد التاريخ العربي الحديث يكفى في حد ذاته الفرج وتصور الطريقة التي كانت تتقرر بها مصائر العرب .

إن رواية المشهد هو اللورد "هانكي" سكرتير مجلس الوزراء البريطاني ، وقد عاشه بنفسه أثناء حوار مباشر بين رئيس الوزراء البريطاني "لويد جورج" وبين رئيس الوزراء الفرنسي "جورج كليمنصو" .

ففي يوم أول ديسمبر ١٩١٩ وصل رئيس وزراء فرنسا ورئيس وزراء إيطاليا إلى لندن لمباحثات مع رئيس وزراء بريطانيا .

والثلاثي الأثلاث في مبنى السفارة الفرنسية ، وبينهما اللورد "هانكي" الذي جرى تكليفه رسمياً بوضع مذكرة عن حديثهما .

وفي البداية - كما ورد في مذكرة اللورد "هانكي" - كان رئيس الوزراء الفرنسي يشعر أن الحكومة البريطانية متساهلة من بعض تصرفات الرسميين الفرنسيين ، وهي تعتبر أنها أحياناً تجاوزت حدود الميعول إزاء الحليف الأكبر في الحرب وهو بريطانيا . وكان "كليمنصو" حرصاً على استرضاء رئيس الوزراء البريطاني لأنه ما زال يشعر بالحاجة إليه في التوبة النهائية وما يترتب عليها . وبدأ الحوار بين الاثنين ودار على النحو التالي على حسب ما سجله اللورد "هانكي" في مذكرته بالحرف (وثيقة مجلس الوزراء رقم ١٦٦/١٤ بتاريخ ١ ديسمبر ١٩١٩) :

"كليمنصو : إنني حزين ألا تكون هناك خلافات كبيرة بيننا ، فعلاً زالت أمامنا ظروف تقتضي لنا أن نستمر . إن تحالفنا نجح في تجربة الحرب ، وليس من المعقول أن يرسب في تجربة السلام .

ثم استنرد رئيس الوزراء الفرنسي يقول لزميله البريطاني :

"نحننا نسوى الأمور بينننا مباحرة ، وقل لى ما الذى تقترح أن نبحثه
معا الآن؟"

لويج جورج : دعنا نبحث مصير العراق وللمتلين .

كليمنمو : إذن قل بصراحة ماذا تريد ؟

لويج جورج : أريد الموصل . أنتم تطالبون بهذا الإقليم ونحن نعتبره تكملة
لجنوب العراق الذى أتلقنا على أن يكون من نصيبنا .

كليمنمو : حسنا . لك أن تأخذ الموصل . سوف نتركه لكم ... هل هناك شىء
أخر ؟

لويج جورج : نعم ... أريد القدس أيضا . إنكم تثيرون متاعب لنا ، وتطالبون
بالحق فى فلسطين باعتبارها جنوب سوريا .

كليمنمو : لك أن تأخذ القدس أيضا ... هل هذا يرضيك ؟

لويج جورج : هذا شىء طيب .

كليمنمو : إن بيشون (وزير خارجية فرنسا) سوف يظهر لى مشاكل بسبب
الموصل ، وأرجوك أن تعاضنى إزاءه .

لويج جورج : ماذا أستطيع أن أفعل لك ؟

كليمنمو : اتركوا لنا سوريا شمال فلسطين دون أن تثيروا المتاعب فى وجهنا .
أنا لا أمتنى المنطقة المسيحية فى لبنان فقط ، ولكن أريد سوريا الداخلى
أيضا : دمشق وحلب وحمص وحماء .

لويج جورج : ليست لنا مصالح حيوية فى هذه المناطق ولن نمارضكم عندما
تضمونها جميعا تحت حكم فرنسى موحد ! "

وانتهت المناقشة بين الرجلين لأن رئيس وزراء إيطاليا انضم إليهما فى صالون
السفارة الفرنسية .



ولم يكن الشعب العرسي في فلسطين مستعدا لما نزل عليه .

كانت أجود أراضيه تلزع من ملكيته بالبراء أو بالاختصاب . وكانت موجات الهجرة تتدفق على روح وطنه ومستعمراتها الاستيطانية تقسم وتتوسع كل يوم . وكان ذلك يتم بأساليب وسياسات امتزج فيها العنف بالخدعة ، والاختصاب بالرشوة ، بينما السلطة البريطانية القائمة بالانتداب تنفذ سياسة مرسومة لا تحيد عنها لأى سبب أو اعتبار .

وفي الواقع فإن ما كان يجرى في فلسطين تلك الأيام كان نموذجا كلاسيكيا للصدام بين مثليتين : عقلية الغرب والنظم والنصم ، وعقلية الشرق الفخري والمستضعف .

وكانت عرائش الامتراحام هي الأسلوب الذى طرح نفسه في ذلك الوقت موجهة إلى عصبة الأمم ، أو إلى الحكومة البريطانية ، أو إلى الحاكم العام البريطانى . وكان ذلك يتناسى أن هؤلاء جميعا مسئولون ومكلفون عن مهمة معينة هي تنفيذ "وعد بلفور" .

ولعله مما يثير الأسى أن يقوم أحد الآن بدراسة مشغون العرائش التى كانت تقدم سواء إلى عصبة الأمم أو إلى الحكومة البريطانية أو إلى الحاكم العام البريطانى في فلسطين من كل سكانها مسلمين كانوا أو مسيحيين .

ومن عرائش المسلمين مثلا فقد كانت العرائش العربية تشكو بالدرجة الأولى من :

- "إن المهاجرين اليهود متاثرون بالمبادئ البولشفية ، فهم فى معظمهم لائتمون من روسيا ، ولا هم لهم إلا الترويج للكر الشيوعى ، وهم يخطون تعاليمه فى مستوطناتهم" (الكيبوتز) .

- "إن المهاجرين اليهود متعجرفون ويتعاملون مع السكان العرب باستعلاء وقسوة" .

- "إن المستوطنين اليهود يتصرفون بطريقة إباحية ، ويخرج الشبان والشابات منهم إلى الفوارع بملابس "خارجة عن النألة" متأبطون بعضهم بعضا نراعا بخراخ ، ينهضون الأغاني ويسكنون مسكنا مخالفا "لنأيد التأديب والاحمة" .

- "إن الحياة فى مستعمرات المستوطنين اليهود تنسم بإباحية سافرة "يندى لها الجبين" .

ومن عرائش المسيحيين مثلا تجسء عريضة مقدمة إلى الجنرال "واتسون" الحاكم العام في فلسطين يرد فيها ما نصه :

"إننا قوم مطعون لولى الأمر ، ومصلحتنا لا تمتزج مع حكومة غير الحكومة البريطانية . ونحن أئذنا الأهل بأن حكومة بريطانيا العظمى هي أفضل حكومة تنظر في عمران بلدنا وترقيته . ونحن نرى للزايما التي حصل عليها اليهود .. ونأسف كلية لأحوالنا ، ونبكي لحرماننا من مثلها ، خصوصا ونحن لسوم طائعون ومحبون لن تولى أمرنا ."



وفي مرحلة لاحقة ، مع أوائل الثلاثينات ، أدرك الفلسطينيون أن هرائش الاسترحام لا تكفي فاندثروا ما سعى ولحقها بالمجلس الفلسطيني الأعلى لمواجهة المجلس الصهيوني العالي . لكن محاضر اجتماعات اللجنة التنفيذية العليا لهذا المجلس لسنة ١٩٣٣ لا تشير إلى أن المجلس الفلسطيني الأعلى عثر بعد على صيغة ملائمة للمقاومة ما يجرى على أرض فلسطين . وفي محاضر هذه اللجنة التنفيذية لسنة ١٩٣٣ ما يشير إلى بحث يجرى حول قيام بعض الأغنياء العرب - وبينهم لبنانيون وسوريون وفلسطينيون - ببيع أراضيهم للوكالة اليهودية في فلسطين . ويسجل أحد المحاضر مناقشات دارت على النحو التالي :

"السيد جمال الحسيني : علمت أن هؤلاء من أعضاء اللجنة التنفيذية موجود بيننا الآن قابل المندوب السامي البريطاني ليجتج على بيع الأراضي لليهود . ورد عليه المندوب السامي قائلا : "إن هناك رجلا يمثلونكم يبيعون أراضيهم لليهود ، فلماذا تchetti عني أنا ؟"

السيد عوني عبد الهادي : هذه الواقعة حدثت معي ، ولقت للمندوب السامي "أعطونا المال واطمنوا لنا موافقة الحكومة الفرنسية ونحن نخشع كل أراضي باريس".

ورد على المندوب السامي بقوله "إن الفلاحين ليسوا هم الذين يبيعون الأراضي ، وإنما الذين يبيعونها هم الأثرياء".

الشيخ صبري هابدين : ألتج إخراج من يبيع أرضه لليهود من حظيرة الدين الإسلامي ، وأنا مستعد لأن أثبت هرعيا أن من يبيع أرضه لليهود يحرم من حق الدين في مقابر المسلمين ومن الصلاة عليه عندما يتوفى .

السيد عبد الطيف صلاح : أنا متحمس لهذا الاقتراح ، وأهدف إليه أن نعلن في المسجد في فلسطين وفي كل بلاد الإسلام ظلم بريطانيا لنا ، والدعاء على الظالمين بأن يبتليهم الله بقتالين أشد منهم ، ثم نطلب بعد ذلك من المسيحيين في البلاد المسيحية أن يقوموا بمثل ذلك في الكنائس . وأنا ضامن أن حكومة الانتداب سوف تغير رأيها بعد ذلك ."



ومع مجيء سنة ١٩٣٦ كان الشعب الفلسطيني قد بدأ يقترب من حقائق العصر ، فبدأ نيران الثورة تندلع في فلسطين تحت قيادة مفتي القدس الحاج "أمين الحسيني" .

كانت الشرارة التي أشعلت نيران الثورة هي مقتل فلسطيني قرب مستعمرة "بناح تكفا" يوم ١٦ أبريل ١٩٣٦ . وعلى الفور جرى تأليف لجان وطنية للمقاومة ، وندت كل الأحزاب الفلسطينية إلى تنظيم إضراب عام . ثم تم تشكيل لجنة عربية عليها للمقاومة أسندت رئاستها إلى الحاج "أمين الحسيني" مفتي القدس . ولم يقتصر الأمر على الإضراب ، وإنما ظهرت عمليات مسلحة للمقاومة قادها الشيخ "عز الدين القسام" الذي استشهد في معارك الثورة .

كانت الثورة مفاجأة قاسية للسلطة البريطانية في فلسطين ، وكانت كذلك مفاجأة لحركة الاستيطان الصهيوني فيها . ورغم تميزات عسكرية حاصدة أثبت بها السلطات البريطانية من مصر ومن مالطا فإن نيران الثورة كانت تتفكر كل يوم ولا تنحصر .

وقررت الحكومة البريطانية أن تبحث لجنة تحقيق تتقصى أسباب الثورة . وجاءت اللجنة برئاسة اللورد "بيل" وأصدرت توصية بتقسيم فلسطين إلى دولة يهودية ، ودولة عربية يتم دمجها مع شرق الأردن ، على أن يظل الانتداب البريطاني قائما عبر الضفتين . ورفضت قيادة الثورة الفلسطينية الاقتراح بالتقسيم ، وطالبت بإنشاء دولة فلسطينية واحدة مستقلة توفر الحماية والحقوق المروعة لليهود وغيرهم من الأقليات .

واستمرت الثورة تهمز فلسطين لثلاث سنوات كاملة ، وقدم الشعب الفلسطيني خمسة آلاف شهيد في معاركها .

(٣) قاسم الكتائب التي تحمل اسمه الآن معظم أوصال المقاومة الإسلامية في قطاع غزة عند الاحتلال الإسرائيلي في الملف الأول من المصحفاته أثناء وتلاحق الانتفاضة .

وكان مما يلفت النظر في وقائع الدورة أن ثلاثة من ملوك العرب وأمراءهم ، وهم ملك السعودية وملك العراق وأسير شرق الأردن ، تدخلوا في مسارها لتوجيه نداء إلى اللجنة العربية العليا لتوقف الإضراب العام حتى تمتص للحكومة البريطانية فرصة لإعادة تهييم الأمور . واستجابت اللجنة العربية العليا للنداء ، وأوقفت الإضراب فعلا . لكن الحكومة البريطانية لم تغفل شيئا . وعادت لتهران الثورة تتأجج مرة أخرى حتى اضطرت الحكومة البريطانية - بعد مؤتمر دولي عقد في لندن سنة ١٩٣٨ ، وشاركت فيه بعض الدول العربية وبينها مصر لأول مرة - إلى إصدار كتاب أبيهف سنة ١٩٣٩ يشرح تصورها لحل المشكلة الفلسطينية . وكان الحل الذي قدمه "مالكولم ماكغونالد" وزير المستعمرات البريطاني هو : "استقلال مشروط لدولة فلسطينية بعد فترة انتقالية مدتها عشر سنوات ، مع السماح بدخول ١٥٠٠٠ مهاجر يهودي كل سنة إلى فلسطين لمدة خمس سنوات .

ولازت ثائرة المظاهرات اليهودية ، وراحت كلها تكلف من عملها المسلح ، كما ظهرت بينها فرق تطالب بشن الحرب الشاملة على العرب واقتلاع جذورهم أساسا من كل فلسطين .

وكانت الأجواء الدولية مهيبة بالفهم .

ومرة أخرى يلفت النظر أن الحركة الصهيونية لم تتفاوض مع أصحاب البلد الأصليين ، أي الفلسطينيين .

كان ممثلو الحركة الصهيونية قد تفاوضوا مع بريطانيا في البداية : "روتشيلد" مع "المارستون" . ثم قاموا بلوع من التفاوض لصفقة شراء بلد بأكمله : "هيرتزل" مع السلطان "مهد الحميد" . ثم عادوا للتفاوض مع بريطانيا في التمهيد لـ "عهد بلفور" : "روتشيلد" مع "بلفور" . ثم جريوا نوعا من التفاوض مع الأمراء الهاشميين : "وايزمان" مع "فيسل" .

لكن التفاوض مع الفلسطينيين لم يكن واردا على الإطلاق ، وكانت محاولاته اعترافا بوجود "آخر" لا بد من إنكار وجوده أساسا .

وبالنسبة لمصر فلم يكن هزليا أو حرجا وزراء سيناء أو وزراء قناة السويس يحتاج إلى تفاوض معها . ولم تكن مصر مبركة لما يدير لها ، ولم تكن هناك مصلحة لأحد في لفت نظرها إليه ولو حتى من باب دعوتها إلى الحديث منه مجرد حديث ، فضلا عن أن يكون الحديث من باب التفاوض !

الفصل الرابع

مصر تعود إلى الساحة

"حتى الذين يؤمنون بأنها مصر أولا ومصر ثانيا ومصر أخيرا
لا بد لهم أن يعرفوا أن مصر القوية القادرة
لم تكن مصر داخل حدودها .
بالأسس والهيوم وفد ، ليس هناك أمل ولا أمن لمصر
معزولة عن أمتها ومحصورة داخل حدودها السياسية .
وإذا تحدثنا بالأنانية - وتركنا جانباً حديث الانتماء - فإن "مصر
الأنانية" يتحتم عليها أن تكون حريصة .
وليس ذلك حكم التاريخ وحده ،
وإنما هو حكم المستقبل قبله ."

الملك فيصل

" صفر + صفر يساوي كمام يا عزام "

(" سعد زغلول" باشا لـ "سيد الرحمن عزام" باشا)

كان ظهور مصر واشتراكها في مؤتمر فلسطين - الذي عقد في لندن سنة ١٩٣٨ - نقطة تحول بارزة في سياسة مصر وفي سياسات الشرق الأوسط كلها .

كان المؤتمر قد انعقد على خلفية وقائع ثورة ١٩٣٦ التي هزت فلسطين وما جاورها من الأقاليم العربية . كذلك كان انعقاد المؤتمر عصبة الحرب العالمية الثانية وتحسبا لاحتمالات نهايتها ، مع فيه يقين بأن الشرق الأوسط كما حدث في الحرب العالمية السابقة سوف يكون من أهم مبادئها .

وكان اللاتفت للنظر أن وفد مصر في هذا المؤتمر - في لندن سنة ١٩٣٨ - جاء على أعلى مستوى يمكن تصوره في ذلك الوقت . ف رئيسه هو نفسه رئيس الوزراء "علي ماهر" باشا ، وهو واحد من الساسة المرموقين في مصر قبل الثورة . وكان "علي ماهر" - بصرف النظر عن رئاسته للوزارة - معروفا بكونه رجلا للملك القبوي ، وكان "فاروق" في ذلك الوقت صبيا تولى العرش بعد أبيه - (الملك "فؤاد") - قبل عام واحد تقريبا ، وكان عهد ما زال بعد في بواكيره الأولى ، وكان الصبي يحل أن يسمع وأن يفهم وأن يحس . ومن الإنصاف القول إنه كان في تلك الفترة مفتوحا لآمال وطموحات كبرى كان من أهمها ذلك الاتجاه الواضح القوي نحو الشرق .. للشرق العربي وما وراءه أيضا .



كانت مصر قبل اشتراكها في مؤتمر فلسطين ١٩٣٨ قريبة من المشرق العربي على المستوى الإنساني والثقافي والفني ، ولعلها اقترنت قليلا من المستوى الاقتصادي مع قيام "طامت حرب" بتأسيس بنك مصر - الذي مد نشاطه بسرعة إلى سوريا ولبنان - لكنها رغم ذلك كانت بعيدة عن المستوى السياسي إلا من ناحية التأثير الذي كانت تحدثه الحركة الوطنية المصرية من أصداء شعبية في المنطقة ، وما كانت تشهده من تصاطف تفضيه قوة الاتصال التاريخي في حد ذاته ، حتى وإن لم يتحقق وعى كاف بقوة هذا الاتصال التاريخي وأسبابه ونواحيه . ومن الإنصاف القول بأن العالم العربي في مفرقه ومفرقه كان يعرف عن مصر وفكرها بأكثر مما تعرفه مصر عما حولها وفكره .

فمذ عصر "محمد علي" ومنجزاته الضخمة ، و إلى عصر "إسماعيل" وأفعاله اللامعة ، و إلى ثورتى "عرابي" و "سعد زغلول" ، كانت الأمة العربية في المشرق تعتبر القاهرة عاصمتها الحضارية ، لكن الحركة على طريق العلاقات كانت - غالبا - من جانب واحد ، فالعرب هم الذين يأتون إلى مصر دائما ، بينما مصر تذهب إليهم نادرا . ولعل السبب أن مصر كانت مشغولة بشيء آخر أو أشياء أخرى حجبست عنها ما كان يجري في بقية العالم العربي .

وربما ظهرت في بعض اللحظات بوادر تنبه مصرى إلى المحيط العربي حولها ، ولكن تلك كانت نوبات اهتمام إنساني يظهر بسرعة ثم يختف أثره بنفس السرعة التي ظهر بها ، كما حدث في مناسبات معينة ، كانت آخرها موجة حماسة للفلسطين في الأيام الساخنة من ثورة سنة ١٩٣٦ . لكن الحماسة هشة ظلت مقصورة في أقرها على عدد من الشخصيات وعلى عدد من التجمعات ، وإن افلتتها في بعض المرات مشاعر شعبية أوسع نسبيا .

ولم تكن هذه الحالة العامة طهيمة بحقائق الجغرافيا والتاريخ التي جعلت مصر بجوار هذه الحقائق جزءا من الأمة العربية ، لكن هذه الحالة - وفي ذلك الوقت - جاءت نتيجة منطقية لمجموعة من العوامل راحت تحدث تأثيراتها ، وتراكمت هذه التأثيرات فوق بعضها حقبة بعد حقبة :

● إن مصر جرى قلمها قطما وبخيه عملية جراحية بعد الحملة الفرنسية عليها في أطرينات القرن الثامن عشر . لقد نزلت فيها جيوش "نابليون" وعزتها من بقية العالم العربي في المشرق . وحتى من قبل هذا الفزو وازمان طويل فإن ضعف الدولة العثمانية ، مع انحطاط مستوى الحكم المملوكي في فترة احتضاره ، أضعف حركة الاتصال والتعامل بين الولايات العربية ، حتى جاء "نابليون" واحتجز مصر رهينة .

● وبعد ضرب مشروع "محمد علي" في سوريا ، فإن حاكم مصر الطموح قنع في ولايته حزينا ومريضا أيضا ، وكان أهم أهداف ضرب مشروعه هو تأكيد عزل مصر عن سوريا - أي عن المشرق العربي كله في الواقع - وتوسع ذلك أكثر حينما بدأ النفوذ البريطاني يزد في مصر تمهيدا لاحتلالها أرضا وإرادة .

● وطربات في هذه الفترة عناصر مستعدة لكل منها لعميته الخاصة في إلهاء مصر من المشرق :

❖ فقد نجحت بعثات اكتشاف منابع النيل في عصر "إسماعيل" ، في لفت نظر مصر إلى الجنوب ، وإعطائها الإحساس بأن مستقبلها وأمنها هناك وليس في أي مكان آخر .

❖ وتوافقت هذه الاكتشافات الجغرافية مع اكتشافات تاريخية في حفائر مصر الفرعونية ، وكان من أثر ذلك أنه لفت نظر مصر إلى تاريخها القديم ، ودخلها وهم أن المستقبل هو مجد بناء الأهرام والمعابد والمسلات .

● ومع غروب شمس القرن التاسع عشر وشرق شمس القرن العشرين كانت مصر غارقة حتى أذنيها في قضية الاستقلال الوطني ، ومطالبة بريطانيا بالجلالة من أرض مصر والسودان .

وكانت التنظيمات السياسية - الحزبية - التي ظهرت على ساحة الحياة العامة في مصر مشغولة بالقضية الوطنية ، وغير قادرة بواقع الأمور على تجاوزها وعلى إدراك أن هذا التجاوز للحدود الوطنية يعطيها قوة مضافة أكثر مما يحملها مما إضافيا .

● وربما ساعد على هذا الإحصار في التفكير أن الحركة الوطنية المصرية اعتمدت بشكل أساسي على ملاك الأراضي ، والزراعة عادة تعطي أصحابها شعورا بحدود المكان يركزون جهودهم عليه ولا يخرجون منه إلى غيره خصوصا إذا بدأ "غيره" هذا من عهد متقللا بالمشاكل ، مزدحما بالمطامع ، موزعا وممزقا بين القوى والأطراف . ولعل ذلك هو التفسير للاحظة "سعد زغلول" الشهيرة حين جاءه "عبد الرحمن هزام" ينهيه إلى أهمية "البلاد العربية" ، وكان رد "سعد زغلول" هو قوله : "مصر زائد مصر يساوي كم يا هسزام ؟"



كان هناك بعد آخر قد لا يظهر تأثيره المباشر لكن فعله كان واسعا وثاقبا ، وذلك أن الفكر المصري كان قد مد جسوره إلى الشمال عبر البحر الأبيض ، واعتبر أن ذلك طريقه إلى العلم والثقافة والتطور .

لم يوجه الفكر للمصري نظره شرقا ولا غربا حوله ، وإنما مد بصره إلى الشمال عبر البحر مبهورا بأوروبا ، و إلى باريس بالذات . وكانت البداية هي رحلة الشيخ "رفاعة رافع الطهطاوى" مع أولى بعثات "محمد على" ، وقد عاد منها يحمل ومفاتيح من فكر "فولتير" و"روسو" و"مونتسكيو" . وتحولت هذه المفاهيم فى مصر إلى اكتشافات مثيرة توسعت مساحة نورها فيما بعد بأفواج البعثات العلمية إلى أوروبا فى عصر "محمد على" ، ثم استؤنلت فى عصر "إسماعيل" الذى كان حلمه تحويل مصر إلى قطعة من أوروبا بصرف النظر عن موانع الجغرافيا وموانع التاريخ .

وبمع بداية القرن العشرين كان أعلام الفكر - وبالتالى السياسة - فى مصر من تلاميذ الثقافة الأوروبية . الفرنسية على وجه التحديد .

وأكثر من ذلك فإن هؤلاء الأعلام من تلاميذ الثقافة الأوروبية توزعوا على المدارس المختلفة والمتصارعة لهذه الثقافة كما صيرت عن نفسها فى ذلك الوقت ، من ملاحظة أن عوامل الجغرافيا والتاريخ فى منطقة من العالم تختلف عنها فى غيرها من المناطق . كما غاب أيضا عنصر هام وهو أن مراحل التطور الاجتماعى والاقتصادى ، ومن ثم السياسى ، غالبية على أمراها . ومهما يكن فإن هؤلاء الأعلام - على توزع مدارسهم - كانوا يحملون هم التقدم من أى سبيل التصووا منه مهربا من التخلف والاستعمار .

وهكذا فإنه من بداية القرن العشرين وحتى الثلاثينات منه برزت فى مصر عدة مدارس فكرية وسياسية متنوعة :

• كانت هناك مدرسة ليبرالية مع تنوع ألوان وشلال الليبرالية ، وكانت هذه هي المدرسة الأوسع والأكبر ، وألهاها التنصى حزب الوفد وهو حزب الأغلبية فى ذلك الوقت ، وأقطابه من ملاك الأراعى والمتعلمين من أبناءهم أو عائلاتهم ، وأغلبهم ممن درسوا الحقوق واشتغلوا بالقانون . والاشتغال بالقانون يدخل نفسه عادة بـ "النص" سواء فى ذلك النص المكتوب أو النص الوالقى ، وبالتالي فإن هذا التيار فى أغلبه حصر نفسه فى "نص" الاستقلال الوطنى لم يخرج عنه .

• وكانت هناك مدرسة لنوع من الاشتراكية المثالية أو الفابية أو الماركسية فى نزعاتها الثورية الأولى ، وكانت هذه المدرسة بعبء من مواقع التأثير إلا فى دوائر محدودة من المثقفين . وقد بدت محاولاتها فى تلك الفترة بعبء من الواقع الاجتماعى والاقتصادى فى

مصر، بحيث أن دور هذه للدرسة — على اختلاف تنوعاتها الاشتراكية — بدأ هامشياً ومبعداً عن الأولويات التي طرحها طرف طلب الاستقلال كمدخل لا يهمل عنه لحلم التقدم الوطني .

• وكانت هناك مدرسة لخدمة للمادية أخذهم "مارون" بنظريته إلى بعيد ، مما قطع صلتهم من أي فعل حقيقي ، وقد تصادفوا منذ اللحظة الأولى بالروايات الدينية وتحطمت دعاوتهم على صخور هذه الروايات المتعبدية ، وجرفهم التسببان فانزروا يلويمون الناس ولا يلويمون أنفسهم .

• إلى جانب تلك المدارس كلها كانت هناك مدرسة إسلامية على نحو ما تخطط الإسلام بالعروبة دون تحديد ، وقد قادها إلى ذلك الخلط اهتمامها بمسألة الخلافة واتصالها على نحو أو آخر بأفكار الثورة العربية . وبالطبع كان الشيخ "رفيد رضا" هو عبدة هذه المدرسة ، لكن دورها فحسب باختلافه ويتدر ما انكشف تأثير جريده : "النار" .

وفي كل الأحوال فإن هذه المدارس جميعها انشغلت في قضية واحدة هي قضية طلب الاستقلال داخل الحدود المصرية ، إلى جانب نوع ما من العلاقة مع السودان . وكان في ذلك نسيان لقضية أساسية تصبغ الاستقلال ، وهي قضية الهوية ، فليس في استطاعة كائن ما أن يحدد ما يريده إذا لم يعرف مميلاً من هو ؟

كانت مصر طوال تاريخها دولة بروليتسكية دولة بخر على حد تعبير الدكتور "جمال حمدان" . ومعنى أنها دولة بر أن طريقها إلى آسيا — عبر سبهاء — كان هو الأشد فعلاً وأثراً في تكوينها وتشكيلها الحضاري من أي طريق آخر : منه جامعاتها الهجرات والفتوزات والدعانات ، ومنه جامعاتها معظم عناصر التكوين والتشكيل الإنساني والحضاري .

وربما أحسن بعض المفكرين بأن قضية الهوية تحتاج إلى تأصيل ، وكان اختصارهم السبيل أنها هوية البحر الأبيض المتوسط ، وكانت تلك عملية توفيق فكري مقبولة في ذلك الوقت لقضية الهوية . وربما أن كتاب الدكتور "طه حسين" الشهير عن "مستقبل الثقافة في مصر" هو خير تعبير عن هذه المحاولة للتوفيق الفكري .

وكان هناك فريق قد من هذه المدارس كلها ، مد بصره خارج الحدود نحو الشرق ، وراح بالشعور والضمير ينحس منحنى مختلفاً في الحقيقة ، فقد كان ذلك دوره سواء أناه يوحى أو توجه إليه بندها الوجدان التلقائي الذي لا يهتم كثيراً بالتحليل والتأصيل ، وكان ذلك في الغالب الأعم هو طريق الأدباء والشعراء والفنانين . فهؤلاء جميعاً راحوا مثل نود التز يمشجون خيوطاً من الحرير تكاد تكون غير مرئية إلى الشرق ، وبالتالي إلى سوريا

ولبنان والصراق ، وإذا خطوط التحرير تتحول إلى جسر لها قوة الحديد . وفي النهاية فإن هذا الفريق استطاع أن يحقق أكثر مما كان يمكن أن تحلقه فرق السياسة في تلك الأيام .



في تلك الفترة ظهر واختفى بسرعة خاطر عربي تمثل في طموح الملك "فؤاد" إلى الخلافة . وكان الملك فيما يبدو قد عرف بما جرى عرضه على السلطان "حسين كامل" من أسر ولاية أمير مسلم على القدس ، كما أنه وجد في نفسه الأهلية أكثر من غيره ليدخل في سباق الخلافة المرفحين ، سواء من الهاشميين أو السعوديين . لكن الإنجليز كانوا قد شعروا رأيهم بعد الثورة المصرية سنة ١٩١٩ .

قبل هذه الثورة وفي وقت السلطان "حسين كامل" فكروا له في إمارة القدس ، وقد بدت مصر لهم محمية هائلة منظمة يمكن أن يعمد إلى أميرها بالمنهية المقدسة وما حولها ، ويمكن في ذلك أن يتحقق تغيير التوازن السكاني في فلسطين من عرب إلى يهود بخون شجرة كبرى . لكن ثورة سنة ١٩١٩ غيرت هذه التقديرات وأظهرت أن مصر ليست تلك المحمية الهائلة المنظمة التي تصورها بعضهم .

وهكذا فإن مسمى الملك "فؤاد" للخلافة توقف في الواقع قبل أن يبدأ ، ثم لم تمش إلا شهور حتى كان موضوع الخلافة كله ، والنسبة للأسر الثلاثة الطامحة إليه ، قد طواه النسيان وفتت عليه الأزمان .

ومن المثلث أن إثارة موضوع الخلافة في ذلك الوقت أحدثت نوعا من القلق وسط التيار الليبرالي في مصر ، وكان قلقا له مبرراته .

لمن ناحية بدأ أن الملك "فؤاد" يحاول أن يخلط الدين بالسياسة ، وهي لعبة خطيرة . ومن ناحية أخرى فقد بدأ أن الملك يحاول تميز سلطته في مصر بمكانة أكبر يحلقها لنفسه خارجها بدعوى خلافة المسلمين ، وهي لعبة أشد خطورة .

ومع تغير رأي الإنجليز في موضوع ولاية أمير مصري على القدس وما حولها ، ومع تغير أبعاده التيار الليبرالي في مصر - وهو أقوى التيارات وقتها - فإن الملك "فؤاد" نفسه أكر أن يترك قضية الخلافة ويلتفت إلى تميز سلطته في مصر بدعوى حماية حقوقه الدستورية إزاء "مسعد زشلول" و"مصطفى النحاس" .

وهكذا فإن اتجاه مصر سياسيا ورسميا نحو الشرق تفضل ، وبدت آفاقه مفتوحة بأسراب من السحب الماهرة لا تتيح الفرصة كافية لإعمال الفكر والنظر .

الملك فاروق

" لا أستطيع أن أرسم لوحة إلا إذا
أجسدت موضوعها "

(الشاه البريطاني "سيدون إويس" في تقرير
ملائكة الملكة "فريدا")

في منتصف الثلاثينات كانت هناك تغييرات عامة تقع في مصر . ومع أن كل تغيير
منها جرى على غير ما صفة ظاهرة بالآخر ، فإن صلات من نوع ما كانت تربط هذه
التغييرات كلا منها بالآخر :

• كانت هناك مرحلة من الكفاح الوطني على وشك أن تصل إلى نهايتها ، وكانت
معاهدة سنة ١٩٣٦ (بين مصر وبريطانيا) هي علامة هذه النهاية . والحاصل أن الرهول الأول
من جيل المطالبين بالاستقلال كان قد تعرض كثيرا لعوامل النحر والتعرية وأصبح مكشوفًا
لقبول أي حل مع بريطانيا يرد فيه ذكر "الاستقلال" وذكر "الجلاد" ، حتى وإن كان ذكر
الآخرين يجرى مبهما .

• وكان هناك جيل من الشباب الطامح الذي نشأ بعد مناع ثورة ١٩١٩ ، وكان هذا
الجيل هو الذي مهد لحركة طلبة الجامعة - سنة ١٩٣٥ - التي فوضت على الزعماء
الانقلابيين للأحزاب أن يهتموا بما في جبهة وطنية للمقاومة الإنجليزية . وفي حقيقة الأمر
فقد كان هناك ما يمكن تسميته "نصف ثورة" أضافت في مصر جوا فورا . لكن هذا
الجو الفوار ما لبث أن خمد بتوقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ .

● وكانت مغامرة "ظلمت حرب" العظيمة قد بنت هياكل بنك مصر وشركاته ،
وضاع بشكل ما إحساس بأن هناك كثيرا يمكن عمله في مجال النمو الاقتصادي . وفي أقل
التليل فإن مصرنا بارزا أثبت عمليا أن النمو ممكن وأن المصريين قادرين عليه .

● وفي سنة ١٩٣٦ مات الملك "فؤاد" . وكان حكم هذا الملك المتأثر بالثقافة الإيطالية
والقريب من فكر أسرة "آل سافوي" المالكة في إيطاليا يومها ، قد تراجع مع السنين - وأمام
ضغوط الحركة الشعبية - إلى نوع من حكم "آل بورجيا" الذي تغلب فيه نساكس القصور
على طموحات الملوك .

● ثم إن ولاية العرش انتقلت بعد الملك "فؤاد" إلى ولي عهده "فاروق" الذي بدأ
في ذلك الوقت صيدا جميلا كنهيا ناقص التعليم والثقافة معا ، لكنه بصباه قادر على
التعويض . وفي كل الأحوال فإن صباه أعطى مصر إحساسا بأنها قرب عهد جديد .

● مضافا إلى ذلك أن الموقف الدولي كان يتحرك بسرعة - مع ظهور الفاشية في
إيطاليا ، والنازية في ألمانيا ، والبلشفية في روسيا - إلى حالة حرب عالمية يمكن أن تدلج
في أوروبا ، ويمكن أن يصبح الشرق الأوسط واحدا من ميادينها . وذلك المناخ أعطى مصر
شعورا بالخطر إلى جانب الشعور بالأمل ولقاء الشعوب معا يمكن أن تنتج عنه فتحة
كهربية لها شواهد منوية مثل البرق والرعد .

إن ذلك المناخ العام المصحوب صاحبه علامات تمتدحى التأمل :

● كان الرجل الذي اختاره الملك "فؤاد" للإشراف على تربية ابنه "فاروق" ، والذي
رافقه في رحلة العلم التي لم تكتمل إلى بريطانيا ، هو نفسه : "عزيز المصري" (باشا) ،
وهو أول رسول من قوى الثورة العربية الأولى - إبان الحرب العالمية الأولى - للاتصال
والتفاوض مع بريطانيا . وهو نفسه صاحب شرط الدولة العربية المستقلة ، وهو الشرط الذي
رفضه الإنجليز وحاولوا بعهده عزل "عزيز المصري" ، وفضلوا عليه - وعلى غيره من القوميين
العرب - أن يكون تعاملهم مع الأسراء الهاشميين والسعوديين الذين شغلهم التجهيز
والعروش المعروفة وقتها في واجهات العالم العربي !

وليس معروفا لماذا وقع اختيار الملك "فؤاد" على "عزيز المصري" بالتحديد ، ولمل
الملك الذي ينس من الخلافة العربية الإسلامية لنفسه ، حلم بها لابنه ، واختار "عزيز
المصري" ليكون جسرا يعنى عليه الحلم والكرة من جهل إلى جهل . ربما .

وربما كانت هناك أسباب أخرى ، بينها أن الملك أراد أن ينشأ ابنه نشأة تتفق مع
رؤى عصر جديد لمحبه الملك المعجوز قانما ، وتمنى لابنه الشاب أن يلحق به أو يمسك
بأطرافه . ربما .

وربما أن الملك "فؤاد" أراد تربية ابنه تربية عسكرية صارمة تصور أن "عزيز المصري" يمكن أن يعطينا له وهوادة عليها . ربما .

ولعل الخطأ الذي وقع فيه الملك "فؤاد" ، أن اختاره لـ "عزيز المصري" كاتفاق الأول لابنه في إنجلترا ، صحبه اختاره لـ "أحمد محمد حمدين" أحد أمنائه لكى يكون المرافق الثاني لابنه . وكان هناك تناقض شديد بين شخصية وفكر كل من الرجلين .

فالولهما كان يريد للأمير الشاب حياة جادة صحية ، فى حين كان الثاني من أنصار حياة سهلة وروحية .

والحاصل أن وجود الرجلين فى حياة الأمير الصبى أصابه بتناقض هائى منه فيما بعد - وهانت مصر معه - هناه شديدا .

وفى منتصف الثلاثينات ، كان تأثير "عزيز المصري" ملحوظا على الملك الشاب .

• وكان الرجل الذى وقع عليه الاختيار لرئاسة الوزارة فى تلك الظروف للمعنة بالأمل وبالخطر معا - فى أعقاب معاهدة سنة ١٩٣٦ - هو "على ماهر" (بافا) . وكان "على ماهر" سياسيا مستقلا خارج الأحزاب ، ومحاطا بمجموعة من الرجال يتصورونه "رجل الساعة" ، وقد استخدموا هذا التمييز فعلا ذلك الوقت . وكان بين هؤلاء الرجال مجموعة من هؤلاء الذين أطلوا النظر فى قضية انتماء مصر القومية ، وقضية مستقبلها ، وكان معظمهم من أنصار التوجه إلى الشرق . و إلى جانب "عزيز المصري" كان هناك آخرون من أمثال "مهد الرحمن صزام" ، و"محمد على علوية" ، و"صالح حرب" ، و"محمود عزى" (١) ، وغيرهم . وكان تصور هؤلاء جميعا للشرق غير محدد فى ذلك الوقت ، فلم يكن الشرق هو الأمة العربية وحدها ، وإنما كان الشرق متراميا وراء ذلك واصل إلى إيران .

ولعل هذا التوجه شرقا كان واحدا من الأسباب التى دفعت فى ذلك الوقت إلى زواج ملكى يجمع ما بين الأميرة "فوزية" شقيقة الملك "فاروق" و"محمد رضا بهلوى" ولى عهد إيران .

وحتى إذا قيل بأن صاحب فكرة هذا الزواج ابتداء هو "رضا خان" شاه إيران الأب - فى محاولة للبحث عن أصل عريق فى المنطقة لأحفاده - فإن القول المصرى بهذا الزواج كان يحمل فى طياته إحساسا بأهمية الشرق فى المنظور المصرى الإستراتيجى ، وبالوسائل التى يمكن أن تخدمه بمنطقة تلك الأيام |

(١) بدأ الدكتور عزى حياته العلمية تلميذا لفكرة الاتحاد شمالا إلى أوروبا ، ووصل إلى حد التلمذ بالاحقاد العلمية فعاد الرئيس ، وسبق هو غيره إلى ذلك فعلا . لكن تأثير مدرسة الشرق ما لبث أن شهد إليه وشعه إلى سلوكه .

• وكان من الملامات المشهورة للاهتمام في ذلك الوقت ، أن تلك كانت الفترة التي ظهرت فيها تنظيمات انبثقت من حركة الشباب .. نصف الثورة سنة ١٩٣٥ .

كانت جماعة "الإخوان المسلمين" قد ظهرت في أواخر العشرينات ، لكنها اكتسبت لنفسها قوة جديدة في ظروف القوزان الذي صاحب أجواء مصر فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة . وكانت علاقة "الإخوان المسلمين" بـ "علي ماهر" وثيقة ، وعن طريقه كانت العلاقة بالقصر سالكة .

ونفس الشيء حدث لجماعة أخرى من الشباب ، وهي حركة "مصر الفتاة" وقد تزعمها "أحمد حسين" ، وبرز إلى جواره جمع من الشباب المرموق بينهم "فتحى رؤوف" و"نور الدين طراف" .

هكذا فإن اهتمام مصر بثورة الشعب الفلسطيني سنة ١٩٣٦ لم يكن عفوائها ، وكذلك لم يكن من قبيل المصادفات اشتراك مصر في مؤتمر فلسطين في لندن سنة ١٩٣٨ .

ثم حدث أن الحرب العالمية الثانية زلزلت جيوشها إلى مبادئين القتال بما فيها مصر .

ومما يستحق الاهتمام مراجعة ما حدث لدرسة الشرق وقت الحرب العالمية الثانية ، وحين فرض الإنجليز في شروطها سلطتهم العسكرية على مصر ، كما كانت تقربها في وقت الحماية أثناء الحرب العالمية الأولى .

لقد تم اعتقال "علي ماهر" بالها ، والمزعم أنه اعتقل داخل مجلس الشيوخ بطلب من السفير البريطاني وقع عليه "مصطفى النحاس" بالها .

كذلك جرى اعتقال "عزيز المصري" (بالها) بصرف النظر عن الظروف ، وجرى تحديد إقامة آخرين من رجاله مثل "صالح حرب" (بالها) ، كما جرى حصر نشاط آخرين منهم مثل "محمد علي حلوبة" (بالها) و"عبد الرحمن عزام" (بالها) وغيرهما .

ونفس المسير : السجن أو المزل أو الحصار ، لحق برجال من أمثال "أحمد حسين" و"فتحى رؤوف" و"نور الدين طراف" والشيخ "حسن البنا" .

بما أن أعدى أعداء الإنجليز في مصر وقت الحرب هم أنصار مدرسة الشرق . فقد كانت السياسة البريطانية ما زالت تسلك وفق الخطوط التقليدية القاضية بعزل مصر في أثرها بعيدة عن تفاعلات ما كان يجري في الشرق .

وفي نص الوقت وتحت ضغط الظروف وإدراك أعمق لحقائق التاريخ فإن الاتجاه نحو الشرق في مصر بدأ يجرى بوضوح خطوط المستقبل وأقاله .



وكان التاريخ يؤكد نفسه حتى من خلال تصرفات هؤلاء الذين يعملون على عكس اتجاهه .

والحاصل أن الإنجاز أنفسم كانوا أول من أعطى للحركة العربية مرة أخرى رخصة للفعل . وهكذا فإن ما حدث في الحرب العالمية الأولى ، هاد ليعرض نفسه بطريقة مختلفة في ظروف الحرب العالمية الثانية .

ثم كان - لضرورات استنزاف الحرب قبل معركة الملصين الفاصلة التي أنهت حلم "مكتر" بالوصول إلى قناة السويس ثم سوريا والعراق وما بعدها - أن الشرق العربي كله وُضع تحت سلطة وزير بريطاني - عفسو كامل في مجلس الوزراء - مقوم في الشرق الأوسط . ونظرا لصعوبة وسائل المواصلات والاتصالات بسبب ظروف الحرب ، فإن الوزير البريطاني المقوم في الشرق الأوسط أصبح حاكم المنطقة ، في مجال السياسة والاقتصاد .

ودون أن يقصد أحد فقد برزت خلال الحرب حقيقة كبرى ، تلك هي أن المنطقة من وادي الفرات إلى وادي النيل - وسوريا وسفها - ضلع مكمل للضلع المصري على الزاوية الجنوبية الشرقية للبحر الأبيض ، أصبحت وحدة واحدة ، لها خصائص مشتركة . وبينما تكامل جغرافيا لا يمكن قطعه ، وأمن يصعب الفصل بين مقتضياته ، ومصالح متصلة ، وتماثل ثقافي من نوع فريد ، ومركز ثقل واحد - في القاهرة - ليس من السهل تعويضه .

وفي هذه الفترة تبدى المعدن الحقيقي لخيوط الحرير التي نسجها الشعراء والفنانون والكتاب ، فإذا خيوط الحرير تتحول إلى جسور من حديد .

كانت قيادة الشرق الأوسط - وتحت إشراف الوزير البريطاني المقوم - تنسق على اتساع المنطقة كل شيء :

الإنتاج ، التوزيع ، المواصلات ، القرار السياسي . إلى جانب المشاركة بالجهود العسكرية اللازمة لتحقيق النصر ضد ألمانيا وإيطاليا وشركائهما في الحرب .

ولم يكن ممكنا لذلك أن يحدث إلا وصاحبه ، يسبقه ويلحقه ، تفاعل من داخل

المنطقة ذاتها يتصل بما يجري فيها ويجرى حولها ، خصوصا إذا كانت هناك من الأصل قواعد ولحقت على القواعد وقوة الأشياء .. جسور .

والحاصل أنه في سنوات الحرب ، سواء والقتال يجري قربها من المنطقة أو عندما اتبعت الجيوش متحركة إلى ميادين أخرى كانت منطقة الشرق الأوسط قائمة بذاتها ، معقدة على بعضها ، متصلة بغير هوائى أو فواصل لأنها كانت فى إطار مسرح استراتيجى واحد .

ولعل الحكومة البريطانية - دون أن قصد - سمحت للقواعد والجسور أن تؤدي دورها فى جلاء حقائق ، وفى ربط أطراف ، وفى تنسيق حركة تيارات . وقد فعلت ذلك لأغراضها وكان فى بعض تكرارا لما حدث فى الحرب العالمية الأولى .

ثم إن الحكومة البريطانية تمنعت أن يخلص لها الشرق الأوسط بغير شريك ، وقد صورت أن فرنسا التى شاركتها مرة من قبل فى قسمة المنطقة خرجت من القسمة باستسلامها لـ "هتلر" سنة ١٩٤٠ ويقام حكومة موالية فى فيشى للتحول بتزعيمها الجنرال "بيتان" .

واستغلت بريطانيا سقوط فرنسا فى الغرب ومدت يدها إلى ممتلكاتها فى الشرق - سوريا ولبنان - فأخرجت منها الإدارة التابعة لحكومة "فيشى" ، ودخلت إلى بيروت ودمشق محررة بجيش يتلوه الجنرال (جانبو) "بيلسون" .

لكن ضرورات الحرب فى الغرب اكتسبت مهادنة فرنسا التى يمثلها الجنرال "ديجول" ، وهو وقتها لاجئ بحكومته إلى لندن . ومن أجل بناء مصداقية حركة فرنسا الحرة - ولقائها "ديجول" - وعلى أمل دور منقذ لهما فى إعادة شزرو أوروبا عندما يجيء الوقت ، فإن بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية سمحتا مرة أخرى لفرنسا - "ديجول" - أن تعود إلى سوريا ولبنان . لكن المشكلة أن "ديجول" بشخصيته المنهدة ، ويتصوره لطفة فرنسا ، أخذ الموضوع جدا أكثر من اللازم ، واعتبر إدارته فى سوريا ولبنان فصلا سلطة حاكمية .

وقامت بريطانيا بتشجيع حركة وطنية فى سوريا ولبنان وجدت أن تفسيرات الأحوال وسرعة هذه التغيرات تنبئ لهما فرصة تاريخية فى الاستقلال عن فرنسا .

ونشط جنرال بريطانى من المخابرات مرة أخرى - هو الجنرال "سيبرز" - إلى الاتصال بزعماء الثورة الوطنية فى الشام ، وإذا الجنرال "ديجول" يفتقد أصحابه للحظة ويسمح للحاكم الفرنسى العام (فى ديسمبر ١٩٤٣) بأن يلقي القبض على صفوة الزعماء السياسيين فى دمشق وبيروت ، وأن يودعهم فى السجون والتلغراف البعيدة !

ولم تكن بريطانيا قادرة على أن تتصدى للتصرفات الفرنسية بنفسها ، وهكذا فإنها تركت الحركة الشعبية العربية تمير عن نفسها ، وقد كان . وتقدم رئيس وزراء مصر "مصطفى النحاس" في هذه الظروف يقود من القاهرة موجة رد فعل واسع ضد تصرفات فرنسا .

ومع جرعة من الضغط البريطاني ، بدوامي أن شبح الحرب لم يبعد بعد عن آفاق المنطقة ، اضطر "ديجول" إلى التراجع ، وجرى إعلان استقلال سوريا ولبنان . وكانت تلك تجربة للقوى القومية لا بأس بها بصرف النظر عن كل الملاحظات الدولية التي أحاطت بها .



كان "إنتوني إيدن" وزير خارجية بريطانيا قد وقف يعلن في مجلس العموم في صيف ١٩٤٢ أن بريطانيا سوف تظهر بميّن العطف بعد الحرب إلى آسأل الشعوب العربية في تحقيق نوع من الوحدة بينها . وفي هذا التصريح الأول على لسان "إيدن" فإن وزير الخارجية البريطاني لم يشر إلى مصر .. وإنما تحدث عن العرب بدولها .

لكنه بعد شهر وقف "إنتوني إيدن" في مجلس العموم مرة أخرى يكرر تصريحه . وفي هذه المرة أضاف مصر إلى العالم العربي .

ولم تكن تلك نوبة تطوع بالإحسان اضرت وزير الخارجية البريطانية - في وزارة "ولستون تشرشل" - وإنما كانت على وجه الطع استجابة لحقائق جديدة بدأت تتفصح وراحت تكسب لنفسها أرضا جديدة كل يوم .

وقبل أن تنتهي الحرب وتتوقف مآزكها في أوروبا ، كان "مصطفى النحاس" بأفا يواصل إلزام مصر العربي الذي تجلى في معركة استقلال سوريا ولبنان ، بالعمل على وضع الأساس لجامعة الدول العربية . وكان "النحاس" بأفا قد تحول هو الآخر بتجربة الحرب ودروسها ، وبما نشأ وتراكم داخل مصر وحولها من تيارات سياسية وفكرية إلى مدرسة الشرق . وكان هو الذي تلتوفس وقام بتوقيع ميثاق الجامعة العربية في خريف سنة ١٩٤٤ ، ومن المآزقات أنه وقع ميثاق الجامعة ، ثم جرت إقائته في اليوم التالي بمبادرة .

وكانت سنوات الحرب وفروفا قد خصمت ضرائبها من جميع الأطراف ، وأولها حزب الوفد الذي فقد قوته كعمثل رئيسي للقوى الشعبية في مصر نتيجة لعصرين :

* أولهما حادث ٤ فبراير (حين حاصرت الدبابات قصر عابدين وطهرت وزارة وقديبة على الملك بدواعي سلامة الجهد الحربي . ومن الانصاف أن "مصطفى النحاس" بافا - طبقا لما تقول به وثائق الحرب - لم يكن أمامه غير القبول بتأليف الوزارة (٠) -- لكن ذلك لا ينفي واقع أن قبوله الوزارة "على أسنة الحراب الإنجليزية" - كما كان يقال - أدى إلى نوع من الانكسار في شرعيته السياسية .

* والمصدر الثاني أن ظروف الحرب أثرت في نوعية قيادات الوفد ، ونقلت مركز القوة في هذا الحزب العتيد من جماعات المثقلين - الذين قادوا حركته في السنوات الصعبة الأولى - إلى قيادة كبار ملاك الأراغسي الذين كانوا على استعداد باستمرار لحصول وسط تتصل بالمصالح الطبقية أكثر من اتصالها بحركة الوفد الأصلية وتوجهاتها السياسية والاجتماعية .

كانت سنوات الحرب وظروفها قد فعلت فعلها وأكثر في موقع آخر ، وهو التصريح الملكي الذي ظل لسنوات معقلا لسياسة الشرق في السياسة المصرية .

إن الملك "فاروق" الذي شهدته بداية الحرب شابا وطنيا متحمسا ، خرج في نهاية الحرب رجلا آخر ، ومن الحق أن هناك عوامل ظاهرة لعبت دورها في تغيير شخصيته .

* كان هناك أثر حادث من نوع ٤ فبراير عليه ، وقد تعرض فيه لإهانة كبرى ، وعامله المدحوب السامي البريطاني ، السير "مايلز لامبسون" - (اللورد "كيلرن" فيما بعد) - معاملة طفل شقي لا يستحق قطعة حلوى في نفسه وإنما يستحق عقلة على مؤخرته . وكانت تلك تجربة مريعة أورثت الملك كراهية عميقة للتباريات الشعبية التي كان الوفد يمثلها آنئذ .

* وكانت هناك المحنة الشخصية التي تعرض لها الملك كإلسان .

فقد خالته أمه الملكة "نازلي" مع رئيس ديوانه "أحمد حسنين" ونشأت بين الاثنين علاقة غير شرعية رغم محاولات لاحقة قاما بها لتغطية العلاقة بعدد زواج عرقى . وكانت تلك سرية تكبرياء الملك !

والحاصل أن الملكة الأم كانت ذات شخصية غير متوازنة في أقل القليل ، ومن ذلك أنها في سنوات حياتها الأخيرة في الولايات المتحدة ، قررت أن ترتد عن الإسلام وتتنصر وتعتنق المذهب الكاثوليكي . وقد أثرت "نازلي" على ابنتها اللتين عاشتا معها في أمريكا ، وهما "فايزة" و"فادية" ، وكلاهما ماتت وهي مسيحية كاثوليكية .

• والأدعى من ذلك أن أمه لم تكن وحدها التي خائنه ، وإنما خائنه زوجته "فريدة" أيها (رغم محاولات لا لزوم لها لرسم صورة ملهية)^(١) .

والحقيقة المرة أن وثائق القصر ووثائق الخارجية البريطانية تحفل بتفاصيل كثيرة عن العلاقات المضطربة بين الملك الشاب وزوجته الشابة .

ويبدو في الظاهر أن التعاقل في السن بين الاثنين خلق لدى "فريدة" حاجة إلى رجل أكثر نضجا ، وكان أن وقعت في غرام "محمد سرى" (بابا) ، وهو بمثابة ابن عمه للملك (أو أسوأ لأن أمه الأميرة "هينكلز" هي الزوجة الأولى للملك "فؤاد") .

لكن مشكلة الملكة "فريدة" كانت فيما يبدو أصعب من ذلك ، فوثائق القصر والسفارة البريطانية والخارجية البريطانية تربطها بمعلقة غير شرعية مع شابط بريطاني اسمه الكاتب "سيمون إلويس" ، وكان قبل الحرب رساما له مستقيل ، وقادته خدمته في مصر إلى التعرف على بعض الماشات الكبيرة بها ، ورسم بالفعل صورة لبعض شخصياتها بما في ذلك صورة للسيدة "ناهد سرى" وهي قرينة "حميد سرى" بابا الذي كان رئيسا للوزراء ، وفي نفس الوقت خالة الملكة "فريدة" ، وهكذا فإن "سيمون إلويس" دخل القصر أول مرة يرسم صورة زيتية للملكة ، ثم تدبر بأن زحام القصر يفسد إلهامه فدعاها إلى تكملته الصورة في "مركزه" ، وتطورت الأمور بين الاثنين . وحين انكشفت العلاقة قام السفير البريطاني نفسه بالتحقيق مع الشابط الفنان الذي بلغ به السخف حد أن يقول "إنه لا يستطيع أن يرسم صورة إلا إذا أحسن مباحرة بموضوعها" . وقد جرى ترحيل هذا الشابط إلى جنوب أفريقيا في ظرف أربع وعشرين ساعة .

(إن تفاصيل القصة لسوء الحظ كاملة في مذكرات لورد "كهيلن" ومخطوطاتها جميعا في مكتبة كلية "سانت أنتوني" بجامعة أكسفورد ، وقد وردت أول إشارة للقصة في يوميات ٣٠ مارس ١٩٤٣ ، وظل ذكرها يرد في الصفحات حتى يوم ٤ يناير ١٩٤٤ . كذلك فإن اللورد "كهيلن" أشار إلى الواقعة في برقية إلى وزارة الخارجية بتاريخ أول مارس ١٩٤٤ ، وهي تحت رقم ٣٧١/٢٥٥٣٠) .

ويظهر أن الملك "فاروق" مات في آخر عصره مجروحا مما حدث له في زواجه الأول ، وقد روى لبقائه الثلاثة من "فريدة" ومن : "فرهاد" و"فوزية" و"قادية" تفاصيل

(١) لقد ترددت كثيرا قبل أن أضع هذه القصة في سياق هذا الكتاب ، لكن مسألة الملك "فاروق" لا تتفحص في كامل أبعادها بدون فهمته في والدته وفي زوجته ، وتأثير ذلك على شخصته وعلى تصرفاته فيما بعد .

ما جرى له معها ، وكان من نتيجة ذلك أن الهنات الثلاثة قاطنن أمهن إلى درجة رفضن زيارتها في مرض موتها !

ولم له كانت هناك - إلى جانب أوجاعه الماثلة - أسباب قصور وتهافت في شخصيته أثرت عليه ، أو لعل حادث السيارة الذي وقع له في قرية "الناصرين" أصابه في رأسه بما استعصى دواؤه .

لكن الحادثة النهائية تبقى مع الأسف وهي أن ملك مصر الذي عاش أول أيام الحرب العالمية الثانية - شابا وطنيا يحمل بخارة أمل - وصل في الأيام الأخيرة من الحرب إلى أن أصبح كتلة شحم مترهلة تبحث عن الكرامة والمعانة ولا تعثر لثلاثين على أثرها كلن ملك مصر الشاب وعسا ، لكنه وعبد أخلف موعده !

ومهما يكن فإن مصر وقعت على مهثاق الجامعة العربية بقوة الأفياء وليس أكثر . فحزب الأغلبية ورئيسه "مصطفى النحاس" لم يكونا في وضع يسمح لهما بالتخطيط للمستقبل ، والملك الشاب - الذي راوده الحلم في سنوات ملكه الأولى - أصبح أحلامه بصرف النظر عن أن ظروفه سالتته إلى الضياع !

وهكذا وجدت مصر نفسها تدخل إلى عالمها العريى ، وهي ليست بعد والثقة من خطاياها ، وكان ذلك تأخير واقع الحال ، وربما ساعدت عليه عوامل إضافية .

الحاخام حايسيم ناحوم

"المسيحيون تركوا القدس إلى روما ، والمسلمون تركوها إلى مكة ، واليهود وحدهم يبقوا عليها "
(الحاخام الأكبر "حايسم ناحوم الكندي" للملك "قاروق")

كان وجود جالية يهودية قوية من بين العوامل الإضافية التي ساعدت على تحويل نظر مصر من هويتها العربية . وبما يستحق الاهتمام أن تزايد دور الجالية اليهودية تزامن مع ظهور المشروع الصهيوني في فلسطين ، وتوافق بشكل أو بآخر مع الاحتلال البريطاني لمصر.

كانت في مصر جالية يهودية منذ عصور قديمة ، لكنه حتى عصر الخديو "إسماعيل" وقبل الاحتلال البريطاني مباخرة لم يزد عدد اليهود في مصر عن سبعة آلاف نسمة ، وكان تركيزهم في القاهرة والإسكندرية . ففي القاهرة كانت هناك حارة اليهود التلبدية ، وكانت حيا نخبيا من أحياء القاهرة على صلة مباشرة بالقلب التجاري للمدينة . وفي الإسكندرية كانت هناك جماعات من اليهود يمكن اعتبارهم جزءا من مجتمع البحر الأبيض المتوسط ، وأغلبهم عائلات تراجعت ضمن الخرج المسلم اليهودي من الأندلس بعد العودة الكاثوليكية إليه ، وتوزعت على فواطين البحر الأبيض من المغرب حتى إستانبول في شبه دائرة كاملة . واستقر بعضهم في الإسكندرية كوسطاء ووكلاء للتجارة مع المدن الإيطالية ، مثل "جنوا" و"قنينسيا" (البندقية) و"فلورنسا" ، في العصر الذهبي لازدهار التجارة الأوروبية مع الشرق عبر مصر .

لكنه مع بداية الاحتلال البريطاني لمصر راحت أعداد من اليهود تصل إليها . وهكذا فإن إحصاء سنة ١٩٠٧ يكشف أن عدد اليهود في مصر ارتفع فجأة من سبعة آلاف قبل

الاحتلال البريطاني إلى ٣٨,٦٣٥ سنة ١٩٠٧. ثم تواصلت الزيادة ، فلذا حدد اليهود في مصر طبقا لإحصاء سنة ١٩٢٧ بتضامف تقريبا ويصل إلى ٦٣,٥٥٠ نسمة . ولما كان معظم المهاجرين اليهود إلى مصر جاءوا إليها من بلدان عربية (مثل المغرب) ، وإسلامية (مثل تركيا) ، فإن اندماج هؤلاء اليهود بالحياة المصرية ، خصوصا مع الطبقة المتوسطة ، كان مسألة سهلة ، وزاد من سهولتها أن قمة الطبقة المتوسطة في مصر كانت غالبا من أصول أجنبية . وهكذا أصبح اليهود في مصر ويمرعة جزءا من نسيج الحياة العامة ، خصوصا في مجال النشاط الاقتصادي وفي مجال اللؤوذ الاجتماعي .

وكانت هذه هي الفترة التي ظهرت وبرزت فيها عائلات يهودية مثل "قطاوى" و"موصيرى" و"منشة" و"فيكتوريل" و"سوارس" و"رولو" و"ساسون" وغيرها .

وعندما جاء "ثيودور هيرتزل" إلى مصر سنة ١٩٠٢ حاملا مشاريعه : دولة يهودية في فلسطين ، أو محطة تجديح مؤقتة في سيناء ، فإنه اعتمد في اتصاله بالدرجة الأولى على عدد من العائلات اليهودية وبالأذات في الإسكندرية حيث قام "هيرتزل" نفسه بتأسيس جمعية صهيونية تتولى الدعوة إلى مشاريعه بعد سفره ، ثم تتولى الترويج للككرة الصهيونية في مصر . وظلت هذه الجمعية وفروعها نشطة حتى قيام الحرب العالمية الأولى .



ومع قيام الحرب العالمية الأولى ، بدأت أعداد كبيرة من المهاجرين اليهود من روسيا تحاول الوصول إلى فلسطين . ولما كان الأتراك يحتلون فلسطين وقتها ، فإن الوكالة اليهودية أمرت بتحويل هؤلاء المهاجرين إلى الإسكندرية حيث كلفت الجالية اليهودية فيها ورئيسها في ذلك الوقت هو "إدجار سوارس" باستقبال هؤلاء المهاجرين ورعايتهم . وفي شهر ديسمبر ١٩١٥ بلغ عدد اليهود الذين وصلوا إلى ميناء الإسكندرية ١١,٢٧٧ مهاجرا . وقررت السلطات البريطانية تسهيل دخولهم إلى مصر ، لكنها أرادت أن يكون هناك إذن مصري يمزج قرارها . وتولى "إدجار سوارس" مهمة إقناع السلطان "حسين كاسمل" ورئيس مجلس الوزراء "حسين رشدى" بأفاسا بقبول دخول هؤلاء المهاجرين إلى مصر وإقامتهم فيها . وبالفعل ، فقد وافق السلطان ورئيس الوزراء ، وصدرت الأوامر بفتح معسكر استقبال كبير لهم في منطقة "القبارى" بالإسكندرية .

ولم يكن وقت هؤلاء المهاجرين شائعا في معسكر "القبلي". وإنما تولت الجالية اليهودية في مصر تنظيمه بطريقة تتبن بدلالات لها معنى :

• كانت هناك دورس مكثفة لتعليم اللغة العبرية والتاريخ اليهودي .

• وكانت هناك عملية تدريب عسكري مستمرة اتخذت في البداية شكل الألعاب الرياضية .

• ثم كانت هناك عملية تعبئة صهيونية قام بها دعاة كبار من أمثال "فلاديمير جابوتنسكي" .

وتسجل الوثائق البريطانية أنه في يوليو سنة ١٩١٦ توجه "موسى قلاوي" باشا رئيس الطائفة اليهودية في مصر إلى مقابلة الجنرال "ماكسويل" القائد العام للقوات البريطانية فيها، وكان طلب "قلاوي" في هذه المقابلة هو السماح بتشكيل كتائب يهودية تدخل ضمن إطار جيش الجنرال "اللنسي" الذي كان يعتمد للزحف على الأتراك في فلسطين والشام بعدما ووافق الجنرال "ماكسويل" ورتب لهذه الكتائب اليهودية فرصة أن تلتحق بجيش الجنرال "اللنسي" . وأكثر من ذلك سمح لجنودها أن يضعوا نجمة داوود علامة على مقدمة قبعاتهم، لكي يكون واضحا أنها كتائب يهودية .



كانت تلك بداية راحت بعدها المائات اليهودية في مصر تتصاقق ربما بدون تخطيط إلى خدمة ما بدا لها وكأنه قضية مستقبل الشعب اليهودي .

وقام يهودي بارز هو : "فيليكس منفشة" بالذهاب إلى مؤتمر عام يضم كل الجمعيات اليهودية في مصر بحيث يخرج من اتحادها جميعا تنظيم واحد حدد "فيليكس منفشة" نسه أهدافه على النحو التالي :

• تركيز الاهتمام على عملية إنشاء الوطن اليهودي في فلسطين .

• جمع التبرعات لتنظيم ومساعدة حركة هجرة منظمة إلى فلسطين عن طريق مصر .

• العمل على إنشاء جامعة عبرية في فلسطين وجمع التبرعات لها (كانت تلك مقدمات لإنشاء الجامعة العبرية في القدس) .

• التحضير لإنشاء مركز طبي متقدم في فلسطين وجمع التبرعات لإنشائه (كانت تلك مقدمات لإنشاء مستشفى "هداسا" الطبي والتعليمي في القدس) .

ثم بدأ هذا النشاط الصهيوني للاممالات اليهودية بأخذ منحى خطيرا إلى حد أن اجتماعا عاما لكل المنظمات اليهودية في فلسطين عقد في الإسكندرية يوم ١٤ أغسطس ١٩١٨ ، وكان الذى تولى رئاسته هو "حاييم وايزمان" الذى كانت جهوده وجهود المنظمة الصهيونية العالمية التى يرأسها فى ذلك الوقت قد توصلت إلى إعلان "وعد بلفور" .

وفيما يبدو فإن هذا النشاط المتزايد للجالية اليهودية أطلق الحاحام الأكبر للطائفة اليهودية فى القاهرة ، وهو يومئذ "رافاييل هارون بن سيمون" ، فدب الخلاف بينه وبين العمدة الكبار للاممالات اليهودية فى مصر .

ولمست هناك تفاصيل كالمية حول هذا الخلاف ، لكن يئانا ملتفتا نشر فى مصر سنة ١٩٢١ أخبار إلى أنه "بعد نشوء سوء فهم بين مجلس الطائفة اليهودية فى مصر وبين الحاحام "رافاييل هارون بن سيمون" ، فإن الحاحام تخلس من وطئته وقرر أن يعتكف حتى نهاية حياته فى القدس" .

ثم كان أن اختار مجلس الطائفة اليهودية فى مصر حاحاما آخر هو "حاييم ناحوم أفندى" الذى كان حاحاما لإستانبول . وجاء "حاييم ناحوم أفندى" إلى مصر ، وكان هناك دور كبير ينتظره فيها ، وكان الرجل مؤهلا لهذا الدور . فقد كان ذكيا وهائلا ضليعا بملك معرفة واسعة باللغات الشرقية .

ولم تمش شهور على وصول الحاحام "حاييم ناحوم أفندى" حتى أصبح صديقا ومستخارا للملك "فؤاد" الذى كلفه بإعداد دراسة عن حقوق "الكنهوية المصرية" كما وردت فى الوثائق التركية ، وكان ذلك إبان اهتمام الملك "فؤاد" بمسألة الخلافة وإرثها من "آل عثمان" . ثم تقدم "حاييم ناحوم أفندى" خطوة تالية وأصبح عضوا فى مجلس الشيوخ المصرى . ثم خطوة أخرى ليصبح عضوا بارزا فى مجمع اللغة العربية ، وصديقا مؤثرا على النخبة الساسية الثقافية والفكرية فى مصر ، داخل القصر الملكى وخارجه .

وكانت هناك ظروف مساعدة لدور الحاحام "حاييم ناحوم أفندى" :

* منها مثلا أن "يوسف قسوى" باشا أصبح وزيرا للمالية فى أكثر من وزارة .

* ومنها مثلا أن عددا من اليهود دخلوا لعضوية مجلس النواب ومجلس الشيوخ ، وبينهم "رينيه قسوى" بك و"دى بتشوتو" بك .

* ومنها مثلا أن زوجة "يوسف قسوى" باشا أصبحت كبيرة وصفات الملكة "تارلى" .

* ومنها مثلا أن يهوديا من جنوب أفريقيا هو "أوزوالد فيلى" قام بتأسيس شركة الإعلانات الشرقية التى صدرت منها مجموعة من الصحف الإنجليزية والفرنسية ، بينها ،

"الإجيشيان مهل" ، و"الإجيشيان جازيت" ، و"اليورس إيجيسيان" وكان أن شركة الإعلانات الشرقية سيطرت بالكامل على سوق الإعلان الخاص في مصر ، وأصبح لها نتيجة لذلك نفوذ على الصحف المصرية الوطنية .

* و إلى جانب ذلك كله فقد كان في العصر الملكي نفوذ يهودي قوى . فإن مدام "سوارس" أصبحت عشيقة للملك "فؤاد" ، وهو أمر لاحظته السير "هرسي لورين" المندوب السامي البريطاني وكتب عنه أكثر من مرة في تقاريره إلى لندن .

كان هوى اليهود في مصر موزعاً بينها وبين حلم الدولة اليهودية ، وذلك يتضح من حقيقة أن الجالية اليهودية في مصر بدأت تجمع التبرعات لإنشاء مستعمرة في فلسطين تديها باسمها إلى المستوطنين المهاجرين . وقد تأسست هذه المستعمرة بتكلفة قدرها ثلاثون ألف جنيه مصري ، وافتتحت رسمياً سنة ١٩٣٣ وأطلق عليها اسم "كفار جودا" ... القرية اليهودية !

لكن الهوى الموزع ليهود مصر كان ما زال مشبوطاً بحرس يظهره الحاخام الأكبر الذي يترك حساسية وضع اليهود في مصر وهي في رأيه بلد عرسي . والحاخام يقر بحق اليهود في تأسيس دولة لهم في فلسطين ، إلا أنه ينصح كل الأطراف بالحدس . وقد بلغ من حدسه أن طلب إلى "موسيرى" باشا أن يألئ نظير معمول يهودي كبير هو "ليون كاسترو" أن "يبدأ قلئلا في جمع التبرعات للحركة الصهيونية" لأن ذلك من شأنه أن يخلق وضعاً يؤدي إلى إخراج اليهود في مصر ، وهو أمر لا لزوم له الآن !



وفي فترة ما بين الحربين كان نفوذ اليهود في مصر قد بلغ مداه تحت توجيه "حاييم ناحوم أفندي" ، وبفضل عمل ونشاط جالية أثبتت أنها تملك قدرًا هائلاً من الكفاءة والحيوية ، ومنحتها الامتيازات الأجنبية نوعاً من الحصانة يحميها ، ذلك أن كثراً من المهاجرين اليهود الذين تمكنوا من الثروة وجدوا مناسباً أن يطلبوا جوازات سفر فرنسية أو إيطالية أو أجنبية تعطيهم مزايا الأجانب أمام القانون ، وتحميهم مصادقاتهم مع الآخرين . وهكذا كان اليهود يحتلون ما نسبته ٣٩ ٪ من مقاعد مجالس إدارات جميع الشركات الصناعية والمالية في مصر ، وهي نسبة تتوافق لمصتهم في عدد السكان بمئات المرات .

* وبكل ما لهم من نفوذ مالى فقد شاركت عائلات منهم في إنشاء بنك مصر نفسه . وظهر اسماً "فليكوريل" و"موسيرى" ضمن الأعضاء المؤسسين لشركة .

• وكانت لهم شبه سيطرة مؤثرة على عدد من الشركات الزراعية بالتحديد ، وبينها شركة "وادي كوم أمبو" ، وشركة "لراشسي البهيرة" ، وشركة "الشيخ فضل الله" .

• وبفضل هذا الحجم من التأثير الاقتصادي فقد استطاعوا أن يجمعوا من حولهم دائرة من الساسة المصريين المتصلين أكثر من غيرهم بمجالات النشاط الاقتصادي ، وأبرزهم في ذلك الوقت "إسماعيل صدقي" باشا الذي أصبح وزيراً للمالية ورئيساً للوزراء عدة مرات ، كما أصبح رئيساً فيه دلائم لاتحاد الصناعات المصرية .

ويمكن أن يقال إن نخبة مصرية - يهودية ظهرت في تلك الفترة ومارست قدراً من التأثير في الحياة الاجتماعية واضحا وعلالا . وعلى سبيل المثال فإن فرقة "الياهويم" المسرحية التي أنشأها اليهود في فلسطين كانت لها مواسم في القاهرة ، وكذلك كان الحال مع الفرقة الموسيقية الفيلهارمونية اليهودية التي أصبحت فيما بعد الأوركسترا الأولى في إسرائيل بعد إنشاء الدولة العبرية .

وكانت الجامعة المصرية في فترة تألقها في الثلاثينات على صلة وثيقة بالجامعة العبرية الجديدة في القدس . وقام مديرها الدكتور "ماجنس" بدعوة زميله "لطفى السيد" باشا مدير الجامعة المصرية لحضور احتفال افتتاحها . ولم يتمكن "لطفى السيد" باشا من حضور الحفل ، ولكنه أناب عنه الدكتور "عنه حسين" الذي شارك في الاحتفال وألقى بنفسه كلمة جامعة "فؤاد الأول" هناك .

وفي سنوات الحرب وما تلاها مبالغة ، وعندما كانت إمكانيات السفر إلى أوروبا مقيدة ، واستيراد السلع محظورا علنا ، فإن "سلفاتور شيكوريل" بك صاحب محلات "شيكوريل" كان يغرر بأنه يجرى بأحدث وأفخر أزياء مصممي أوروبا - وكان كثيرون منهم قد نقلوا نشاطهم من باريس بعد أن احتلها الألمان ، إلى "بورجو" و"مريد" - وإن الثلاثي النسائي القوي في القاهرة وقتها : الملكة "نازلى" (الملكة الأم) ، والليدى "كيلرن" (زوجة السفير البريطاني) ، والسيدة "زينب الوكيل" (زوجة "مصطفى النحاس") ، يلبسن جميعاً مما يتسودده لهن ، وكذلك تغسل كثيرات من أميرات البيت المالكة وسيدات "الاجتمع الراقى" .

ومن الغريب أن ملقبي الإجازات المغفل في سنوات الحرب كان فندق "الملك داود" في القدس . وفي احتفال ليلة رأس السنة - ١٩٤٥ - كانت أهم الموائد في قاعة الاحتفال محجوزة لشخصيات مصرية جاءت لترى بداية العام الجديد في القدس !





وفي سنوات الحرب العالمية الثانية ، كان النشاط اليهودي الصهيوني في مصر على أشده . فالمئات اليهودية الكبرى أعادت إقامة المعسكرات لليهود الهاربين من ألمانيا النازية ومن المواقع التي انتشرت فيها الحرب في أوروبا . ومرة أخرى - كما حدث في الحرب العالمية الأولى - كانت مهمة المعسكرات تتخطى مسألة الإيواء المؤقت . وإنما أصبحت هذه المعسكرات مراكز تأهيل لتعليم اللغة العبرية والتأريخ اليهودي ، والتدريب العسكري . ومرة أخرى جرى تجنيد اليهود في كاثب اتسعت بالضمائم وحدات يهودية أخرى قدمت من أوروبا إليها وتشكل منها الفيلق اليهودي الذي اتخذ من منطقة بنج العرب في الصحراء الغربية مقرا لإقامته ، والذي أشرف على تدريبه الكولونيل "أورد وينجيت" ، وهو أكبر الخبراء البريطانيين في الحرب غير التقليدية ، وبينها حرب المدن وحرب العصابات .

ولما كانت مصر بطرف الحرب العالمية الثانية قد أصبحت مرة أخرى ميدانا من أهم ميادين الصراع فإن الاندماج بالعمل التطوعي للقرية من جنود الحلفاء أصبح واجبة مفعلة للنشاط اليهودي والصهيوني في مصر .

كانت هناك سيدات من الجالية البريطانية تقمن بهذا النوع من النشاط ، لكن العدد كان محدودا . وتطوعت بعض سيدات المجتمع المصري أيضا ، لكن عملية التطوع ظلت محصورة بسبب التقاليد . وأما بالنسبة لسيدات المجتمع اليهودي فلم تكن هناك عوائق من أى نوع .

وفي داخل هذا الإطار فإن النشاط الاجتماعي اليهودي (والصهيوني) المتصل بأحوال الحرب بلغ حدونا وثقودا من الصعب تصويرها . ومن ذلك مثلا أن أميرة مصرية (وهي "نازلى حلم") أعطت مزرعتها على طريق المنصورة لتكون ممسكرا لتدريب شباب "هاتشومير هاتسعيم" وهي حركة حراس المستعمرات الاستيطانية في فلسطين .



كانت هناك فترة انقطاع واحدة في هذا الجهد المتسع يوما ، وهي الفترة التي التزمت فيها جيوش "روميل" من الملمين ، وبدا أن جيوش الحلفاء عاجزة عن إيقاعها ، وبالتالي هرب اليهود هاربين إلى السودان ، ومنه إلى جنوب أفريقيا ، قبل أن تحصرهم جيوش الفيلق الألمانية الزاحلة . وفي هذه الفترة بلغ أفئدة اليهود إلى بعض المصريين من أصحابهم مقاربات

وأصلا كما "سحر التراب" كما يقولون . وعلى سبيل المثال فإن الوكالة اليهودية قدرت فيما بعد أن ممتلكات تساوي أربعين مليون جنيهه استرليني - بمئة ذلك الوقت - يهدت إلى باشوات مصريين بلش لا يزيد إجمالا عن مائتي ألف جنيهه .

لكن حملة "روميل" على مصر فشلت ، وعاد اليهود الذين هربوا إلى القاهرة أكثر شوقا وأكثر رغبة في العسل مما كانوا . وكان هناك من باشوات مصر من كانوا على استعداد لرد الجميل وإن لم يكن رد المقاربات والأصلاك !

وهكذا فإنه في سنة ١٩٤٣ أهدى إنشاء المنظمة الصهيونية في مصر تحت اسم "الاتحاد الصهيوني العام" ، وحضر اجتماعه وتحدث فيه كل من "دافيد بن جوريون" و"إسحاق بن زفي" (الذي أصبح فيما بعد رئيسا لدولة إسرائيل) .

وفي نفس الفترة فإن المايجور "أبا إيهان" أصبح أبرز المتحدثين باسم الجيش البريطاني في القاهرة . وكان "أبا إيهان" (الذي أصبح فيما بعد وزيرا لخارجية إسرائيل) مستقرا عربيا ، وقد مكث في ذلك الوقت - إلى جانب عمله في الجيش البريطاني - على ترجمة أعمال عدد من الكتاب المصريين الكبار إلى الإنجليزية ، وكان بينهم "توفيق الحكيم" الذي ترجم له "إيهان" كتابين هما : "صودة الروح" و"شمرزاد" .

وزاد على ذلك كله أن الملك "فاروق" كان قد فعل ما فعله والده الملك "فؤاد" من قبل ، فاختار لنفسه هبة يهودية هي "لبنين كيونيللي" .

ومن المقاربات أنه في الوقت الذي كان زعماء الطائفة اليهودية في مصر يستولون فيه على مساحة كبيرة من النفوذ في الطبقة العليا المصرية ، كان شبابهم يستولون بالكامل على الحركة الشيوعية في مصر . وفي ذلك الوقت ظهرت في مصر ثلاث حركات شيوعية فاعلة ونشطة :

- كانت هناك حركة "حديثو" (حركة ديمقراطية للتحرير الوطني) وكان يتزعمها يهودي من أصول رومانية هو "مئري كوريل" .
- وكانت هناك حركة "إسكرا" ("الفرارة" على اسم جريمة "لبنين" الشهيرة) وقد تزعمها "هيلل شوارتز" (يهودي من أصل ألماني) .
- وكانت هناك حركة "طلبة الطبقة العاملة" وكان يتزعمها "ريمون دويك" (يهودي مصري) .

وهكذا فقد بدا أن اليهود (باتجاهات صهيونية أو غير صهيونية) يملكون مواقع مهمة للتأثير على قمة المجتمع المصري ، وعند قاعدته في الطبقة العاملة . وفي المسافة ما بين القمة والقاعدة كان هناك تداخل كبير ومؤثر في المجتمع المصري ، فقد برزت في

مجالات الفن على سبيل المثال شخصيات يهودية لبعضها إسهام بارز في الحياة الثقافية والإعلامية في مصر .

وعلى سبيل المثال فإن أسرة "موصيري" أنشأت مجلة باسم "مجلة إسرائيل" كانت تصدر في ثلاث لغات في نفس الوقت : عبرية وفرنسية وعربية . وكان هناك عدد من اليهود بين مؤسسي نقابة الصحفيين المصريين .

وكان أهم شخصية في "الأهرام" - بعد رئيس تحريره - هو "حاييم إدجمان" مدير الإعلانات فيه . كما كان "إيلي بوليتي" أهم شخصية في جريدة "المصري" . وعند إنشاء "أخبار اليوم" سنة ١٩٤٤ كان مراسلها في لندن هو "جون كيمسلي" (ابن عم "نافيد كيمسلي" مسئول "الموساد" المشهور ووكيل الخارجية الإسرائيلية فيما بعد) ، كما أن مراسل الجريدة في نيويورك كان "جوزيف ليفي" الذي ظهر فيما بعد أنه هو الآخر من أبرز رجال تنظيم المخابرات التابع للوكالة اليهودية .



ومع قرب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وإحساس اليهود أن الوقت قد حان لإنشاء دولتهم في فلسطين ، فإن اتحاد المنظمات الصهيونية في مصر أصبح أكثر جراءة في عمله بإحساس أن الحلم الصهيوني في سباق مع الزمن . وعقد اتحاد المنظمات الصهيونية في مصر مؤتمرا كبيرا في شهر فبراير سنة ١٩٤٤ في الإسكندرية وفي بيت أحد كبار تجار القطن فيها وهو "ألبير روزانوف" . وكان منظم الاجتماع هو "إيلي بوليتي" (مدير مكتب جريدة "المصري" في الإسكندرية وقتئذ) ، وكان خطيب المؤتمر الرئيس هو الدكتور "فيلكس ألتمان" الذي أصبح رئيسا للاتحاد . وكان الخطاب الافتتاحي لـ "ألتمان" إنذارا بأن "الوقت قد حان لقيام دولة اليهود في فلسطين ، وإنهم إذا فشلوا في تحقيقها سلموا ، فإنهم سوف يحققونها حريا . ولقد كتب ذلك تظهر حكمدار بوليس الإنكندرية ، وهو يومئذ اللواء "جورج جيسر" باشا ، الذي كتب إلى السفير البريطاني في مصر اللورد "كيلرن" ، و إلى المستشار الفرقي في السفارة - السير "والتر سمارت" - بلقت نظرهما إلى أن النشاط الصهيوني في مصر - بدأ يتعدى الحدود المقبولة ، وإنه - بن المحصل إلى - يؤدي إلى توتر بين اليهود المصريين في مشكلة فلسطين ، وقد يؤدي في نفس الوقت إلى تأثيرات ليست مطلوبة حتى من وجهة نظر الصهيونية بالنسبة لشاعر الشعب المصري . وأخيرا فإن هذا النشاط قد يخلق تعهدات للحكومة البريطانية في مصر ."

ولكن اتحاد المنظمات الصهيونية لم يكن على استعداد لوقف نشاطه ، ووصل به الأمر إلى أن تقدم في صيف سنة ١٩٤٤ بطلب إلى رئيس الوزراء "مصطفى النحاس" باشا يطلب إليه "الاعتراف بالاتحاد كممثل للشعب اليهودي في مصر". وكان أن طلب "النحاس" باشا إلى وكيل وزارة الداخلية - "حسن رفعت" باشا - أن يستدعي زعماء الاتحاد الصهيوني في مصر وأن يبلغهم "أن الحكومة المصرية ترفض طلبهم ، وأكثر من ذلك فإنها قررت وقف نشاطهم".

وكان "النحاس" باشا وقتئذ مشغولا في عملية إنشاء جامعة الدول العربية . وكان قد دعا إلى مؤتمر لرؤساء الحكومات العربية يعقد في قصر "أنطونيناس" بالإسكندرية للبرام من إقرار نص ميثاق جامعة الدول العربية وتوقيعه . ومن الغريب أن رد الاتحاد الصهيوني على رفض "النحاس" باشا أنصرح له بالعمل رسميا كان الترتيب مع جماعة "فتحين" في فلسطين لنسف قصر "أنطونيناس" يوم الاحتفال بالتوقيع .

وكان المحرك للعملية هو "جابهوتسكي" نفسه ، وكان أهم المؤيدين لنشاطها رأساها يهوديا في مصر هو "ليون كاسترو" (الذي أصبح بيته على نيل الجزيرة فيما بعد مسكنا للرئيس "أنور السادات").

إن محاولة نسف قصر "أنطونيناس" بمن فيه يوم توقيع ميثاق جامعة الدول العربية لم تنجح . وكان أن تحولت منظمة "فتحين" إلى هدف آخر نجحت في تنفيذه بالفعل ، وهو اغتيال اللورد "والتر موين" الوزير البريطاني المقيم في الشرق الأوسط . وكان السبب في قتله هو معارضته لخروج هجرة مائة ألف يهودي من أوروبا إلى فلسطين .

ومن المفارقات أن اللورد "موين" قتل أمام مدخل بيت كان يستأجره سكنا له في الزمالك ، وكان صاحب البيت هو "داود حدس" ، وهو مليونير يهودي أيضا .

ويظل هناك سؤال معلق وهو :

هل كان يهود مصر من دعاة إنشاء إسرائيل لتكون وطنيا قوميا لليهود ، وهل كان في خيالهم أن تصل الأمور إلى ما وصلت إليه من علاقات مع مصر ؟

إن السؤال محير لأن الإجابة عليه بطريقة قاطعة تكاد تكون مستحيلة ، وربما كان الأقرب إلى الحقيقة هو القول بأن يهود مصر كانوا متعاطفين مع فكرة هجرة اليهود إلى فلسطين ، لكنهم كانوا يحدون حياتهم في مصر ولا يريدون استبدالها بأي حياة أخرى ولا حتى في الوطن الموعود . ولعل شأنهم في ذلك كان شأن غالبية يهود أوروبا ، بهمها مساعدة المهاجرين من اليهود ، لكنها لا تريد أن تلاحق بهم في أي مكان ، بل تفضل الحياة حيث هي .

ومن المحتمل أن بعض اليهود المصريين لم يجدوا تفاريا في السؤلا بهن رغبهم في قيام دولة يهودية ، ومن حياتهم في دولة مصرية - عربية أعطتهم مستوى من الحياة يصعب عليهم أن يتصوروه في أى مكان على الأرض .

وعندما بدأ توجه مصر إلى هويتها العربية يظهر ، فإن معظم يهود مصر حاولوا بكل جهدهم أن يسيطروا لتقليل سرعة الحركة .

وفي ذلك الوقت كان الحاخام "تاجوم" أفندى على اتصال دائم بالملك "فاروق" ، وتكررت لقاءاته مع رئيس الديوان الملكي بالنهاية "حسن يوسف" باشا . بل إن لقاءاته تكررت مع الملك "فاروق" نفسه . وقد حاول الحاخام الأكبر في إحدى المقابلات التي حضرها "حسن يوسف" باشا - وكتب تقريراً عنها لوزير في سجلات قصر هابدين - أن يقتح الملك بأن القدس حق لليهود .. "المسيحيون تركوا القدس وذهبوا إلى روما ، والمسلمون هجروا توجههم إليها وتحولوا إلى مكة ، وأما اليهود فقد بقوا طردوا العمر ويكون ضياعها" .

والغريب أنه حينما كان الحاخام الأكبر يتكلم فإن العمل على تهدئة الأمور كان ينتقل إلى عائلات الملك اليهوديات ، سواء في ذلك "ليرين كونهلي" أو واحدة أخرى صلا نجدها وتوسعت صلاتها في ذلك الوقت وهي "بولندا هاسر" التي لوقمت في نفس الفترة سياسيا عربيا بارزا في فرامها ، وهو السيد "تقى الدين الصلح" وكان يومها مساعدا للأمين العام لجامعة الدول العربية (ولم يكن قد تزوج بعد) .

وتولت عائلتنا "موصري" و"قطاوى" ترهيب لقاءات مع ساسة مصريين شارك فيها "دافيد بن جويون" (أول رئيس لوزراء إسرائيل) بنفسه ، وكذلك شارك فيها "موشى شروك" (أول وزير لخارجية إسرائيل) ، و"تاجوم جولدمان" (رئيس المجلس الصهيوني العالمي) ، و"إيهو ساسون" (المستشار الشرقي للوكالة اليهودية) .

والى نفس الوقت كان الدكتور "ماجنس" مدير الجامعة المصرية يتودد دعوة موجهة إلى مجتمع المفكرين والأدباء المصريين تدعوهم إلى المشاركة وبحث مستقبل مجتمع البحر الأبيض ، وتوافق ذلك مع استعداد أسرة "هراري" لإصدار مجلة "الكاتب المصري" التي رأس تحريرها الدكتور "طه حسين" . ومن الصحف أن يزعم أحد - كما يحلو للبعض الآن - أن الدكتور "طه حسين" كان يحمل لليهود . وإنما الصحيح - وهذا هو السياق التاريخي للحوادث - أن عميد الأدب العربي كان شريكا في الاعتقاد - سواء كان الخلاف أو الاتفاق معه - بالانتماء مصر إلى مجتمع البحر الأبيض ، وتلك هي رسالته في كتابه الهام عن مستقبل الثقافة المصرية . ويمكن أن يقال أيضا - وللانصاف - إن أسرة "هراري" نفسها لم تكن متأخرة في تصورها بأن مصر لا علاقة لها بمشكلة فلسطين لأن انتماءها الغالب هو إلى ثقافة البحر الأبيض المتوسط .

وفي نفس الوقت أيضا فإن الأحزاب الشيوعية الثلاثة تحت قيادة زعمائها ، وكلهم من اليهود ، كانت تسعى لتمطيل الاندفاع من موقف آخر طبقى ، وكانت حجتها أن الصراع هو في حقيقته بين الرأسمالية العربية والرأسمالية اليهودية ، وأن ضحاياهم المهاجرون المائدون من التمه في فلسطين ومهمهم الطبقة العاملة في مصر ، وكلاهما - المهاجرون اليهود والمسال المصريون - يجب أن يتحالوا معا ضد الرأسمالية المحلية المرتبطة بالرأسمالية العالمية .

وكانت المشكلة أعقد من هذا كله سواء في ذلك القصور ، أو الشركات ، أو الجامعات ، أو دور النشر ، أو الخلايا الشيوعية |

فرانكلين روزفلت

" أمريكا هي إسرائيل الوعودة وليست
فلسطين "

(الصفحة بين موجات الهجرة اليهودية الأولى إلى
العالم الجديد)

من المصادفات التاريخية اللافتة للنظر أنه في الوقت الذي ظهر فيه دور مصر في
العالم العربي - وبدأت هي نفسها تحرك هيبتها ودورها به - كانت الولايات المتحدة
الأمريكية تدخل إلى تجربة مماثلة . فمن خلال تجربة الحرب العالمية الثانية أدركت
الولايات المتحدة وقبلت أن تقوم بدور في العالم ترددت طويلا في قبول مسئولياته متوعدة أن
مستقبلها مكنول وراء هازل المحيط الأطلسي من الشرق والمحيط الهادي من الغرب .

وفي حين أن يهود مصر كانوا يحاولون تعويق وصول مصر لإمراك هيبتها ودورها ،
فإن يهود الولايات المتحدة كان لهم دور مماثل في تأثيره ، وإن اختلف اتجاه حركته .

كانت الحركة الصهيونية منذ البداية تركز بشدة على أوروبا لأسباب متعددة ، منها أن
أوروبا كانت في ذلك العصر مركز القرار الدولي . ثم إن أفكارها المتعملة أساسا في الثورة
الفرنسية بكل ما قالته من المساواة بصرف النظر عن الدين والعرق واللون ، كانت من الأفكار
المؤثرة بشكل ما في الفكر الصهيوني . ثم أضيف إلى ذلك دور "نابليون" وورثته اليهودية ،
ولحق بذلك دور بريطانيا في الشرق الأوسط الذي تهيؤة "نابليون" اليهودية ، ثم إن
بريطانيا أصبحت الدولة الحامية لليهود ، وهي الزاعية لمشروع دولتهم في فلسطين ،
الأمر الذي عبر عنه "وعد بلفور" الذي أصبح أساسا عمليا لفكرة إقامة دولة يهودية في
فلسطين .

فى تلك الحقب كانت الولايات المتحدة الأمريكية تبدو بعيدة ، وكانت هناك أسباب موضوعية تجعل يهودها يهيمون بمسألة ما هما كلن يجرى فى أوروبا . وكانت الأسباب الموضوعية لهذه الحالة تتمثل أساسا فىما يلى :

١ - إن عناصر الهجرة الأوروبية الأولى إلى أمريكا كانت أصلا من العناصر الأنجلو - ساكسونية ، ودافعها إلى الهجرة - ضمن أسباب أخرى اقتصادية - دافع دينى متشدد متأثر بالإنجيل وبما فيه من مسئولية اليهود عن صلب "المسيح" . وفى الحقيقة فإن كراهية اليهود كانت جزءا من ثقافة هؤلاء المهاجرين الأول إلى العالم الجديد . وكانت موجات الهجرة الأولى تلك متجهة إلى الجنوب الأمريكى الذى أصبح بالفعل مقلا للأنجلو ساكسونية .

٢ - إن موجات هجرة يهودية لحقت بالمهاجرين الأنجلو - ساكسون الأول . والحاصل أن موجات الهجرتين الثانية والثالثة إلى أمريكا كانت فى معظمها من شرق أوروبا ، واليهود عنصر رئيسى فيها . وكان وجود اليهود من هذه الموجات مركزا فى المدن وعلى الساحل . فاليهود يتجسسونهم التلخيفية قريبين من مجالات التجارة والمال ، وهذه موقعها المدن والموانئ وليس العمق أو شرس البرارى البعيدة والخطرة فى ذلك الوقت باحتمالات الصدام مع سكان القارة اللاتامى من الهنود الحمر .

٣ - وعندما بدأت موجات الهجرة الكثيفة من شرق أوروبا فى القرن التاسع عشر فإن أعدادا كبيرة من اليهود المهاجرين من الشرق اعتبروا أن "الأرض الموعودة" هى أمريكا وليست فلسطين . وهكذا فإن الحركة الصهيونية ، وبالثبات على أيام "هيرتزل" ، نزعمت إلى الشك فى أن أمريكا مركز منافس أكثر منه مركزا مساعدا على مشروعاتها الصهيونية . وكان قلق المنظمات الصهيونية من التحويل الأمريكى شديدا ، لأن اليهود الذين سبقوا بالهجرة إلى أمريكا بدعوا يتكثرون إلى عائلاتهم وإلى أصدقائهم يدهونهم إلى القارة الجديدة وينصحونهم بأن أمريكا هى فى الواقع "إسرائيل الموعودة" . وكان ذلك يأخذ من المشروع الصهيونى ولا يعطيه . فاليهود الذين ذهبوا إلى أمريكا تطلوا تماما عن فكرة العودة إلى فلسطين وراحوا يدهون شيرهم إلى التخلي أيضا .

٤ - وبطبيعة الحيوية التى اكتسبتها حركة المجتمع الأمريكى - مجتمع جديد تخلص من عقد التاريخ - والفرص فيه مفتوحة والامتيازات الطبقية لم تعرف طريقها إليه بعد - فإن أعدادا كبيرة من اليهود المهاجرين من شرق أوروبا راحوا يبرزون على سطح مجتمعات العالم الجديد خصوصا فى مجالات المال والنفوذ والإسلام . وكانت قوة الحراك الاجتماعى فى العالم الجديد تغطى لهؤلاء جميعا فرسا ظاهرة للتأثير لا يحتاج أصحابها كما هو الحال فى أوروبا إلى إخفائها أو التصل منها أو الاعتذار عنها إذا عرفت وبانت . وكان هؤلاء اليهود الأمريكيون يطمحون إلى زيادة أعدادهم تدعيمها لواقعهم فى العالم الجديد كنوع من تمييز

فدورهم التنافسية إزاء عناصر عراقية ودينية وطائفية أخرى وجدت لنفسها مكانا في قارة "الفرس المفتوحة".

٥ - وبعد فترة من المنافسة بين المركز الصهيوني الأوروبي الداعى إلى الهجرة للفلسطين وبين المركز اليهودى الجديد فى أمريكا المطالب بالهجرة عبر المحيط ، فإن الحركة الصهيونية فى أوروبا أدركت أن عليها أن تتنازل أو تدخل فى صدام يهودى - يهودى . ومع الاضطرابات التى سادت أوروبا فى أعقاب حرب السبعين ، فإن الحركة الصهيونية الأوروبية بدأت تدرك أن المركز اليهودى الجديد فى أمريكا يمكن أن يكون قوة دعم لها ، وليس مجرد منافس يمتزج خططها ، خصوصا مع إدراك القيادة الصهيونية فى أوروبا إلى حقيقة أن هناك قدرة استيعابية محدودة للفلسطين ، ثم إنه ليس من مصلحة المهاجرين اليهود حصرهم جميعا فى الشرق . وكان مما ساعد على مد الجسور بين يهود أمريكا وبين الحركة الصهيونية فى أوروبا ظهور عدد من الشخصيات اليهودية المؤثرة فى المجتمع الأمريكى ، وهى شخصيات تستطيع بمقدراتها المالية وولائها العرقى أن تصبح مددا لليهود فى دولة تقوى اقتصاديا وسياسيا وعسكريا بسرعة كبيرة . وهكذا فإنه فى سنوات ما بين الحربين أصبح يهود أمريكا قوة دعم مادى ومعنوى ملهى للحركة الصهيونية الأوروبية . لكن الأمر حتى ذلك الوقت لم يعتمد كتابة المقالات وإقامة الحفلات وجمع التبرعات .

وكان أقصى ما حاولته الجهود الصهيونية للتأثير على رأى العام فى أمريكا هو محاولة تصوير حلم إسرائيل وكأنه تكرار للمغامرة الأمريكية الكبرى : هجرة من الاضطهاد - حركة استيطان فى أرض جديدة - خطر عدائى من سكان محليين لا يحسنون استقبال الأرض التى يحفون عليها ، ويمنون الأقدر والأقوى من تحقيق حلم طموح وبشرى .

٦ - ثم كانت نقطة التحول الكبرى المتمثلة فى الحرب العالمية الثانية . فقد تقدمت الولايات المتحدة إلى المعركة ضد "هتلر" وهو العدو الرئيسى لليهود . وقد نجحت بريطانيا فى تجنيد وتوجيه عشاء اليهود الأمريكيين لـ "هتلر" للضغط على المجتمع الأمريكى ليرضى بالحرب مرة أخرى فى أوروبا . وبالطبع فإن إنجلترا استخدمت يهود أوروبا والحركة الصهيونية القوية فيها كجسر اتصال مع يهود أمريكا . وأدى ذلك بدوره إلى لقاء حميم بين المركزين الأوروبي والأمريكى فى الحركة اليهودية والصهيونية .

٧ - وأكثر من ذلك ، فإن دخول الولايات المتحدة الأمريكية إلى ساحة الحرب العالمية الثانية - وقادة معسكر الحلفاء فيها يوافق الأمور - أتى بالولايات المتحدة إلى قلب الشرق الأوسط وهو من أهم وأخطر ميادين الحرب وساحاتها العسكرية والسياسية . وفى التفكير الأمريكى لئلا ما يبعد الحروب - حتى مع استمرار معاركها - فإن الولايات المتحدة بدأت

محاولة لتعريف وتوصيف مصالحها في هذه المنطقة القريبة منها . وأظهرت الدراسات - وفقا لما تقول به الوثائق الأمريكية - حقيقتين حول السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط .

أولاهما - أن المنطقة سوف تصبح في مستقبل قريب جدا أهم منابع النفط في وقت تتضاءل فيه الموارد الأمريكية نسبيا وترتفع تكاليف استغلالها .

وثانيتهما - أن المنطقة هي قلب العالم الإستراتيجي بعد الحرب ، وبالتالي فهي مكان يهتم على الولايات المتحدة أن ترتب نفسها لوجود طويل فيه ، كما أن عليها أن تخلق أسسها وهياكلها ملائمة لهذا الوجود الطويل على كل المستويات السياسية والاقتصادية والعسكرية .

٨ - ومع إدراك السياسة الأمريكية بأن مصالحها العالمية مع العرب حيث مواطن البترول فإن تتابع الحوادث على مصارح العمليات في الشرق الأوسط وضع يذورا وجدت من يراها فيها بعد . ذلك أن تقدم الفيلق الألماني بقيادة المارشال "روميل" في الصحراء الغربية - سنة ١٩٤٢ - حتى العنبرين ، واستمده بعد ذلك لاختراق دلتا النيل إلى قناة السويس ثم إلى فلسطين ، أحدث قلقا هائلا بين اليهود في العالم . فوصول جيوش "هتلر" إلى فلسطين كان كليليا بتفتحت قرابة ربع مليون يهودي هاجسوا إليها واستوطنوا فيها .

كانت أمريكا قد شاركت في الحرب في ديسمبر ١٩٤١ . ومع تقدم معركة العنبرين ، ومع الخوف من تقدم "روميل" إلى فلسطين ، فقد بدأت صحة يهود العالم - متوافقة مع إلحاح إنجلترا وبهاية الحلفاء الأوروبيين - بضرورة العمل على وقف زحف "روميل" فورا نحو قناة السويس وفلسطين . وهكذا فإن أول ظهور للدبابات الأمريكية كان على مسرح الشرق الأوسط مشاركة في معركة العنبرين . كما أن السلاح الأمريكي وصل إلى الفيلق اليهودي الذي توجه بسرعة إلى فلسطين . ثم إن الأسلحة الصغيرة الأمريكية بدأت توزع على المستوطنين في المستعمرات حتى يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم إذا وصل الغزاة الألمان إلى أسوار مستعمراتهم في فلسطين .



كان واضحاً في ذلك الوقت أمام الحركة الصهيونية وغيرها من تعاليم موازين القوى في العالم ، أن الولايات المتحدة الأمريكية سوف تخرج من الحرب العالمية الثانية متريعة على قمة العالم سواء من الناحية الاقتصادية أو العسكرية ، أو التأثير الدولي الواسع بما في

ذلك سلطة رسم خرائط ما بعد الحرب . وكان على الحركة الصهيونية أن ترتب نفسها لهذه الحقيقة الجديدة الحاكمة في عالم متغير . وكانت سياساتها التي طرحت نفسها – تلقائيا ومنطليا – هي أن يكون يهود أمريكا هم الجسر الذي يعبر عليه مشروع إقامة الوطن اليهودي في فلسطين من أحضان أوروبا إلى حضان أمريكا .

ومن الواضح أن يهود أمريكا أصبحوا على استعداد لأسباب كثيرة :

• بينما بداية معرفة تيلورت لديهم بما حدث لليهود في ألمانيا ثم في أوروبا التي خفسح معظمها للاحتلال النازي سنوات الحرب . وكانت المعلومات في هذا الشأن متوفرة من قبل الحرب عن طريق موجة الهجرة في الثلاثينات ، وقد حملت إلى الشواطئ الأمريكية يهودا من طراز "ألبرت آينشتاين" وحتى طراز "فلري كيمسجر" . ثم لحق بذلك ما تسرب من معلومات عما كان يجري وراء دخان الحرب .

• ومن نتيجة ذلك أنه تولد لدى يهود الولايات المتحدة إحساس بنوع ما من عقدة الذنب ، وقلدوا أن في استطاعتهم التعويض عنه بمنح شبه كامل بين الحركة الصهيونية في أوروبا وبين نظيرتها الأمريكية التي كانت قوتها تتنامى .

• ولم تكن الحركة الصهيونية في أوروبا تزيد من يهود أمريكا مجرد حلقات تجمع فيها التبرعات ، وإنما كانت تزيد منهم أن يحملوا لواء الولايات المتحدة أو الجزء الأكبر منها وراء المشروع الإسرائيلي ، وذلك بالتأييد السياسي والدمع المعلى الاقتصادي كان أو عسكريا .

• وكانت أهم مقولات الحركة الصهيونية الأوروبية لنظيرتها الأمريكية في تحديد الواجبات المستقبلية هي القول بأن "يهود أوروبا استطاعوا الحصول على الوعد بالدولة – وعد بالفور – وقد أوفوا على تحقيق قيام الدولة بمقتضاه ، وعلى يهود أمريكا أن يستكملوا الطريق بتحقيق هدفين تحديدا بوضوح ، وهما :

١ - تأكيد وتثبيت قيام الدولة .

٢ - تحقيق اعتراف العرب بقضاياها باعتبار أن ذلك هو الضمان الشرعي الوحيد لبقائها . فمن الممكن للطرف الأقوى أن يفرض على طرف أضعف منه أمرا والقسا بعبءه ، لكن ذلك لا يحلّق لهذا المراد شرعيته ، وإنما تستقر الشرعية حين يقدم الضعيف اعترافه بالامر الواقع حتى وإن كان مغروها عليه .



كان اجتماع "بالتيمور" هو الموعد الذي التقت فيه كل التنظيمات الصهيونية في أوروبا وفي أمريكا . إن "بالتيمور" فندق صغير في نيويورك قدر له فيما بين ٩ - ١١ مايو سنة ١٩٤٢ أن يشهد امتزاج الصهيونية الأوروبية مع الصهيونية الأمريكية لتكون من الالفتين قوة واحدة وراء مشروع الدولة اليهودية في فلسطين . ثم أن يكون هذا المشروع تحت رعاية وحماية القوة الجديدة اليازرغة في العالم وهي الولايات المتحدة الأمريكية .

كان لقاء الحركة اليهودية (الصهيونية) الأوروبية مع الحركة اليهودية الأمريكية - (التي انتقلت إليها العدوى الصهيونية بسرعة) - لقاء شديد الخطورة في تاريخ اليهود وإسرائيل عموما . فقد كانت لكل من هاتين الحركتين صفاتها وخصائصها :

● فاليهودية (الصهيونية) الأوروبية كانت بالدرجة الأولى لديها مشكلة اشتغلت طويلا بالفلسفة ، وأطالت التفكير في التاريخ وانتقلت منه ما شاعت ، وكتبت مذكرات بآرائها وألفت كتبها ، كما أنها كانت تضم مجموعات من كبار الرأسماليين الذين يفضلون العمل بهدوء ومن وراء الستار . وكان معظمهم من رجال البنوك الذين يفضلون أن يكون تأثيرهم بعيدا عن الأضواء . وكانت صلة الفريين (المثقفون والرأسماليون) بالسياسة صلة بالهمس وبالطريق الغير مباشرة فسي معظم الأحيان ، وبالتصالات خلفية مع رؤساء الوزارات في إنجلترا ، والسلاطين في إسطنبول أو القاهرة .

● وأما اليهودية (الصهيونية) الأمريكية ، فإنها كانت من نوع آخر . كان توجهها عمليا لا يتوقف كثيرا أمام النظريات . وكانت منشقة أكثر منها متفلسفة ، وكانت قادرة على التأثير الجماهيري المباشر عن طريق التصانيف بجالات الفنون والإعلام والنشر . وفوق ذلك فإن المجتمع الأمريكي أعطاهما الفرصة لتتصرف دون علق . وقد لاحظ "بن جوريون" نفسه هذا الاختلاف بين يهود أوروبا ويهود أمريكا ، وعبر عنه بقوله "إن اليهودي الأوروبي تمرد أن يكتم مشاعره إذا أحس بالتمييز ضده ، وفعل عكس ذلك فإن اليهودي في أمريكا مستعد لأن يصرخ بأعلى صوت إذا أحس بشبهة تمييز ولو من "يهود" .



وشاركت في مؤتمر "بالتيمور" ستائة شخصية من أوروبا وأمريكا . وحضر "حاجيم وايزمان" و"دافيد بن جوريون" و"ناحوم جولمان" . وكان عليهم أن يخطوا لليهود الأمريكيين فكرة كاملة عما تحلق في المشروع الصهيوني منذ بدايته وحتى الآن . وحضر من اليهود

الأمريكيين ضد كبير من الرجال البارزين في الحياة العامة في الولايات المتحدة ، وبينهم "ليون جيلمان" و"أليس ليبسكي" و"إسرائيل جولدشتاين" والحاخام "إيهاميل سيلفر" وغيرهم. ثم اتخذ المؤتمر مجموعة قرارات أعلنتها وسط حملة إعلامية وسياسية مكثفة .

كان إعلان "بليتيمور" عملية تأكيد لما حققته الحركة الصهيونية في أوروبا حتى الآن من الهجرة إلى الاستيطان إلى وعد بلفور إلى وضع قوانين بناء مشروع الدولة فضلا في الفترة اللاحقة وحتى قيام الحرب العالمية الثانية . وهنا لم ينس المؤتمر أن يجهد بجهود الفعاليات اليهودية في ميادين القتال مما يعطى للدولة اليهودية المنتظرة حقا لا ينازع في صياغة عالم ما بعد الحرب .

وكان هذا حديث الماضي . وانتقل بيان "بليتيمور" بعده إلى حديث المستقبل ، فهذا في المادة الثامنة منه بإعلان مؤتمر يقول "إن هناك نظاما عالميا جديدا سوف ينشأ بعد انتهاء هذه الحرب . وفي ظل هذا النظام العالمي الجديد فإن الصلة بين الشعب اليهودي وبين أرضه في فلسطين لا بد أن تتأكد وتحقق ذاتها بقيام دولة إسرائيل لتعطى اليهود حقوقهم التي هي مطلب شرعي وتاريخي لهم بعد ألفي سنة من الغياب في التيه . ثم مضى بيان المؤتمر يحدد ثلاثة أهداف للمستقبل القريب يتحمل مسئوليتها يهود أمريكا أكثر من غيرهم :

١ - فتح أبواب الهجرة في فلسطين أمام اليهود دون أي قيود يشمها طرف محلي أو دولي .

٢ - ضرورة مساعدة المجتمع الصهيوني في إنشاء الدولة ، وذلك عن طريق مساعدات مادية وسياسية وعسكرية كافية لتحقيق هذا المطلب .

٣ - اعتبار الدولة اليهودية المنتظرة جزءا من بناء العالم الديمقراطي الجديد الذي ستكون قيادته دون منازع للولايات المتحدة الأمريكية .

وكانت هناك أصوات يهودية ارتفعت بالاعتراض على قرارات المؤتمر ، وتدخلها من احتمال أن يؤدي برنامج "بليتيمور" إلى إدخال يهود أمريكا في مشاكل كبيرة بعد الحرب ، بما في ذلك ما يبدو من دلائل تشير إلى وجود حركة قومية عربية في المنطقة سوف تصادم يقينا مع مشروع الدولة الجديدة . وهذا من شأنه أن يزعج يهود فلسطين ويهود العالم وراهم في حرب معتدة لأن أي إدهاء بالعودة بعد ألفي سنة من الغياب يفرض على العائلين - أرادوا ذلك أو تردوا دونه - أن يزيحوا و"يكنسوا" حيزا يتسع لهم في منطقة ملأها التاريخ بالقوام جدد عاشوا فيها وانتصروا إليها وأصبحوا كل نسجها الوطني .

لكن أصوات التحفظ والاعتراض ضاعت في الهواء ، وأكثرت معظم التجمعات اليهودية .
في الولايات المتحدة قرارات مؤتمر "بالتيمور" ، وخرجت نشيطة تنبئها وتمثل على
تحقيقها .



وكان الرئيس الأمريكي "فرانكلين ديلانو روزفلت" على وشك أن يرفع نفسه للرئاسة
مرة رابعة ، وهو امر غير مسبوق في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية . وكان منافسه
الجمهوري في هذه الانتخابات "ويندل ويلكى" صاحب نظرية شهيرة لخصها في كتاب
أصدره في ذلك الوقت بعنوان "عالم واحد" ، مؤداه "أن العالم خارج بعد تجربة الحرب
العالمية الثانية إلى قرية عالمية واحدة" . وكانت دعوة "ويلكى" تلقى استجابة . والحرب
ضد "هتلر" على وشك أن تنتهي بانتصار الحلفاء . وكان "روزفلت" في حاجة إلى كل
الأموات ، وإلى كل أدوات التأثير ، وإلى كل الأموال اللازمة لدعم حملته الانتخابية .

وتوجه "روزفلت" يطلب مساعدة عدد من الشخصيات اليهودية بينهم "ستيفان وايزر"
(وهو حاكم شهرين) ، و"فيلكس فرانكلوفتر" (وهو رئيس المحكمة الدستورية العليا) ،
و"برنارد باروخ" (وهو أقرب المستشارين إليه) ، و"هنري مورجنشاور" (وهو وزير خزانته) .
وربما كانت تلك أول مرة في التاريخ يمارس فيها اليهود دوراً منظماً في معركة
انتخابات لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية .

ويمكن أن يقال إن "روزفلت" كان واقفا تحت تأثيرين متناقضين :

- دله الانتخابي لقوة اليهود مائل أمامه ، من ناحية .
- ومن ناحية أخرى فإن خبراء وزارة الخارجية ، مضافا إليهم مجموعة من
أصحاب شركات البترول ، يلتفتون نظره إلى أهمية المصالح الإستراتيجية
والبتروولية للولايات المتحدة في الشرق الأوسط ، وكلها واقعة في بلاد عربية .

وبدأ "روزفلت" يحاول أن يجد لنفسه خطاً وسطاً ، وكان ذلك صعباً لأن الدين
الانتخابي لليهود لم يكن قاصراً على رئيس الولايات المتحدة ، وإنما امتد تأثيره إلى
كثيرين من أعضاء الكونجرس . وكانت تلك نشأة ما عرف باسم "الولسي الصهيوني"^(١) .

(١) كلمة "ولسي" (lobby) تعني مدخل الصور أو اللوبي الكبير وممراتها ، وهي بذلك ترمز إلى وكالة
ووسطاء المصالح التي تتعقب الناسة عند دخولهم أو خروجهم من الاجتماعات لتتسرد بهم دقيقة أو دقيقين ،
تضمن إليهم بالكلمات أو بالصور إلى ما ساهروا وساعدوا .

وكانت معركته الأولى هي فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية لكي تقوم "دولة إسرائيل" !

وأصبح اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة ظاهرة غريبة حتى بين جماعات الضغط التي عرفتها الحياة السياسية الأمريكية .

كانت هناك من قبل في الولايات المتحدة جماعات ضغط تنتمي إلى أصول أوروبية من حيث جاء المهاجرون إلى العالم الجديد وحاولوا أن يحافظوا على شيء من الهوية والصلة بأعراقهم القديمة . كانت هناك مجموعة الضغط الأيرلندية ومقرها ولاية "ماساتشوستس" ، ومجموعة الضغط الإيطالية ومقرها ولاية "كاليفورنيا" .. إلى آخره .

لكن مجموعة الضغط الصهيونية كانت كيانا مختلفا ، فهو يمثل بلدا لم يحصل منه مهاجر إلى أمريكا ، ولن يصود منه مهاجر إلى الشرق الأوسط ، والكل لا يعرف لفته ، وحتى أجداد الأجداد من المهاجرين اليهود لم يروا بأعينهم ، ولا يتذكرون منه أو عنه شيئا !

مصحف غسسى النحاس

" قبل للنحاس باقا إلتى لم أجدك مطلقا من
دولة يهودية فى فلسطين "

(تعليمات من وزير الخارجية الأمريكى إلى وزيره
المفوض فى القاهرة)

كانت المعركة الأولى التى خاضتها الجماعات اليهودية الصهيونية فى الولايات المتحدة
هى معركة فتح أبواب فلسطين أمام الهجرة اليهودية ، وإلغاء الحدود التى وضعتها السياسة
البريطانية فى ظروف خطر الحرب العالمية ، ثم وقوع هذا الخطر فعلا . وكانت السياسة
الرسمية الأمريكية تتفهم الدواعى البريطانية إلى وضع هذه الحدود ، لكن الجماعات اليهودية
الصهيونية لم تكن على استعداد لتقبلت الفرصة السانحة بصرف النظر عما تراه السياسة
الأمريكية من اعتبارات . وفى واقع الأمر فإنه لم يكن هناك خلاف كبير على الهدف ،
ولكن الخلاف كان على الأسلوب بما فى ذلك ملاسة التوقيت . وهكذا بدأت خطى
السياسة الأمريكية مرتبكة ، ويظهر ذلك أكثر ما يظهر من دراسة لبعض وثائق البيت
الابيض ووزارة الخارجية الأمريكية سنة ١٩٤٤ :

• وثيقة رقم ١١/٢٣٧٣ ٠١/٨٦٧

مذكورة من أنولف بهول (مساعد وزير الخارجية الأمريكى)

التاريخ : ٢٨ يناير ١٩٤٤

عزيزي الوزير ،

أرفق لكم مع هذه المذكرة نص مشروع القرارين رقمي ٤١٨ و ٤١٩ المروضين
على مجلس الشيوخ ومجلس النواب ، وهما بنفس الصيغة :

٣ الكونجرس قسرو :

الطلب إلى حكومة الولايات المتحدة بأن تبذل كل مساعيها الحميدة وأن تقوم
بكافة الخطوات الضرورية لفتح أبواب هجرة اليهود إلى فلسطين ، وأن يكون لهم
الحق في استعمار هذه البلاد وإنشاء دولة يهودية حرة ديمقراطية فيها .

إن زعيم الأقلية في مجلس النواب جون ماكورمك وكذلك زعيم الأقلية
جوزيف مارتين في نفس المجلس اتصالا بي تليفونيا وأبلغاني بهذا المشروع ، وطلبا
تقديمه لك .

إمضاء

أدولف بهيرل

• وثيقة رقم ١٧١٨٧/١٠١ ن ٨٦٧

مذكرة من حديث بين مساعد وزير الخارجية أدولف بهيرل والوزير المفوض
البريطاني السير رونالد كامبل .^(٣)

التاريخ : ٣١ يناير ١٩٤٤

جاء رونالد كامبل ليرائي ويتحدث معي في شأن قرار الكونجرس بفتح أبواب
الهجرة اليهودية إلى فلسطين وإقامة دولة يهودية في هذا البلد . وقد بدأ كلامه
معي بقوله إن الحكومة البريطانية لا تود أن تخلق على عمل السلطة التشريعية
الأمريكية ، ولكنه يريد أن يلفت نظركم إلى أن الموضوع الذي تتعرض له القرارات
يتضمن التزامات كبيرة بينها التزامات عسكرية . إن القرار البريطاني في هذا
الشان سوف يكون متماخيا بالطبع مع الرغبات الأمريكية . لكن ذلك يقتضي أن تكون
حكومة الولايات المتحدة على علم بالأصناف المترتبة على ذلك .

إمضاء

أدولف بهيرل

(٣) وزير مفوض في السفارة البريطانية في واشنطن ولانها ، وأخيرا بعد سفره لبريطانيا في الفترة ، وكان هو
السفير الذي خلف اللورد "كيران" سنة ١٩٤٥ واستمر في الفترة إلى ما بعد حرب فلسطين

• وثيقة رقم ٧٤٤ - ٠١/٧ ن ٨٩٧

ملكرة من وزير الخارجية هنري ستيمسون إلى السناتور كوتلى رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ .
التاريخ : ٧ فبراير ١٩٤٤

هنري السناتور كوتلى

تلقيت خطابك الذى يتضمن نص قرار الكونجرس بشأن فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية بدون حدود . وأود أن ألفت نظرك إلى أن هذا القرار ينطوى على أمور مهمة بالنسبة لوزارة الحرب . ذلك أن أى صدام بين اليهود والمسلم الآن سوف يتطلب الاحتفاظ بقوات عسكرية كبيرة فى منطقة الشرق الأوسط ، فى حين أن ضرورات الحرب ضد ألمانيا تقتضى توجيه هذه القوات إلى مبادىء أخرى أكثر تأثيراً على مجرى الحرب .

إمضاء

هنري ستيمسون



وبدأت بعض الدول العربية تلتزم إلى ما يجرى فى واشنطن وتستثمر آثاره عليها .
وتمضى الوثائق طبقاً للوثائق :

• وثيقة رقم ٧١٩٣ - ٠١/٧ ن ٨٩٧

ملكرة عن مقابلة بين إرنارد ستينهاوس وكيل وزارة الخارجية وكل من الوزير المفوض لمصر محمود حسن باشا والوزير المفوض للصراق على جويوت .
التاريخ : ٩ فبراير ١٩٤٤

هنري الوزير

حضر لثابتي بناء على طلبهما كل من الوزير المفوض المصرى والوزير المفوض المراكشى وقد دام لثلاثى منهما خمسا وعشرين دقيقة .

إن الوزير المفوض المصري بدأ الحديث بالإعراب عن قلق حكومته الشديد من قرار الكونجرس بشأن الهيكلية الفلسطينية . وقد أخبرني أنه التقى بالرئيس روزفلت عدة مرات في الشهور الأخيرة وسمع منه تأكيدات من أن كل موضوع فلسطين بما في ذلك موضوع فتح أبوابها لهجرة اليهود سوف يؤجل إلى ما بعد انتهاء الحرب . لكن قرار الكونجرس الأخير يدخل مصرًا جديدًا إلى الموضوع . وإن رئيس وزرائه مصطفى النحاس باءًا طلب إليه الحصول مذا على إعلانات في هذا الأمر .

وقد انضم الوزير العراقي إلى زميله المصري ملحا على ضرورة تأجيل موضوع فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية للمناقشة بعد انتهاء الحرب .

ومن جانبى فقد عرضت للسيد أن وزير الخارجية "كورد هيل" يتابع الموقف باهتمام وإننا نقدر أنهما جاءا إلينا بوجهة نظرهما .

إمضاء

إدوارد ستكنهوس

• وثيقة رقم ١٩٨٥/١٠١ ن ٨٩٧

برقية من الوزير المفوض في بغداد لوى هندرسون إلى وزير الخارجية .

بغداد : ١٤ فبراير ١٩٤٤ الساعة السادسة مساء

عزيزى الوزير

طلبني أمس رئيس الوزراء نوري (السعيد) باءًا وقال لي إنه سوف يكون ممثلاً لو قلت بإبلاغ حكومتى برقيا بالقلق الشديد من الضغط الذى تمارسه الجماعات الصهيونية على السياسة الأمريكية . وإن القنود الصهيونى المتنامى فى الولايات المتحدة قد يحمل إلى موقع القرار الأمريكى مسئولين وأقمن تحت هذا التأثير الصهيونى ، مما يؤثر على العلاقات مع العرب ، ومما يخدم المبادئ الملته فى ميثاق الأطنطى وفى إعلان الأمم المتحدة . إن نوري باءًا أثار إلى التأثير الصهيونى على أعضاء مجلس الشيوخ البارزين ، وهو أمر بدأ فى تصريحات السناتور واجستر والسناتور تافت والسناتور باركلى . وكلهم أبدوا فى تصريحات تم نشرها على نطاق واسع ضرورة فتح الأبواب لهجرة اليهود إلى فلسطين . وقال نوري باءًا إن

مثل هذه التصريحات سوف تخلق شعوراً بالعداء ضد أمريكا ، وهو شعور قد تستغله الدعاية النازية ، وإنه سمع بنفسه من راديو برلين باللغة العربية تحريضاً هديداً للعالم العربي بسبب هذه المسألة ضد الولايات المتحدة . وقال لي تسوري باشا إن العرب لا يملكون من وسائل التأثير في الكونجرس ما تملكه الجماعات الصهيونية ، لكنه يأمل أن تقوم الحكومة الأمريكية بما تراه لازماً لعمل شيء من التوازن .

إمضاء

لوى هندرسون

● وثيقة رقم ١٧٢٠٩ ن ٨٩٧

برقية من القائم بالأعمال في دمشق فاريل إلى وزير الخارجية .

دمشق : ٢٤ فبراير ١٩٤٤ الساعة الثانية بعد الظهر

استدعاني وزير الخارجية السوري إلى مكتبه وسلمني رسالة احتجاج صدر بها قرار من مجلس النواب السوري محال إليه من فارس الخوري رئيس المجلس وهو احتجاج موجه إلى الكونجرس الأمريكي . النص كما يلي :

"إن قرارات الكونجرس الأمريكي بشأن قيام دولة يهودية في فلسطين توجه ضربة مميتة إلى الحقوق العربية . وإن الدول العربية جميعها التي وضعت مواردها في خدمة الحلفاء لتحقيق النصر تضرر بالخيانة من أثر هذه القرارات التي تراها مخالفة لكل المبادئ المعلنة في ميثاق الأطلسي . إن إعطاء ميزات لليهود على حساب العرب لا يمكن تبريره أو قبوله ، ونحن نطلب أن توضع الحقوق العربية في فلسطين موضع اعتبار قبل أي قرار ."

إن وزير الخارجية السوري الذي سلمني هذا القرار أضاف أن حكومته تشارك مجلس النواب السوري فيما أحرب عنه من مهاجر وآراء ، وإنه يأمل أن تأخذ الحكومة الأمريكية ذلك كله مأخذ الجهد وتعالج الأمر باهتمام ومسئولية .



كان الجيش الأمريكي بعيداً عن تأثيرات حملات الضغط اليهودي والصهيوني حتى ذلك الوقت ، ولم يكن في صف العرب بالطبع ، ولكن المتصور الوحيد الذي يحكمه وقتها هو الضرورات العسكرية ، وكان الجيش الأمريكي متخوفاً من فتح أبواب الهجرة اليهودية إلى فلسطين - وإنما لأسبابه الخاصة - وتتواصل الوثائق :

• وثيقة رقم ٣٦٤٤ - ١٠١/٧ - ٨٢٧

مذكرة من مساعد وزير الحربية (جون ماكلوسى) إلى مساعد وزير الخارجية (لوج) .

واشنطن : ٢٦ فبراير ١٩٤٤

إحالة بخديشى التليفونى معكم لأبنى أرسل لكم الآن مذكرة رلفتها إلى الجنرال مارشال (رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة) تمهيداً للقائه مع عدد من أعضاء الكونجرس .

المذكرة

إن قرارات الكونجرس بشأن فتح أبواب فلسطين لهجرة يهودية غير محدودة سوف تلقى علينا مسئوليات كبيرة عند تنفيذها ، لم إنشأ نلاحظ أن هذه القرارات أجرت تلمة واضحة بين ما ورد في وعد البلور من إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين (National Homeland) ، وهى تتحدث الآن عن دولة يهودية فى فلسطين .

إن قرار الكونجرس بكل ما يحتويه سوف يزيد من التوتر بين العرب واليهود فى فلسطين ، وكلاهما الآن يملك كميات كبيرة من الأسلحة . وقد حدث بالفعل هجمات بالقنابل على مكاتب الهجرة اليهودية التابعة للحكومة البريطانية فى حيفا وفى القدس وفى تل أبيب . وليس من صالح الولايات المتحدة زيادة التوتر الآن . ولا بد أن نضع فى الاعتبار عدة عوامل بهذه :

١ - إن الحلفاء لديهم قوات عسكرية كبيرة فى المنطقة الآن وهم يريدون نقلها إلى مياين أخرى . وهم يسمعون إلى تخفيف التزاماتهم فى هذه المنطقة وإعطاء الأولوية لمياين أخرى مثل شمال إيطاليا وعمليات أخرى .

٢ - إن قوات أمريكية مسلحة موجودة فى العالم الإسلامى كله وليس فقط فى فلسطين . وفى العالم الإسلامى حول البحر الأبيض المتوسط وهما أقربها لأن

قضية فلسطين قد أصبحت لها حساسية خاصة . وهناك اضطرابات بالفعل بين قبائل مراكش ، ومع أن هذه الاضطرابات ليست لها علاقة مباشرة بفلسطين ، إلا أن الدعاية الألمانية قد تستغل القضية لزيادة النار اشتعالا .

٣ - إن خطوط مواصلاتنا الحيوية تجزى آمنة في كل منطقة الشرق الأوسط ، ومن المحتمل أن تتعرض للخطر في حالة ظهور انحياز أمريكي مبكر لطالب اليهود في فلسطين .

٤ - إن خط إمداداتنا الإستراتيجية لروسيا يمر عن طريق الخليج الفارسي وعن طريق الشرق الأوسط . وهذه كلها أماكن يقطنها مسلمون . ولقد تتعرض إمداداتنا لهائل عدائية في حالة ظهور انحيازنا لليهود .

٥ - إن الشرق الأدنى منطقة مهمة كقاعدة لأي عمليات تقوم بها في أوروبا . وخط الأنابيب من العراق إلى البحر الأبيض هو شريان حيوي مهم لا يصح تعريضه لخطر أي قلاقل.

٦ - وأنا لا أريد أن أبالغ في المصائب التي تواجهنا ، لكنني أعرف أننا على اتصال بالملكة العربية السعودية بشأن بناء خط أنابيب يمتد إلى البحر الأبيض . وأخشى أن تعطل مفاوضاتنا مع السعوديين إذا ما ظهر انحيازنا للمشروع الصهيوني .

أرنت أن أحيطك علما بهذا ، وأنا على استعداد لإضافة أي تلط أخرى قد تراها مناسبة .

إمضاء

جون ماكنزوي



وانضم الملك "عبد العزيز آل سعود" إلى مصر وسوريا والعراق ، كما انضمت دول عربية أخرى تعطي للموقف العربي وزنا إضافيا يحولته إلى لقاء إجماع عربي . ويستمر حديث الوفاق :

• وثيقة رقم ١٠١/٢٢١٥ ٨٢٧

برقية من الوزير المفوض للتكم في المملكة العربية السعودية (موسى) إلى وزير الخارجية .

جدة : ٢٧ فبراير ١٩٤٤ الساعة الحادية عشرة صباحا

عزيزي الوزير

جاء إلى مقابلي وزير المالية عبد الله الشليمان وكان يعمل معه برفقة تحمل
أمرا تلقاه من الملك بن سعود حول موضوع فلسطين ، وقد قرأه لي على النحو
التالي :

"قابل الوزير الأمريكي في جدة وأخبره بأن الأخبار التي سمعتها ألقينا
وسيون لها أثر سيئ على الجميع . ونحن نعتقد أن البيت في موضوعات تتصل
بفلسطين الآن غير مطلوبة ، وسوف تثير المشاعر وتحدث البلبلة . ونطلب منه
إبلاغ حكومته بأن صداقة العرب مع الولايات المتحدة لا بد أن تلبت نفسها الآن ،
وأن تقوم الحكومة الأمريكية الصديقة بإظهار حسن نواياها ."

• وثيقة رقم ١/٢٢١٧ ن ٨٦٧

برقية من الانفصل العام في بيروت (وايزورث) إلى وزير الخارجية .

بيروت : ٢٨ فبراير ١٩٤٤ الساعة الثانية عشرة ظهرا

استدعاني وزير الخارجية سليم تكتلا وسلمني مذكرة تعرب عن قلقه من
القرارات الموالاة للصهيونية ، كما تحمل أيضا نص قرار صادر من مجلس النواب
الليثاني يؤكد اهتمام الليثانيين بمصير الأرض المقدسة ، وخطر قيام دولة يهودية
على مسيحيي لبنان ومسلميه على السواء . وأرفق لكم نص المذكرة .

إمضاء

وايزورث

• وثيقة رقم ٣٤٤ - ٠٠/٣ ن ٨١٧

رسالة من الأمير عهد الله أمير شرق الأردن إلى الرئيس روزفلت .

عمان : ٣ مارس ١٩٤٤

فخامة الرئيس فرانكلين روزفلت

إن ما يدور في الكونجرس الأمريكي بشأن فلسطين وإقامة دولة يهودية فيها سبب لنا أسى قلبيا عميقا سوى في كل الهزق . وأنا مقتنع أن الكونجرس لا يملك معلومات كافية عن القضية . وأرجو أن تتذكر الاحترام العظيم والإعجاب الشديد الذي نحتفظ به لكم وللشعب الأمريكي . إنني ألتفت نظر فخامتكم إلى هذه الأمور باعتبار أن بلدي نفسه مجاور لفلسطين ، ثم إنني أذكركه كصديق وفسي للأمم المتحدة .

إمضاء

الأمير عهد الله



وفي ذلك الوقت بدأ الرئيس الصهيوني الأمريكي يشمر بالضبط العريس المنسق ، ويشمر أيضا بأن عناصر من وزارتي الخارجية والدفاع الأمريكيتين تهدى تفهما لوجهة النظر العربية حتى وإن اختلفت الأسباب . وهكذا يوم ٩ مارس ١٩٤٤ توجه اثنان من زعماء الحركة الصهيونية إلى مقابلة الرئيس "فرانكلين روزفلت" في البيت الأبيض وتحدثا إليه ، ثم خرجا من عنده ومعهما تصريح حولهما إعلانه رسميا . وقد أعلنه بالفعل عند مدخل البيت الأبيض ، وكان نصه - طبقا لبرقية لوكالة "رويترز" صادرة من واشنطن في نفس اليوم (٩ مارس ١٩٤٤) - كما يلي :

" إن الحاخامين الدكتور ستيفن وايز والدكتور أباهوئل سيلنر ممثلين عن الحركة الصهيونية الفلسطينية (١٢) قابلوا الرئيس روزفلت اليوم ، وقد صرح لهما بإعلان البيان التالي على لسانه :

"إن الحكومة الأمريكية لم توافق مطلقا على الكتاب الأبيض الصادر في لندن سنة ١٩٣٩ والذي حدد هجرة اليهود إلى فلسطين . إن الرئيس روزفلت يعلن عن

سعادته لأن أبواب فلسطين سوف تفتح الآن أمام اللاجئين اليهود . وعندما يجس الوقت لتقرير طشون منطقة الشرق الأوسط فإن الحقوق العادلة سوف تتأكد لكل هؤلاء الذين يطالبون بوطن قومي لليهود في فلسطين . إن ذلك هدف تنظر إليه الحكومة الأمريكية والشعب الأمريكي بمطף عميق . والآن أكثر من أى وقت مضى فإن مأساة مئات ألوف من اليهود لا بد أن تلفت نظر الجميع وأن توجههم إلى المصل والخير ."

وكما يمكن توقعه ، فإن هذا البيان أحدث صدى مزعجا في السالم العرسى . وكانت مصر أول من تحرك . واستدعى "مصطفى النحاس" باشا رئيس الوزراء بنفسه الوزير المفوض الأمريكى فى القاهرة "كيرك" وأبلغه بقلقه واستياء الشعب المصرى كله من تصريح الرئيس "روزفلت" كما ورد فى بيان الحاخاميين "ستيل وايز" و"أبا هيلل سفلر" . كما أن "النحاس" باشا كلف الوزير المفوض للمصرى فى واشنطن بإبلاغ قلعه إلى الحكومة الأمريكية .

• وثيقة رقم ١١/٢٣٠٤ ن ٨٦٧

مذكرا من الوزير المفوض المصرى محمود حسن باشا إلى وزير الخارجية .
(أرسلت نسخة منها إلى مكتب الرئيس)
التاريخ : ١٤ مارس ١٩٤٤

سيفى ،

إن رئيس الوزراء مصطفى النحاس باشا طلب إلى هذه البعثة أن تنقل إليكم احتجاجه على التصريح المعلن على لسان الرئيس فرانكلين روزفلت بشأن فلسطين . إن هذا التصريح بشكله ومضمونه يسيء إلى مشاعر الشعب المصرى وإلى ارتباطه بالعالم العربى . وسوف يكون رئيس الوزراء معقنا إذا ما تلقى من رئيس الولايات المتحدة إيضاحا لهذا البيان .

• وثيقة رقم ١١/٢٢٥٥ ن ٨٦٧

برقية من وزير الخارجية إلى الوزير المفوض فى مصر (كيرك)
التاريخ : ١٥ مارس ١٩٤٤ الساعة التاسعة مساء

اتصل برئيس الوزراء النحاس باخا وأبلغه بما يلي رداً على رسالته للرئيس:

١ - أوضح له أن البيان المنسوب للرئيس تحدث عن وطن قومي لليهود في فلسطين طبقاً لوعده بالفور، ولم يتحدث عن دولة يهودية في فلسطين كما جاء في قرار الكونجرس .

٢ - تستطيع إبلاغه أيضاً بأن حكومة الولايات المتحدة لم تطلب أية موافقة من جانبها على الكتاب الأبيض سنة ١٩٣٩ .

٣ - تستطيع أن تؤكد للنحاس باخا أن هذه الحكومة لن تحدث تغييرات أساسية بالنسبة لسياستها في فلسطين بدون مشاور كامل مع كل من العرب واليهود .

إمضاء

وزير الخارجية

• وثيقة رقم ١١/٢٢٩٩ ن ٨٦٧

برقية من الوزير المفوض في مصر (كيرك) إلى وزير الخارجية

(أرسلت نسخة إلى مكتب الرئيس)

القاهرة : ٢٩ مارس ١٩٤٤ الساعة الرابعة بعد الظهر

عزيزي وزير الخارجية

قابلت النحاس باخا وقد أبدى لي على الفور أسفه لبعده أن يعزل الرئيس الأمريكي بمذود بيان منسوب إليه بواسطة زملاء يهود . وهو مرتاح لما نقلته إليه من أن مشاورات سوف تجري مع العرب واليهود قبل اتخاذ قرارات كبيرة تؤثر على مستقبل المنطقة . وهو يأمل في الوقت نفسه وفي الظروف الراهنة أن تمنع كل الأطراف من إصدار تصريحات يمكن أن تؤدي إلى تعقيدات كبيرة في البلاد العربية . إن الولايات المتحدة تتمتع في نظر الشعوب العربية بصيرا للحرية والديمقراطية . ولهذا فإن تصريحات من نوع ما صدر مشوبا للرئيس وقرارات من

نوع ما يصدر عن الكونجرس تسيء إلى الصورة العامة . وقد عاد وكرر لي أنه يسلم بأن هناك اضطهادا وقع لليهود في أوروبا ، لكنه لا يفهم لماذا يجري تعويض هذا الاضطهاد على حساب الفلسطينيين وحقوقهم في السيادة .

سوف أرسل لكم بالحقبة الدبلوماسية تفصيلات أولي من المناقشة ، لكن ما سبق هو جوهر رد الدخاس .

إمضاء

كـيـوـك



ومع التركيز على واشنطن فإن الحركة الصهيونية كانت لا تزال تصارع دورها في بريطانيا التي كانت قائمة على الانتداب ، فموقفها في النهاية له وزن لأنها الحارس الواقف على بوابات فلسطين حتى هذه اللحظة . وكانت أهمية لندن إلى جانب ذلك أنها مصدر معلومات وتوجيه له أهميته وتكمل الوثائق قمتها في هذه المرحلة :

● وثيقة رقم ٦٤٤ - ١/١٢ ن ٨٢٧

مذكورة من مدير إدارة الشرق الأدنى والشرق الأفريقية (مسوراي) إلى وزير الخارجية .

واشنطن : ٨ ديسمبر ١٩٤٤

سيني الوزير

وصلت إلينا نسخة من خطاب كتبه الدكتور حايم وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية إلى الحاكم سيلفر في واشنطن ، وهي تحتوي على معلومات مهمة عن مناقشة دارت بين الدكتور وايزمان ورئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل .

إن أهم المعلومات في هذه المذكرة ترد على النحو التالي :

١ - إن الحكومة البريطانية لم تصل بعد إلى قرار بشأن مستقبل فلسطين . وفي الغالب أنها ستتقرر إلى ما بعد انتهاء الحرب مع ألمانيا .

إليانور روزفلت

"أى مساعدة للصهيانة خيانتة لرسول
الله والمؤمنين"
(الملك "عبد العزيز آل سعود" فى حديث مع
"نستون تشرشل")

مع سكوت المدافع ، وارتحال الديابات من الشرق الأوسط إلى ميادين أوروبا والشرق
الأقصى راحت التطورات والتفاعلات التي جمعتها ضرورات الحرب تتحرك فى حرية أكثر.
كما أن الأضواء التي كانت معلقة باللون الأزرق بفرض السحر والإخفاء وجهت أشعتها إلى
المسرح السياسى فى المنطقة ، وكانت كل القوى تتحرك ، كل منها تريد أن تسبق وأن
تقترب من أكثر المواقع ملائمة لوقوعها نحو تحقيق ما تريد .
وكان بعض المشاهد بالصد ، كما أن بعضها الآخر كان بالقدر .

وبدا فيها ما هو بالقطع تفاصيل من خطط مرسومة ، ومن ناحية أخرى بدا فيها ما
هو على الأغلب عشوائى رمنت به المصادفات .
وكان ظاهرا من أول نظرة أن هناك ثلاث قوى تدخل إلى الساحة جاهزة لأدوار دعيت
إليها أو صورتها لنفسها :

• كانت القوة الأولى هى قوة الولايات المتحدة الأمريكية . وقد أعطتها مواردها
الاقتصادية وظلائها العسكرية حق قيادة عالم ما بعد الحرب . والغالب أن الولايات المتحدة

لم تكن مستعدة للمسؤولية لكن القوة لها خاصية أنها تدمر أصحابها إلى موالعهم مرات
بتكون إرادتهم ومرات بدون كامل استعدادهم .

وعلى أى حال فقد كانت منطقة الشرق الأوسط أول ما جذب انتباه الولايات المتحدة
عبر البحار ، وكان عنصر الجذب الرئيسي هو : موارد البترول . ولم تكن القوة
الأمريكية بعد قد تزودت بثقلها كاملة فى ممارسة القوة ، وهكذا فإن دخولها إلى ساحة
الشرق الأوسط وإلى موارد البترول فيه بدت عملية انقراض مباشر للشركات ، كأنها
جيش يستولى على غنائم حرب !

وكان لا بد لذلك أن يؤدي إلى احتكاكات مع القوة المالكة لهذه الموارد وهى بريطانيا
التي تعتبر نفسها شركا رئيسيا فى الحرب سبق أمريكا إليها ، وليس عدوا تستباح
غنائمها !

وكان لا بد لانتباه الولايات المتحدة أن يتوجه فى نفس الوقت إلى السكان الأصليين
لوطن هذه الموارد وهم العرب بنوع من حسن النية والاسترخاء ، وبقطعة نقص الفهم
والعرفة بزيادة المجاملات ، ويقوم أساليب فى المعاملات من نوع ما يتخلله السماح فى
بلاد غريبة يسمعون عن أساطيرها ، مما يدفعهم إلى تصرفات تبدو أقرب إلى
"الفولكلور" منها إلى "السياسة" .

وفى الجانب الموضوعى من العلاقة مع العرب فقد كانت التصورات السياسية الأمريكية
الأولى لا تزال تدور ، وكانت التجارب الإمبراطورية السابقة غير بعيدة عن التكثير
الأمريكى ، فالفكر الإستراتيجى لا يطرع ، لأنه محكوم بالجغرافيا والتاريخ وفيرهما من
الثوابت وإنما هو يعيد الصياغة مع تغير الصور .

• وكانت القوة الثانية - الداخلة إلى الساحة - هى الحركة الصهيونية العالمية ، وقد
تملكها الشعور بأن تحقيق الحلم قريب ، وإنه إذا فانت الفرصة الآن فقد لا تعود فى زمن
قريب ومرئى .

وكانت الحركة الصهيونية قد شنت كل إمكاناتها على الآخر ، سواء فى مكان
التأثير السياسى فى أوروبا وأمريكا ، أو على أرض فلسطين ذاتها بما أمكن تحقيقه من
واقع على الأرض سواء بحركة الهجرة أو الاستيطان أو إنشاء القوة المسلحة .

كان تعداد اليهود فى فلسطين يقترب من نصف المليون ، وأدرك قادة الداخل فى
الوكالة اليهودية ، وعلى رأسهم "نافذ بن جوريون" ، أن موجات الهجرة الكبيرة التى
ينتظرونها من أوروبا لن تتحقق إلا إذا كان الوطن القومى اليهودى فى فلسطين حقيقة
تقود على منافسة إضرابات الهجرة إلى العوالم الجديدة : أمريكا الشمالية وكندا وأستراليا .

وعندما نولس "بن جويون" في مخططاته المتسعة في فلسطين ، وقبل له من رجال على مستوى "ناحوم جولدمان" إنه "يبلغ الأمور إلى الحافة ، بينما هجرة اليهود إلى فلسطين لم تصل بعد إلى الحجم اللائق لإنشاء دولة" ، كان رده "إن الهجرة لن تصل إلى المستوى اللائق إلا إذا كانت هناك دولة بالفعل" .

• وكانت القوة الثالثة - الداخلة إلى الساحة - هي قوة مصر ودورها المشرقي الذي لمح الأدب والفن والفكر قبل أن تراه السياسة ، واكتشفته مدرسة الشرق بين السياسيين المصريين المستقلين قبل أن تكتشفه أحزاب الأغلبية والأقلية ، وتحرك الملك "فاروق" مقتربا منه تحت تأثير بعض ساسة مدرسة الشرق مثل "عزير المصري" و"علي ماهر" و"عبد الرحمن هزام" وغيرهم ، وأخيرا مارسه حزب الأغلبية ممثلا في "مجلسي النحاس" الذي قاد معركة التضامن مع سوريا ولبنان ، ووضع إمشاءه في النهاية على ميثاق جامعة الدول العربية .

كانت المشكلة الحقيقية أن مصر خرجت من غليان الحرب كأنها سفينة تمزق شراعها وتمزقت دفتها وتمطل محركها أثناء عاصفة .

• كان الشراع هو حزب الوفد ، وقد تمزق الشراع بالحق أو بالباطل على مسار بدأ من قبوله الوزارة بعد إنذار ٤ فبراير ١٩٤٢ ، وحتى ظهور الكتاب الأسود الذي كتبه السكرتير العام للوفد الذي انتخب عليه ، وهو "مكرم عبيد" بالفا .

• وكانت البلية هي القصر الملكي ، وقد تمزقت قدرته عندما تأكلت هيئته بسبب ما حدث من تغييرات خلال فترة الحرب على شخصية الملك "فاروق" ، وما أدى به في النهاية إلى حالة كاملة من الترهل السياسي والأخلاقي والبدني أيضا .

• وكان المحرك التابع في بطن السفينة هو سلطة الاحتلال البريطاني ، وهذه أصابها العطب عندما غيرتها موجات الوطنية المطالبة بالاستقلال وجلاء اليهودي البريطاني عن كل بقعة من أرض مصر .



ومستفد الحوادث لتدافع سنة ١٩٤٥ في تلاحق مخير .

• جاء "روزفلت" بعد مؤتمر "الطا" الذي شارك فيه مع "تشورشل" وستالين" إلى مصر ، وربما بدمرة أمريكية (الطراد "كينيدي") في مبالاة البحيرات المرة وسط قناة

السويس . وهناك قابل الملك "عبد العزيز آل سعود" (أكبر شيوخ البترول) وتحدث إليه واستمع منه .

وخرج "روزفلت" من الاجتماع وهو يصف الملك "عبد العزيز" بأنه "المتوحش النبيل" . ثم التقى "روزفلت" على ظهر الطراد "كبلرني" بالملك "فاروق" (البلد المدهو إلى دور مريى فاهل) وتحدث إليه واستمع منه أيضا .

وخرج من اجتماعه مع الملك "فاروق" وهو يسميه "الملك الشرقى المزكش" . وهاد "روزفلت" إلى بلاده بعد كل ما قال وسمع ، ولكن الموت داهمه ، وخلفه نائبه "مارى ترومان" .

• وكان الملك "فاروق" قد ألقى أمام الرئيس الأمريكي الزائر بحفلات أنه وهذابه من استعداد السفير البريطاني اللورد "كبلرني" به وفرضه للوزارات عليه ، وكان رأى "روزفلت" أن الضغط بالإحالة على "الملك الشرقى المزكش" لم يبق له سبب بعد أن ابتمعت الحرب . وتم للملك "فاروق" ما طلب ، وانزاع عنه هم وجود اللورد "كبلرني" على رأسه ، فأقال "النحاس" باشا وجهه بالوزارة التي يرئسها برئاسة "أحمد ماهر" باشا . ولكنها أسابيع قليلة مضت فإذا "أحمد ماهر" باشا يلقى مصرعه بثلاث رصاصات وجهت إليه فى اليهودى الفرعونى بمجلس النواب ، وخلفه نائبه "محمود فهمى النقراشى" باشا .

• وكان "أحمد ماهر" باشا قبل اغتياله قد عاش أزمة كبرى حين قام تنظيم "فتحين" الصهيونى بإرسال اثنين من أفرادهم قتل اللورد "موين" الوزير البريطانى المقدم فى الشرق الأوسط . وهكذا بدا أن العمل الصهيونى قد دخل إلى مرحلة العنف وقرر أن يفتح الأبواب بالرصاص وأن يبدأ ، وفى مصر بالذات وهى المركز المؤهل لقادة الحركة العربية التى بدأت تحلم بأمال كبرى بعد انتهاء الحرب .

• ثم جرت الانتخابات البريطانية ، وإذا "وستون تشرشل" الثالث الأسطورى لمعركة الحرب العالمية الثانية يفقد رئاسة الوزارة البريطانية ، وإذا نائبه العمالى "كليمنت أتلى" يخلفه . ويبدو أن الناحب البريطانى أدرك بوعيه أن مرحلة كسب الحرب العسكرية قد انتهت ، وأن مرحلة إعادة توزيع الحقوق الاجتماعية بعدها واجبة . ونجاست وزارة حزب العمال ووزير الخارجية فيها "إرنست بيفن" ، وكان فى خياله أن الإمبراطورية كيان تجاوزه الزمن ، وأن بريطانيا مطالبة بملاحقة جديده من نوع ما مع مستعمراتها القديمة وأولها الهند .



ومن نتائج هذه التغيرات المتلاحقات أنه مع بداية سنة ١٩٤٥ ، اختلفت قواحد اللعبة السياسية في المنطقة ، كما اختلف اللاعبون ، واختلفت أيضا علاقتهم ببعضهم .
وظهرت مراكز تأثير وعلاقات مستجدة ، لكنها جميعا مشئت إلى المسرح مرتبكة تختبر جوانبه وأركانه :

١ - الجامعة العربية تقوم . ومصر في المقدمة منها لكنها غير قادرة بعد على القيادة . وبريطانيا هي التي أمطت الفؤاد الأخضر لإنشاء الجامعة العربية لكن الولايات المتحدة هي القوة المهيمنة التي تتقدم نحو المنطقة طلبا لموارد البترول أو غيرها .

٢ - والولايات المتحدة تقبل على جعل لكي تفزع خطوط نظم جبهة الشرق الأوسط ، وهي في مجلتها تمارس حتى دون أن تصد غفوطا على بريطانيا تصل في بعض الأحيان إلى درجة الإزاحة ، كما حدث مع امتيازات البترول في السعودية والخليج .

٣ - وبريطانيا حائرة إزاء سياسة الإزاحة ترفضها أو تقبل بها مؤقتا بأمل الائتلاف عليها تحت دماوى من نوع "وحدة الأمم الناطقة بالإنجليزية" أو "خصوصية العلاقة بين بريطانيا والولايات المتحدة" لكن الولايات المتحدة في إقبالها المتدفع لا تهال إذا داسحت على أقدام غيرها ، وهي تعتذر أحيانا إذا سمعت صرخة ألم لكنها تعتذر وهي تجرى .

٤ - والمراقب الحقيقي لسياسة الأمريكية هو أن قوتها الداخلة إلى الشرق الأوسط توافقت زمنيا مع اللحظة التي وصلت فيها القوة الصهيونية إلى مواقع القرار الأمريكي وعند قدمه . أى أن الولايات المتحدة وصلت إلى المنطقة ومعها في نفس الوقت تأثير النفوذ اليهودي الظاهر فيها .

ومكافئ نشأ وضع خطير كانت فيه المصالح الأمريكية عند العرب ، ورغم ذلك كان القرار الأمريكي مكفوطا أمام الضغط المعادى للعرب .

٥ - وكانت فرنسا أشبه ما تكون بصحيح غاشب فقد أرضه المسكونة في الشرق العربي وراح ينفذ شررا ولهبا ، وفي نفس الوقت يلوم بتحسين مكانه يريد أن يمكنها إلى الأبد في المغرب العربي ، وبخاصة في الجزائر .

٦ - وكانت الحركة اليهودية الصهيونية على أرض فلسطين تتحرك فيها وحولها وبمديا عنها بكل وسائل العنف والخدمة والمداينة والإفساد ، مستغلة فرصة تاريخية نادرة كان القرار الدولي فيها ملبسا ، وكان القرار الإقليمي فيها مرتبكا ، وكانت الأرض مهيأة لأن يملك جسارة العمل وجرائه وليس بطلافة اللطف وفصاحته .

ومرة أخرى تكشف الوثائق ألوان المرحلة وظلالها :

• الوثيقة رقم ٧٤٥ - ١٠٠/١ ن ٨٦٧

مذكرة من وزير الخارجية ستيفنتوس إلى الرئيس روزفلت

التاريخ : ٤ يناير ١٩٤٥

الرئيس ،

تلقيت معلومات تفيد بأن الصهيونيين سوف يطلبون منك أن تكتبى مشروع
لاوبر ميكل للتنمية فلسطين . إن المشروع يتناصبه نهر أخيرا في كتاب تحت عنوان
" فلسطين أرض الماد " للدكتور والتر كلاي لاوبر ميكل من وزارة الزراعة الأمريكية ،
وهو يقترح إنشاء مشروع لوادي الأردن على نمط مشروع وادي التينيسى ، وهدف
المشروع أن يجعل فلسطين قادرة على استيعاب أربعة ملايين مهاجر يهودى .

.....

.....

ظننت أنه قد يهمك أن تعرف ذلك مبكرا .

إمضاء

إسوارد ستيفنتوس

• وثيقة رقم ٥٤٥ - ١٠٠/١ ب ٨٩٠

برقية من الوزير للفوض فى السعودية (ويليام إيدى) إلى وزير الخارجية .

جدة : ٥ يناير ١٩٤٥

أخبرنى عبد الرحمن مزام باشا (وزير الدولة للشئون العربية فى مصر
وقتها ، وقد أصبح فيما بعد أول أمين عام للجامعة العربية) أنه عندما جاء بمسودة
مشروع بروتوكول إنهاء جامعة الدول العربية لى يولمه الملك عبد العزيز فإن
الملك أشار معه مسألتهن :

١ - ضرورة إنشاء تحالف عسكري بين الدول العربية يدعمها بالسلاح إذا دعا الحال .

٢ - ضرورة الحصول على تمهيدات من الولايات المتحدة الأمريكية بالدخاع من العرب الفلسطينيين ضد الصهيونية ، وبالسلاح إذا اقتضت الضرورة .

قال الملك عبد الميزيد أيضا لعزام إنه سوف يعرفه أن يموت في ميدان القتال كشهد لحق فلسطين العربية .

أرجو ملاحظة أن إذاعات المحور تبالغ في التأييد الأمريكي للمطالب الصهيونية في فلسطين وأنا أوصي بضرورة الحذر في اتخاذ أي خطوات مؤيدة للصهيونية بواسطة الحكومة الأمريكية . وسوف يكون من سوء الحظ أن يحدث شيء من هذا النوع . سأبحث بتفاصيل أكثر عن هذا الموضوع بالبريد .

إمضاء

ويليام إيسني

• وثيقة رقم ٣٠٤٥ - ١٠١/١ ن ٨٩٧

ملكرة من حديث بين الوزير الفوض المصري ومساعد وزير الخارجية جوزيف كرو .

التاريخ : ٣٠ يناير ١٩٤٥

جاء الوزير الفوض المصري محمود حسن باها بعد ظهر اليوم لقايتي بناء على طلبه . إن الوزير الفوض المصري بدأ فقال إنه ليس قائما هذه المرة لبحث أي موضوع مما يخص العلاقات بين بلدينا ، ولكنه قائم ليتحدث في موضوع فلسطين وهي في رأيه واحدة من بؤر الخطر الكبيرة في العالم . وهو يخشى أنها في المستقبل سوف تثير في هذه المنطقة حربا على نطاق واسع . وهو يعتقد أن فلسطين يجب أن تبقى بلدا عربيا إسلاميا - مسيحيا ، وأن تكون فيه لليهود حقوق طهيمة لا تؤثر على مستقبله السياسي . وهو يرى أن الوقت قد حان لوضع مسألة فلسطين للتفاوض ، ويعتقد أنه من هذا الطريق يمكن تحقيق الكثير . وأضاف محمود حسن باها أن مصر بلد صغير ، وهي تعتمد بالدرجة الأولى على تمناط الولايات المتحدة الأمريكية وعلى تأييدها المذوى . كما أن المصريين يعلمون أن الولايات المتحدة دولة غير طامعة وليست لديها الرغبة في السيطرة على مناطق أخرى .

إمضاء

جوزيف كرو

• وثيقة رقم ١٤٥ - ١/٢ ن ٨٩٧

مكترة من الوزير المفوض في السعودية (ويهام إيدي) إلى وزير الخارجية .
(جرى تحويلها إلى الوزير في بالغا حيث كان يحضر مؤتمر القمة)

التاريخ : ١ فبراير ١٩٤٥

أدلى الملك عبد العزيز بتصريح مذهل أمس أثناء استقباله للجنرال الأمريكيين
اللاحقين باللوذبة . ويمكن اعتبار تصريحه في الواقع إعلانا لسياسة جريئة في
قيادة الشؤون العربية تتناقض مع تقرير وصلنا من البريطانيين عن أن الملك بدأ
يتردد في تأييد عرب فلسطين .

إن تصريح الملك كان على النحو التالي :

" إن الأمة العربية تواجه تهديدتين :

أولهما - الضغط الفرنسي على سوريا .

والثاني - الضغط اليهودي على فلسطين .

ونحن كنا نأمل أن يحترم الحلفاء امترافهم باستقلال سوريا . وإذا لم يلم
الحلفاء بإعادة المقل إلى التصرفات الفرنسية لكي يتركوا السوريين يدعمون
بحقوقهم وحريتهم التي حاربهم من أجلها لصالح كل الشعوب فإن العرب سوف
يقومون بحماية سوريا بأنفسهم .

وأما فيما يتعلق بفلسطين ، فإن أمريكا وبريطانيا أمامهما حرية الاختيار بين
عالم عربي هادئ وسالم أو دولة يهودية غارقة في الدم .

إننا نطلب من أمريكا تصوية مشكلة فلسطين على أساس تقاليد العدل
الأمريكي . وإذا اختارت أمريكا أن تمالئ اليهود للمعادين في القرآن إلى آخر
الذبح ، فإن أمريكا تكون بذلك خسرت صداقتها معنا وسوف تنضم على ذلك . إن
الاجتهار على أي حال لأمريكا ، ونحن قلنا رأينا ، ونرغب منكم أن تنتقلوه إلى
حكومكم ."

إمضاء

ويهام إيدي

• وثيقة رقم ١٤٥ - ١/٢٠ ن ٨٦٧ (وهي ملحقه بالوثيقة السابقة وتحمل نفس رقمها لاتصال الموضوع والوحد) .

مذكرة من مساعد وزير الخارجية جوزيف كرو إلى وزير الخارجية .
التاريخ : ١ فبراير ١٩٤٥

جاء لمقابلي كل من الدكتور ستيفن وايز (رئيس المجلس الصهيوني المالي) والدكتور ناحوم جولدمان والمستر هرمان هولان والدكتور هايسم جرينسبرج . إن الأحكام وايز فتح المناقشة على الفور بقوله "إن أسباب فلسطين يجب أن تفتح أمام اليهود" . وهو وملاؤه يعرفون أن الرئيس روزفلت أخذ مكرتهم التي قدموها له قبل سفره إلى بالطا (لحضور مؤتمر القمة الصهير مع تشرشل وستالين) وهم يطلبون تكثير الرئيس بوعونه لهم .

إنهم والثقون أن تشرشل متعاطف معهم ، ويأملون أن يفسد الرئيس روزفلت بحزم إذا ما أظهر ستالين مضامير معادية لليهود .

.....

.....

إمضاء

جوزيف كرو

• وثيقة رقم ٢٢٤٥ - ١/٢٠ ف ٨٩٠

مذكرة من الوزير المفوض في السعودية (ويليام إيدى) إلى وزير الخارجية .

جسد : ٢٢ فبراير ١٩٤٥

سيدى ،

لى الشرف أن أحييكم إلى برقية المفوضية رقم ٨٩ بتاريخ ٢١ فبراير وأن أقدم لكم تفاصيل ما سمعت من الملك عبد العزيز من لقائه مع المستر تشرشل .

إن الملك دعاني أمس لكي أعود إليه بعد الفداء للقاء لا يحضره إلا هو وأنا . بل إنه لا يريد أن يكون حارسه الخاص موجودا . إن الملك قال لي إنه يريد أن تعرف حكومتى تفاصيل ما جرى بهذه وبين المستر تهرشل (عندما التقى الاثنان في اليوم في مصر بعد اجتماع الملك مع الرئيس روزفلت في البصيرات المروية) . وكانت رواية الملك للقاء كما يلي وبالحرف تقريبا :

"إن تهرشل بدأ يتحدث معي مظهرا لثقته الكبيرة في نفسه ، وبدأ وكأنه يلوح لي بمصا خليفة قائلا لي "إن إنجلترا أيدتني وساعدتني مائتا عشرين سنة ، كما أنها ساعدت على استقرار ملكي وأوقفت كل الطامعين فيه . وبما أن بريطانيا ساعدتني في الأيام الصعبة فإنها الآن تطلب مني أن أساعدها في موضوع فلسطين ، وجرى أنه يجب أن أثبت قدرتي كزعم عربي قوي وأمنع عناصر التهبيج العربي من الإثارة ضد الخطط الصهيونية في فلسطين . وقال تهرشل لي (للملك) إن علي أن أقود المعتدلين من العرب إلى حل وسط مع الصهيونية ، وهو يتوقع مني أن أساعد على تهئية الرأي العام العربي لقبول تنازلات لليهود .

جاوبت تهرشل وقلت له إنني لم أنكر إطلاقا صداقتي لبريطانيا وعرفاني لها . وكصديق فإني قنعت ما أستطيع عندما كان الحلفاء يحاربون عدوهم . وقلت له إن ما يقترحه علي ليس مساعدا لإنجلترا أو للحلفاء ، ولكنه بالنسبة لي عمل من أعمال الخيانة لرسول الله ولكل المسلمين المؤمنين . ولو أسي أقنعت عليه لأضمت شرفي وبمرت روحي . وأنا لا أوافق على تنازل للصهيونيين فضلا عن أن أقتنع خيري . وحتى إذا قبلت أن أفعل ذلك ، فلن يكون ما أفعله مساعدا لبريطانيا ، وإنما سوف يكون ميثا عليها لأن تأييد الطامع الصهيونية من جانب أي جهة سوف يؤدي إلى إراقة الدماء ، وسوف يندحر الفوضى في العالم العربي . وهذا لن يكون في صالح بريطانيا .

وقال لي الملك إنه عند هذه النقطة بدأ له أن تهرشل أرسل عصاه الفليفة من الهواء ، فانتبهز هو الفرصة بدوره ورجاه في تأكيدات يحط بها له بوقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين . ورفض تهرشل أن يمد يده .

إمضاء

ويليام أهدى

• وثيقة رقم ٥٤٥ - ١/٣ ن ٨٩٧

مكترة من الكونفيل هارولد هوسكسز (الملحق بالقوضية الأمريكية بالقاهرة والضرف على تنسيق العلاقة بين القوضية الأمريكية في سوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية والعراق وإيران واليوها - وهو ما يظهر أن مهمته في الشرق الأوسط كانت في واقع الأمر مهمة مخبرات) - إلى المستر بول إيلنج مدير شؤون الشرق الأدنى والشرق.

التاريخ : ٥ مارس ١٩٤٥

عزيزي بول

إنك طلبت إلى حين التفتنا أن أبحث اليك بمخلص لما دار أثناء غائبي مع الرئيس روزفلت يوم السبت الماضي .

إن الغداء كان خاصا إلى أبعد حد ، ولم يكن هناك شهر الرئيس والمسر روزفلت (إلناوير روزفلت زوجة الرئيس) والمسر بوتيجر ، وهذا ملخص ما جرى فيه فيما يتعلق فلسطين . إنني سألت الرئيس مما إذا كانت مشكلة فلسطين قد توافقت في بالغا ، ورد (الرئيس روزفلت) بقوله "ليس تماما" . ثم قال الرئيس "إن المستر تهرهل شديد الاقتناع بالصهيونية كما هي مابته دائما ، وقد جاء هذه المرة يطلب إعطاء اليهود ليس فلسطين فقط وإنما ليهيها أيضا" . وقال الرئيس إنه أثار إلى كلام تهرهل أثناء حديثه مع بن سمود الذي أصر على بمشغل قائلا إن هذا قلم للمسلمين في شمال أفريقيا .

إن السيدة إلناوير روزفلت تدخلت في الحديث عند هذه النقطة مشيرة إلى العمل الجهد الذي قام به الصهيونيون في أجزاء من فلسطين ، وقد وافقتا على ذلك . وقال الرئيس إن ذلك قد يكون صحيحا في المنطقة الساحلية من فلسطين ، ولكنه عندما طار فوق هذا البلد عائدا إلى الولايات المتحدة (بعد انتهاء رحلته في بالغا ، وبعد انتهاء اجتماعه مع الملك عبد العزيز آل سعود والملك فاروق) ، لاحظ أن فلسطين الداخل تهدد جرداء وصخرية . وردت مسر روزفلت بقولها "إن الحركة الصهيونية تهمر أنها قادرة على كل شيء بما في ذلك مواجهة العرب في قتال مسلح في فلسطين" .

إن الرئيس روزفلت وافق زوجته على أن ذلك احتمال وارد ، لكنه ذكرها أن هناك ما بين ١٥ - ٢٠ مليون عربي يعيشون فلسطين . وفي السدي اليميد فإنه يظن أن العدد سوف تكون له الغلبة . ومن جانبى تكررت الرئيس بأن الحركة الصهيونية هاجمتني هجمبا بسبب تقرير قدمته له سنة ١٩٤٣ قلت فيه إن

الصهيونية لا تستطيع أن تقيم دولتها في فلسطين وتحافظ عليها إلا من خلال القوة. وقد سألت الرئيس عما إذا كان موافقا على ما استخلصته، ورد على بقوله "تماما".

وسألت الرئيس عن رأي ستالين في اليهود ، وقال لي إن ستالين قال له إنه ليس صديقا للصهيونية ولا عدوا لها . وعقب الرئيس (روزفلت) على ذلك بقوله "إن ستالين لم يكن ذلك العدو الخفيف لليهود والذي حاول البعض تصويره لنا هذا".

إمضاء

هارولد هوسكنز

• وثيقة رقم ١٠٤٥ - ١٠١/٣ ن ٨٩٧

برقية من الوزير المفوض من بغداد (لوي هندرسون) إلى وزير الخارجية .

بغداد : ١٠ مارس ١٩٤٥

استدعاني الأمير عبد الله الوصي على العرش (في العراق) وسلمني مقرونا مقلولا بحوى رسالة منه إلى الرئيس . وقد أطلاني ترجمة غير رسمية للرسالة .

إن الوصي على العرش راح يحثني عن خطر الصهيونية ، وانتهى إلى خلاصة قال فيها : "إن العرب يعتقدون أن اليهود يريدون فلسطين كخطوة أولى لتحقيق سيطرتهم على العالم العربي اقتصاديا وكذلك سياسيا . ومطلبهم في المستقبل هو السيطرة على كل البلاد العربية المجاورة . وبالطبع فإن العرب من حلقهم مقاومة هذه الخطوة . إن العرب (في رأي الوصي على العرش) لا يستطيعون تحقيق وحدتهم المتفاداة من غير أن تكون فلسطين جزءا منها . إن موقع فلسطين الجغرافي يمكن أن يفرقل وحدة العرب إذا ما وقعت فلسطين في أيدي غير عربية . والعرب الذين يمتلكون بأهمية وحذتهم لن يقبلوا تسليم فلسطين من دورها في الوصل الجغرافي بينهم ، كما أنهم لن يقبلوا وقوعها في أيدي معادية لهم ."

ثم قال لي الوصي على العرش "إن العرب فرادى وجماعة يعتقدون أن مستقبل فلسطين قضية حياة أو موت".

إن ما سبق هو مضمون خطاب الوصي على العرش إلى الرئيس روزفلت ، وسوف أرسل الخطاب نفسه إليكم بالحقبة الدبلوماسية بأسرع ما يمكن .

إمضاء

لوي هندرسون



وفي يوم ١٧ مارس ١٩٤٥ نُشرت جريدة "النويورك تيمس" الخبر التالي :

"اجتمع الحاخام وايز-أمس مع الرئيس روزفلت في البيت الأبيض ، وقد خرج بعد المناقشة التي استمرت خمسين دقيقة ليدلي ببيان جاء فيه : إن رئيس الولايات المتحدة حولني أن أُنقل عنه التصريح التالي وعلى لسانه :

"إنني أوفحت لكم موقفي فيما يتعلق بالصهيونية في القاءات سابقة ، ولم يتغير موقفي اليوم عما كان عليه ، وسوف أظل أعمل من أجل هذا الهدف الصهيوني وتحقيقه في أسرع وقت ممكن" .

(كان نص البيان السابق المعلن على لسان الرئيس "روزفلت" كما يلي :

"إن الحكومة الأمريكية لم توافق مطلقاً على الكتاب الأبيض الصادر في لندن سنة ١٩٣٩ والذي حدد هجرة اليهود إلى فلسطين . إن الرئيس روزفلت يعلن عن مساعدته لأن أبواب فلسطين سوف تفتح الآن أمام اللاجئين اليهود . وعندما يجرى الوقت لتقرير شكل منطقة الشرق الأوسط فإن الحقوق العادلة سوف تتأكد لكل هؤلاء الذين يطالبون بوطن قومي لليهود في فلسطين . إن ذلك هدف تنظر إليه الحكومة الأمريكية والشعب الأمريكي بعطف عميق. والآن أكثر من أي وقت مضى فإن مأساة مئات الألوف من اليهود لا بد أن تلفت نظر الجميع وأن توجههم إلى العدل والخير" .)

وأحدث هذا التأكيد الجديد للأهداف الصهيونية صدقاً واسعاً في العالم العربي . وتوالت احتجاجات المواقف العربية على البيت الأبيض . ولكن الضجة لم تأخذ مداها ولم تحدث آثارها لأن الرئيس "روزفلت" توفي فجأة .

ترومان

" انتظر إلى ما بعد موسم الحج ... "

(نسخة من وزير الخارجية البريطاني إلى
وزير الخارجية الأمريكي)

وأصبح نائب الرئيس "هارى ترومان" ، رئيسا للولايات المتحدة ، وكانت تلك صفحة جديدة تفتح ، لكن الصفحة الجديدة كانت مهيأة لفتح من الحبر ، وليس لمجرد حروف وكلمات . ولتحدث الوثائق عن "هارى ترومان" :

• وثيقة رقم ١٣٤٥ - ٤ / ١٠ ن ٨٦٧

ملكرة من وزير الخارجية (ستيفنسون) إلى الرئيس ترومان .

التاريخ : ١٨ أبريل ١٩٤٥

عزيزى الرئيس ،

إن هناك احتمالا قويا بأن بعض القادة الصهيونيين سوف يحاولون الحصول منك على التزام مؤبد لبرنامج الحركة فى فلسطين . وبالنسبة فأنت تدرك أن حكومة الولايات المتحدة وعضوها لديهما تعاطف هديد إزاء المحلة التي تعرض لها اليهود فى أوروبا ، كما أن كليهما لديه الرغبة فى عمل أى شيء للتخفيف من آثار هذه المحلة . لكن مشكلة فلسطين فسي واقع الأمر هديدة التمسك ، وهي تمتد إلى مسائل تتخطى ما وقع لليهود فى أوروبا . وإذا ما جرت محاولة من هذا النوع ممكن ، فإننى آمل أن يكون ذلك هو أنك سوف تبحث وتحرس وتطلب أوروبا من المختصين ، مما يهلك وقتا لتقدير موقفك .

أخلص

إيوارد ستيفنسون

• وثيقة رقم ٢٠٤٥ - ٠١/٦ ن ٨٦٧

مكترة من إيلان ويامسون رئيس إدارة شؤون الشرق الأدنى إلى وزير الخارجية
عن مقالته مع الدكتور ناحوم جولدمان رئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمر الصهيوني
المالي . وقد حضرها المستر هندرسون من إدارة الشرق الأدنى ، وكذلك المستر
ميريام والمستر ويامسون من نفس الإدارة .

التاريخ : ٢٠ يونيو ١٩٤٥

إن الدكتور جولدمان جاء إلى هذه الإدارة ليقيم تحفته إلى المستر هندرسون .
ويقتل الفرصة ليحيط الإدارة علما بالموقف الخطير الذي يواجهه قيادة الحركة
الصهيونية نتيجة لتعدد الحكومة البريطانية والحكومة الأمريكية في إعلان
نواياهما بشأن فلسطين . وقد قال إنه لمدة خمس سنوات أو أكثر فإن قادة
صهيونيين مثل الدكتور وايزمان والحاجام وايز ، وهو نفسه ، ينصحون شعبهم
باتباع سياسة معتدلة تجاه مطالبهم في فلسطين .

والآن ، فإن المجتمع اليهودي في فلسطين تسوده روح من المزم والتصميم
والاستعداد لاتخاذ إجراءات عملية على الأرض لتحقيق الهدف الصهيوني .
ولدى المجتمع اليهودي في فلسطين الآن ستون ألف جندي مسلح ومدرب ،
وهم على استعداد للقتال دفاعا عن حقوقهم . وهم وقياداتهم يتهمون زعماء الحركة
الصهيونية بالتفريط والاستسلام . وهو نفسه (أي الدكتور جولدمان) سمع من
بعضه عندما كان في فلسطين بأنه غاشق . ويخشى الدكتور جولدمان أنه ما لم
يحدث تحرك سريع فإن المعتدلين في قيادة الحركة الصهيونية بمن فيهم حنايم
وايزمان نفسه سوف يفلح بهم ويطردون من مواقمهم .

.....
.....

إمضاء

إيلان ويامسون

• وثيقة رقم ٢٧٤٥ - ١/٦ - ٨٦٧ ن

مذكورة عن مقابلة أجراها إيمان ويسون من إدارة الشرق الأدنى مع عدد من القادة الصهيونية .

التاريخ : ٢٧ يونيو ١٩٤٥

إن الدكتور جولدمان عاد إلينا بعد أسبوع من مقابلتنا السابقة ومعه المستر دافيد بن جوريون رئيس الوكالة اليهودية في فلسطين وبصحبة المستر إليمازور كابلاز من الوكالة اليهودية . وقد جاءوا جميعا لمناقشة مسألة فلسطين معنا . وكان المستر دافيد بن جوريون هادئا ، وقال إن الحكومات الغربية تؤخر الحقوق للشعوب وللشعب اليهودي استرضاء لبعض الباشوات المصريين في القاهرة ، ولبعض شيوع البسوة في الصحاري المصرية . وطلب بن جوريون أن ننقل للحكومة البريطانية أو الحركة الصهيونية لا تريد مشاكل معها ، ولكن الأفضل ألا تؤخر تسهيل حصولهم على حقوقهم في فلسطين .

إمضاء

إيمان ويسون



وفي شهر أغسطس ١٩٤٥ كانت الحركة الصهيونية في أمريكا قد وصلت مباشرة إلى الرئيس "ترومان" بواسطة "إيلي جاكوبسن" ، صديقه الحميم وشريكه السابق في محار فريدوات في "ميسوتا" قبل أن ينتخب "ترومان" عضوا في الكونجرس ويخلفه "روزفلت" نائبها له . وتحث هذا التأثير أصغر "ترومان" أمرا من فوق رأس كل الوزارات والإدارات في حكومة الولايات المتحدة يعلن فيه أنه "قرر السماح لمائة ألف يهودي بالهجرة إلى فلسطين" . ويحث إليه الملك "عبد العزيز آل سعود" رسالة يستغرب فيها هذا القرار المناقض لعهده حصل عليه من سلفه "روزفلت" مكتشاه أن شيئا ما لن يتقرر في فلسطين قبل الاتصال بالعرب كطرف معني مباخره بالأزمة . ورد الرئيس "ترومان" رسميا بأنه لا يعرف شيئا عن وجود مثل هذا العهد .

وبحث الملك "عبد المميز" بمرء على الرئيس "ترومان" جاء كما يلى :

• وثيقة رقم ٣٤٥ - ١٠/١٠/٨٦٧

رسالة من الملك عبد المميز بن سعود إلى الرئيس هارى ترومان .

التاريخ : ٢٥ شوال ١٣٦٤ الموافق ٢ أكتوبر ١٩٤٥

من الوزير المفوض بهجة - استمعانى الأمير فيصل وزير الخارجية وسلمنى رسالة موجهة من والده الملك إلى رئيس الولايات المتحدة . وطلب سرعة إرسالها إلى الرئيس . وفيما يلى نص رسالة الملك :

"يا صاحب السخامة ،

أخطرونى أنه طبقا لما أذاعته محطات أجنبية أن تصريحاً منسوباً لسخامتكم أذيع يوم ١٦ أغسطس ١٩٤٥ . وطلبت من وزارة الخارجية فى المملكة أن تتصل بالمفوضية الأمريكية لتحصل على نسخة من حديثكم ، ولكم طماننا بمضى الشهر ، لكننا بعد ذلك علمنا بتصريح نسب إليكم فى الجرائد لقم فيه إنكم بحثتم فى أوراقكم ولم تملأوا على تمهد قلمه لنا سلككم الراحل وصديقنا المميز الرئيس روزفلت .

إن أرحوم الرئيس روزفلت أعطانا التمهيد الشار إليه فى حديث معنا يوم ١٤ فبراير ١٩٤٥ ، كما أنه أكد بعد ذلك بخطاب مرسل يوم ٥ أبريل ١٩٤٥ .

يا صاحب السخامة ،

نحن نظن أن التصريح المنسوب إليكم قد أسىء نكله . ولكننا نأمل موافقنا بالحقيقة أو تساندىن بالبحث عن الخطاب الشار إليه ونشره . إن بلكم دخل الحرب دفاعاً عن الحق والعدل ، ولا تقصرو بعد النصر أنكم تؤيدون طرق شعب من بلده نكى يحمل محله ألقوام آخرون تحت حماية القوى المسلحة .

إشياء

عبد المميز"



وهو ٢ نوفمبر ذكرى ومهد بلقور كانت التظاهرات تصم القاهرة والإسكندرية احتجاجا على تصرفات الحكومة الأمريكية . وصف القائم بالأعمال الأمريكي في مصر حوادث هذا اليوم في برقية إلى وزير الخارجية :

• وثيقة رقم ٣٤٥ - ١١/١٠/٨٨٣

برقية من القائم بالأعمال في مصر (ليون) إلى وزير الخارجية .

القاهرة : ٣ نوفمبر ١٩٤٥

تواصلت التظاهرات في شوارع القاهرة والإسكندرية اليوم أيضا ، وجمعت بعض المحلات في شوارع وسط المدينة ، وقلعت بعض المحلات التي يملكها أجانب بالحجارة . وقد قام رئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي باها (الذي تولى الوزارة بعد اغتيال أحمد ماهر باها) بزيارة مواقع الدمار ، ولكنه يظهر أن الحكومة قلقت سلطتها في مواجهة الرماح . وقال لي الوزير للنوفس الإنجليزي ريجينالد بوكسر إن السفارة البريطانية تلقت احتجاجات ، كما تلقت مطالبات من عدد من أصحاب المحلات البريطانية الذين كانت خسائرهم كبيرة ، وقد صدرت له تعليمات بأن يتوجه لمقابلة النقراشي اليوم ويطلب منه إظهار الحزم في التصدي للتظاهرات .

إننا سمعنا أيضا أن هناك اتصالات من جهات رسمية ببعض نقابات العمال تطلب منها الخروج للتظاهر بقصد إظهار تأييد مصر للقضايا العربية .

وقد واصل طلبة الأزهر وجامعة القاهرة إضرابهم اليوم . وثلثينا في المفوضية ١٢٠ تلفراغا تحتج على سياسة الرئيس ترومان .

إمضاء

ليون

• وثيقة رقم ٣٤٥ - ٨٨٣ ٠٠/١١ (وهي ملحق بالوثيقة السابقة وتحمل نفس رقمها لاتصال الموضوع والنوع).

برقية من القنصل العام في الإسكندرية (بوليتل) إلى وزير الخارجية
الإسكندرية : ٣ نوفمبر ١٩٤٥

كان مفروضا أن يكون الإضراب الذي دعى إليه أمس ضد وعد بالفور تظاهرة سلمية ، لكنه تحول إلى عملية شغب واسعة . فقد اندلعت صدامات من الفوضى تحمل الحجارة والمعصى وقامت باعتداءاتها على كل المنطقة المحيطة بمبنى القنصلية . وقد قتل عشرة أشخاص وجرح ثلاثمائة عندما اضطر البوليس للتدخل وإطلاق النار . وسمعت أن المتظاهرين كان يجري توجيههم بواسطة مصريين يلبسون ملابس نظيفة ويبدو عليهم أنهم من أنصار حزب الوفد . ولم يستطع البوليس أن يسيطر على الموقف إلا في الساعة الخامسة بعد الظهر، وعندما كان الدمار قد أصاب بغير تمييز أهدانا كتيبة من المحلات اليهودية واليونانية والأرمنية وغيرهم من الأوروبيين . ولحقت أضرار بمبنى التظاهرات الأمريكي في مهنا الإسكندرية. كذلك حدث اعتداء على قافلة من أربع لوريت عسكرية أمريكية وجرح اثنان من الجنود . كما تم تحطيم سيارة الدكتور كيرتس وهو يحمل جواز سفر أمريكيا . كذلك تحطمت نوافذ مبنى نادي البحارة الأمريكيين . لا تزال تتابع الحالة .

.....
.....

إمضاء
بوليتل



• وثيقة رقم ٥٤٥ - ٠١/١١ ن ٨٦٧
مذكورة من السفير البريطاني في واشنطن (اللورد هاليفاكس) إلى وزير الخارجية .

التاريخ : ٥ نوفمبر ١٩٤٥

تلقيت من المستر بيغن (وزير الخارجية البريطاني) الاقتراحا كلفني بمرفسه
عليكم ، وهو تهديده التصريحات التي يبدو فيها التأييد لقيام دولة يهودية في
فلسطين ، وافتتح أبوابها لهجرة اليهود . فهو يرى أن موسم الحج إلى مكة يحل
هذا الشهر ، وسيبلغ ثبوته يوم ١٤ نوفمبر ، وليس من الضروري أن نعطي لهذا
المحفل الإسلامي الحاضر فرصة للتضييق علينا إذا ما صدرت تصريحات يعتبرها
العالم العربي معادية لهم . وأنتم تعرفون أن هناك تظاهرات عنيفة وسينة قامت في
مصر أخيرا . كذلك قامت تظاهرات أشد عنفا في كل مدن الشام . وهذا يشير إلى
أن هناك تمهيدا في الرأي العام العربي .

إشياء

هالفاكس

• وثيقة رقم ٦٤٥ - ١١/١١ ن ٨٦٧

مذكورة من السفارة البريطانية في واشنطن إلى وزارة الخارجية .

واشنطن : ٦ نوفمبر ١٩٤٥

يريد وزير الخارجية بيغن أن يلفت نظركم إلى تصاعد أعمال العنف المنظم
التي تقوم بها القوات الصهيونية في فلسطين ، الأمر الذي يضع السلطات المدنية
والمسكينة في هذا البلد تحت ضغوط شديدة . ومن الواضح أن الحركة الصهيونية
تريد أن تدفع الأمور بأسرع مما هو لازم . وقد جاء كل من الدكتور وايزمان ومعه
المستر شرتوك (هاريت) لمقابلة وزير الخارجية بيغن الذي لفت نظرهما بحزم إلى
خطورة لوى ذراع السلطات البريطانية . وقد سألتهما صراحة عما إذا كانت نيتهم
هي حسم الموضوع بالقوة المسلحة ، لأن هذا هو ما تعنيه التصرفات الأخيرة .
فالهجمات على المناطق العربية وحتى على القوات البريطانية تبدو منظمة ومخططة
وتقوم بها قوات تعرف مهامها جيدا . وقد قال لهما المستر بيغن من نحن
مكتوب " ليس هناك من يدرك أكثر مدى طبيعة الظروف والمخاطر الفكرية التي
تواجهونه ، ومع ذلك فأنا لا أوافق على دفع الأمور بالقوة لأن ذلك سوف يؤدي
إلى تعقيدات أنتم في غنى عنها " .

إن وزير الخارجية يبحث إليكم وفق هذا بياننا عن حجم القوات الصهيونية المسلحة في فلسطين الآن ، وملخصه على النحو التالي :

١ - قوات الهاجاناه الخاضعة لتوجيهات الوكالة اليهودية وفيها الآن ما بين ستين ألفا إلى ثمانين ألف جندي مسلح ، بمن فيهم قوات البالاخ أو وحدات الكوماندو وعددها ستة آلاف .

٢ - هناك القوات الأكثر تمصبا وهي قوات الإرجون زفاي لوبيسى ، وحجمها يتغير بما بين ستة آلاف إلى سبعة آلاف مقاتل .

٣ - هناك وحدات جماعات الإرهاب التابعة لهتيرن ، وهي تضم عدداً من مئات من المتخصصين المبرزين على العمليات الشيرة .

.....

.....



بيّن

" قرأت التوراة جهدا ولم أجد فيها ما يشير
إلى ضرورة أن يمتلك اليهود فلسطين"
("ارنست بيغن" لـ"تلحوم جولدمان")

توحي القراءة الأولى للوثائق البريطانية سنة ١٩٤٦ ، بأن الحكومة البريطانية برئاسة
"كليمنت آتلي" رئيس الوزراء المعالي ، كانت ترى في شأن فلسطين رأيا يختلف نوعا ما
عما ذهب إليه حكومة المحافظين برئاسة "ونستون تشرشل" رئيس الوزراء السابق والذي
اشتهرت منه صهيولته الجاحدة .

لكن القراءة الثانية المتأنية لهذه الوثائق تظهر أن الحقيقة كانت أكثر تعقيدا من ذلك ،
لأن التأثير الصهيوني كان نافذا إلى قاعدة حزب العمال بأكثر من نفاده في قمة حزب
المحافظين (فيما عدا "ونستون تشرشل" شخصيا) .

وربما بدا أن سياسة "ارنست بيغن" وزير الخارجية المعالي القوي تأخذ منحى
مغايرا ، لكنه في الحقيقة كان طريقا آخر إلى نفس الهدف .

والحاصل أنه كانت أمام "بيغن" عدة اعتبارات. تظهر واضحة في تصرفاته :

١ - وزير الخارجية البريطاني الجديد يريد قبل الحسم في فلسطين أن يصل إلى تسوية
الأوضاع البلدان العربية المحيطة بها ، وهي بالتحديد الأردن ، والعراق ، ومصر ،
وكلها بدرجة أو بأخرى تحت النفوذ البريطاني وفق ترتيبات أبرمت قبل الحرب .

- شرق الأردن منذ تنصيب "عبد الله" أميراً عليه سنة ١٩٢٢ ، تحت الحماية .
- وال عراق مرتبط بمعاهدة سنة ١٩٣٠ .. وهي علاقة أكثر تقدماً بمسافة قصيرة من الحماية .
- ومصر فيقة الصغر بمعاهدة سنة ١٩٣٦ التي أصبحت "شبه ذات موضوع" ، على حد تعبير أحد وزراء خارجيتها في ذلك الوقت وهو "أحمد لطفي السيد" بالفا .

وكان لتدبير "بيلن" أن يبدأ بالأسهل وينتهي بالأصعب في شأن هذه البلدان الثلاثة قبل البت النهائي في موضوع الدولة اليهودية في فلسطين . وفي ظنه أن الدولة اليهودية إذا نشأت قبل تسوية العلاقات مع شرق الأردن ، ومع العراق ، ومع مصر ، فإن المشكلة الفلسطينية سوف تتدخل بما هو أوسع منها ، ومن ثم تجعل المفاوضات المتقطعة مع هذه البلدان الثلاثة مشكلة هويصة بالاتصال والتشابك .

٢ - وكان "إرنست بيلن" يريد تفادي خطر آخر رآه قادماً ، وهو أن الولايات المتحدة الأمريكية تدخل منطقة الشرق الأوسط بطريق الاقتحام تقنياً ، وهذا يدفع الحكومة البريطانية المعالية في صورة تبعد معها وكأنها مستسلمة لمقايير أمريكية . فإذا حاولت أن تعترض فإن الاعتراض قد يؤثر على العلاقات الخاصة بين البلدين ، وهو أمر لا تحمله بريطانيا التي خرجت من الحرب طامعة في مساعدات أمريكية تموض أهميتها .

وفي ذلك الشأن أيضاً فإن "إرنست بيلن" أحس بأن دول المنطقة التي يريد أن يسوى الأمور معها - الأردن والعراق ومصر - راحت تستلذد إلى التناقضات البريطانية الأمريكية وتلععب على أوتارها . وإذا لم يتوصل بسرعة إلى ترتيبات جديدة منع هذه الدول ، فإن الاقتحام الأمريكي قد يعطل ، وقد يخلق تعقيدات إضافية لا تحمّلها الظروف .

٣ - ومن ناحية أخرى فإن "إرنست بيلن" كان يرى نفوذ الحركة الصهيونية المساعد في الولايات المتحدة . وهو لا يريد أن يترك الزمام في يد الولايات المتحدة التي لا يعتقد بغيرتها في قضايا الشرق الأوسط ، ويخشى أنها تتحكمه مثل "قور اندلع إلى محفل لبيع الزجاج والخزف والصيني ، ومن الأرجح أنه سوف يكسر كل ما فيه" . وكان "بيلن" يخشى من أن إنشاء الدولة الإسرائيلية قد يتم الآن برعاية الولايات المتحدة الأمريكية وليس بريطانيا ، وذلك ما لا يريده . ثم إنه إلى جانب ذلك يخشى أن تحصل الدولة اليهودية على كل فلسطين ، وإذا حدث ذلك فإنه سوف يعطيهما وضعاً أكبر مما تريده بريطانيا التي كانت مستقرة على التقسيم بحيث تظل في يدها فرصة إقامة ما تراه من توازنات .

وكان الفكر البريطاني الإستراتيجي منذ أكثر من قرن يقوم على ضرورة إنشاء العازل الحاجز بين مصر وسوريا ، تحقيقا لطلب الفصل بين منطقتي الزاوية الاستراتيجية جنوب شرق البحر الأبيض . لكن وزير الخارجية البريطاني لا يريد لهذا العازل أن يملك قوة مستقلة خالصة تعتمد على واشنطن ولا تأبه بلندن ، ومن ثم تمكن من السيطرة على المنطقة وحسابها ، وليس لحساب السياسة البريطانية في كل الأحوال .

وقد حاول "بيغن" أن يفتح الحركة الصهيونية كي تتحرك بالصبر ، وتكررت لقاءاته بإلهاداتها .

وهروى الزعيم الصهيوني "تاحوم جولدمان" في مذكراته التي صدرت تحت عنوان "المازق اليهودي" ، أنه في لقاء مع "بيغن" سنة ١٩٤٦ فوجئ بوزير الخارجية البريطاني يوجه إليه سؤالاً صريحاً :

"- ماذا تريدون بالسيطرة في فلسطين ؟

ورد "جولدمان" :

- نريد الفلسطينيين نفسها .

وقال "بيغن" :

- هل أفهم إنكم تريدون فلسطين كلها ؟

وهز "جولدمان" رأسه إيجاباً .

وقال "بيغن" :

- هل تريد من الحكومة البريطانية أن تتنازل عن أهم منطقة استراتيجية في العالم لدولة يهودية في فلسطين ؟

ورد "جولدمان" طيقاً لقوله :

- سيدي وزير الخارجية .. ولم لا ؟

وابتسم "بيغن" وقال :

- لكن العهد القديم لا يقول ذلك . وقد قرأت التوراة ولم أجدها ما يشير إلى حق اليهود في امتلاك كل فلسطين .

وكان رد "جولدمان" :

- وأنا أيضاً قرأت التوراة ولم أجدها ما يدل على أن الحكومة البريطانية لها الحق في امتلاك كل فلسطين .



- وبدأ "بيلن" سياسته فعلا بترتيبات جديدة مع شرق الأردن . وفي مارس ١٩٢٦ تم توقيع اتفاقية جديدة - تحل محل اتفاقية الحماية - بين الحكومة البريطانية وبين الأردن .

وبمقتضى الاتفاقية فإن إمارة شرق الأردن أصبحت تسميتها لتصبح المملكة الأردنية الهاشمية ، وأصبح "عبد الله" ملكا عليها وليس مجرد أمير .

وكان القصد المطلوب ولقنها تهيئة الملك "عبد الله" لكي يأخذ الجزء العرسي من فلسطين التي سوف يجري تقسيمها بين العرب و اليهود ، ويحدث تنشأ من الاثنين - شرق الأردن وغربه إلى خطوط التقسيم - دولة عربية تملك إمكانيات الحياة بمساعدة بريطانيا .

وكانت السياسة البريطانية ترى - استمرارا لتطبيق سياسة الفصل بين الداخل والساحل في العالم العرسي - أن الساحل الفلسطيني سوف يدخل معظمه في الدولة اليهودية ، وأن الداخل الفلسطيني سوف يستحيل عليه أن يكون كيانا مستقلا ، وبذلك فإن توجيهه إلى صمان ويطه يملكها هما أفضل الترتيبات المطروحة .

ثم إن خلق دولة أردنية شرق النهر وغربه ، ووجود جهش لا بأس به - كالفيلق العرسي تحت قيادة الجنرال البريطاني "جلوب" بأحد أو أي قائد غيره - يعطيان بريطانيا فرصة ما في ضبط التصرفات الإسرائيلية ، ويحدث لا تجمع بها المطالب وتخرج عن طوع الاستراتيجية البريطانية .

كانت تلك خطوة "بيلن" الأولى والسهلة !



وجاء الدور على الخطوة الثانية مع العراق .

وكانت الحركة الوطنية العراقية تلح على إعادة النظر في معاهدة سنة ١٩٣٠ ، ودخل "بيلن" في مفاوضات بالفعل مع السيد "صالح جبر" رئيس وزراء العراق ، وتوصل الطرفان إلى خطوط اتفاقية دارت حولها المناقشات بين المعارضة والتأييد .

وكانت الأوضاع المملة في العراق شديدة القلق ، فهذا البلد العربي حاض تقاليد سياسية هنيئة بدأت بوفاة الملك "فهيصل" الأول ، ثم بمأساة مصرع ولي عهده غازي في حادث سيارة فاض داخل قصر الزهور في بغداد ، ثم جاء انقلاب عسكري بقيادة "مكرم صدقي" ، ثم جاءت ظروف الحرب وإذا الثورة تندلع فيه تحت زعامة السيد "رشيد عالي الكيلاني" ، وبمدت الثورة معادية لبريطانيا وقريبة من ألمانيا ، وتعرض العراق لغزو الجيش البريطاني ، وكانت طلبته هي التخليق العربي الأردني بقيادة الجنرال "جلوب" باشا ، ثم فُخلت الثورة وعادت الأسيرة الهاشمية - فرعها في العراق - إلى بغداد في ظروف صعبة .

كان "نوري السعيد" (باشا) - ذلك الصديق القديم لـ "عزيز المصري" - قد أصبح رجلاً الهاشميين القوي في العراق وكان من أنصار ترتيب مع بريطانيا يحصل محل معاهدة سنة ١٩٣٠ ، لكن المعارضة الوطنية العراقية كانت دائماً تشك في نواياه ، وهكذا فإن "بيفن" كان عليه أن يتفاوض مع رجل آخر غير "نوري السعيد" الذي آثر أن يظل بعيداً حتى لا يثير الظنون .

وكانت تلك تجربة قلقة وممرضة للشكوك !



ثم حان لوان الخطوة الثالثة مع مصر لتربيته جديدة تحل محل معاهدة سنة ١٩٣٦ .

كانت مصر خارجة من الحرب العالمية الثانية في حالة ثورة ، وكان مطلبها في الاستقلال وجلاء القوات الأجنبية قاطعاً لا ليس فيه .

وفوق ذلك فإن مصر كانت قد عثرت على هويتها العربية ، وتلتهبت إلى دورها في محيط أمتها ، وكان تأثير الشخصيات التي تنتمي إلى مدرسة الشرق قد تنامي ، وأكثر من ذلك فقد كان بين ساستها من لمحو أن ما يجري في فلسطين ، فغلا عن مشكلة إقامة دولة يهودية فيها ، هو في جزء منه رغبة تصعي إلى عزل مصر وحجزها في الشرق .

كانت الحركة الوطنية المصرية قد جمعت قوى كثيرة من كل الأحزاب والجماعات والاتجاهات في شبه جبهة وطنية هريضة تمكنت من تحريك كل قوى الشعب المصري في مطلبين :

الاستقلال الوطني - بوحدة مع السودان تحت التاج المصري .

ثم قضية فلسطين - جدار هريسي ويمر إلى الشرق .

وسقطت وزارة "النقراشي" تحت ضغط الحركة الوطنية ، وتألقت وزارة جديدة برئاسة "إسماعيل صدقي" بأها الذي ألف هيئة قومية للتفاوض مع الإنجليز - (قاطمها حزب الوفد) - ثم راج "صدقي" بأها يتباحث مع "كزنست بيغن" للوصول إلى اتفاقية جديدة تحل محل معاهدة سنة ١٩٣٦ .

وانقسمت هيئة المفاوضات وتمددت فيها الاتجاهات ، ومضى "إسماعيل صدقي" (بأها) وحده مصمما على التوصل إلى اتفاق بأنت خطوطه تحت عنوان "مشروع معاهدة صدقي - بيغن". لكن مسار مشروع المعاهدة واجهه عواصف شديدة :

وربما كان من الضروري ملاحظة أن مطلب الاستقلال تداخل بشكل واضح مع قضية فلسطين ، ولعله من الضروري ملاحظة أن اغتيال اللورد "موين" وزير الدولة البريطاني أمام بيته في الزمالك ، ثم شغل قاتليه أمام محكمة عسكرية ، أعطيا لمصر فرصة أن تطل من الداخل على فكر وتوجهات الحركة الصهيونية في فلسطين . والذي حدث هو أن الشابين المتهمين بقتل اللورد "موين" ولقا أمام المحكمة وأسهبوا في شرح "الدوافع الوطنية" التي دفعتهما إلى اغتيال وزير الدولة البريطاني في القاهرة . وكانت مصر كلها تتابع وتري وتفسي باهتمام .



وتحرك الملك "فاروق" بسرعة يريد أن يضع نفسه في مقدمة الحركة الوطنية والقومية.

ومع أن بعض الدارسين يرون أن تحرك الملك السريع كان متعلقا بمصالحه أكثر منه إيمانا بأفكار وطنية وقومية ، إلا أن ذلك منطق يخطئ على تصف شديد .

إن الناقدين للملك يرون أنه تحرك مدفوعا برغبة في تمويه الخصائر التي لحقت بسمعته وحيثه وشوهدت صوره حتى بالمعنى الطبيعي المباشر ، وربما كان بعض ذلك صحيحا ، ولكن سحبه على الإطلاق ودون تدقيق هو موضوع التمسك . ذلك أنه يصعب تجريد أى إنسان مهما كانت أحواله من إحساس بالذات العام المحيط به ثم التفاعل مع ذلك المناخ . وإذا كان هذا الإنسان هو ملك البلاد فمن الطبيعي أن يكون التزامه إزاء المناخ العام قويا حتى وإن قيل إن ذلك الالتزام أقرب إلى زاوية العلاقات العامة منه إلى زاوية التفاتات والمبادئ .

وفى الحاليتين ، سواء كان إحساس الملك عميقاً أو كان مجرد تظاهر فإن موقفه فى حد ذاته يعكس حقيقة أنه كان أمام هدف يلتقى عليه إجماع شعبه ، أو إجماع أغلبية مؤثرة فيه .

وفى كل الأحوال فإن بنى الملك "فاروق" لسياسة التوجه شرقاً كان له صدق متجاوب مع فترات النهوض فى التاريخ المصرى القديم وعلى امتداده إلى العصر الحديث ، وآخره تجرته جده الأكبر "محمد على" .



إن الملك "فاروق" خطا خطواته الأولى بادئا من باريس !

كان الحاج "أمين الحسيني" مفتى فلسطين وقائد ثورة سنة ١٩٣٦ مخطئا فى باريس التى قصد إليها بعد سيرة طويلة ومرهقة . فهو بعد فشل الثورة وسدور أمر بالتبش عليه هرب من فلسطين قاصداً إلى العراق ، ومنها إلى إيران ، ومنها إلى تركيا ، ومنها إلى إيطاليا ولبنان ، فلما انتهت الحرب بهزيمة آخر بلد لجأ إليه توجهه خلفية نحو باريس .

وفى باريس وجد الحاج "أمين الحسيني" أن السفارة المصرية فى العاصمة الفرنسية تبحث عنه فى حدود بواسطة بعض اللاجئين العرب فيها ممن ظن السفير أنهم على اتصال بزملائهم فى المنفى . كان السفير وقتها هو "محمود فخري" باشا ، وهو زوج الأميرة "فولوية" أخت الملك "فاروق" من أبيه . واستطاع "فخري" باشا أن يعثر على المفتى ، والتقاء فعلا ليقول له "إن الملك "فاروق" يرحب به فى مصر وهو بلد عربى شقيق لفلسطين ومجاور لها" . وكان الحاج "أمين" ذكيا ، فهمد أن أبدى الترحيب أضاف ملاحظة قال فيها ما مؤداه "إنه وهو يضع دعوة الملك فاروق على رأسه وفى قلبه - يتمنى ألا يكون من شأن إقامته فى مصر أن يسبب إخراجا للملك أو لحكومتها" .

والغريب أن عملاء الوكالة اليهودية فى باريس ، وكانوا يبحثون عن مخابأ الحاج "أمين الحسيني" فيها ، رصدوا لقاءه مع "لخري" باشا ، ورتبوا محاولة لخطفه وكانوا يريدون استجوابه ثم الإفلاس منه بعدها . لكن مفتى فلسطين استطاع أن يدبر أمره وأن يصل إلى "مارسيليا" ليستقل منها باخرة حملته إلى الإسكندرية حيث كان فى انتظاره ضابط من الحرس الملكى .

كان الملك يتصرف بعيداً عن حكومته وبدون علم رئيس وزرائه "إسماعيل صدقي" باشا . ومن المفارقات (وطبقاً لرواية وكيل النيران الملكى "حسن يوسف" باشا فى شهادة مسجلة

بعونه أن رئيس الوزراء عرف من صديقه "رئيسه قضاوى" بك وهو من أقطاب الجالية اليهودية وزميل لـ "صديق" باشا في اتحاد الصناعات، أن مفتى فلسطين وصل إلى مصر خلفه وأن القصر على علم بالموضوع". وأشار "صديق" باشا مسألة المفتى مع الملك في اجتماع بينهما كان يحضر فيه نتائج محادثاته مع اللورد "ستاتسجيت"، الذى رأس الجانب البريطانى فى هذه المحادثات. ويظهر أن الملك فوجئ بما أشاره رئيس وزرائه، وكان رد فعله هو الإنكار، لكنه عاد فى نهاية المناقشة وقال لـ "صديق" باشا "إنه يمتنى لو كان ذلك صحيحا وهو لا يرى بأسا من لجوء المفتى إلى مصر، وإنه إذا طلب الحاج أمين الحسينى هذا الحق فى مصر فإنه سوف يوافق عليه فوراً".

وكان لـ "صديق" باشا رأى مختلف عرضه على الملك ومؤداه "أنه من الخير أن نخرج من قضية المفاوضات مع الإنجليز فى جو هادئ. وإن كل هذا الجو العام السائد فى مصر من القضايا العربية هو توطيد لا لزوم له ومن شأنه أن يهايك "اليهود" وهم أصحاب أقوى نفوذ مالى فى مصر وفى العالم".

ويظهر أن الملك الذى لم يجد تشجيعا من رئيس وزرائه أكثر أن يتكلم على الموضوع وخفى أن يصل "صديق" باشا إلى الحقيقة بواسطة وزارة الداخلية، وهو فى ذلك الوقت مسئول عنها إلى جانب رئاسته للوزارة. وهكذا فإن الملك أمر بأن يتوجه المفتى ضيفا عليه فى مزارعه فى "أنفاس"، وبالفعل ذهب الحاج "أمين" إلى هناك.



ثم قام الملك "فاروق" بخطوة ثانية، فدعا إلى أول مؤتمر قمة عربى فى مزرعته الخاصة فى "أنفاس"، واستجابت للدعوة كل الدول العربية القارة على نوع من الحركة فى ذلك الوقت، وهى السعودية واليمن والعراق وسوريا ولبنان والأردن.

وفى ٢٨ مايو ١٩٤٦ صخر من الاجتماع بهان يمكن اعتباره بداية عمل عربى مشترك يتصدى لما يجرى فى فلسطين.

كان القرار الأول للمؤتمر "رفض توصيات لجنة بريطانية - أمريكية، أشارت بفتح أبواب فلسطين لهجرة اليهود".

وكان القرار الثانى "إعلان من ملوك العرب رؤسائهم بأنهم متمسكون باستقلال فلسطين والحفاظ على هويتها العربية".

وكان قرار الملوك والرؤساء الثالث "تشكيل هيئة وطنية تمثل كل القوى الفلسطينية بحيث يمثلون جميعا على منهج واحد ينأى بهم عن الخلافات التي تستغلها الحركة الصهيونية وتنفذ من ورائها إلى تحقيق أهدافها".

كان المفزى الحقيقي المؤتمر "أنشاص" أن مصر بدأت تتجه نحو الشرق . لم يعد شافلها هو البحر الأبيض وما وراءه ، ولم يعد معها مجرد إلحاق السودان بها تحت التاج المصري ، وإنما تحول اهتمامها بطريقة واضحة إلى فلسطين ، معبرا من سيناء إلى محيط أوسع ترتبط به وهي تستقر عمق هذا الارتباط وجذوره التلويحية وأقاليم المستقبلية .

لم تبرز هذا المفزى حين أنشئت الهيئة العربية العليا للفلسطين تحت زعامة مفتي القدس الحاج "أمين الحسيني" ، واتخذت الهيئة من القاهرة مقرا لها .



كان الملك "فاروق" قد أضاف إلى اجتماع "أنشاص" على مستوى القمة العربية لمة مسرحية ألقاها به في اللحظة الأخيرة . فقبل أن ينتهي الاجتماع ، أخطر الملك ضوفه بأن الحاج "أمين الحسيني" موجود بنفسه في "أنشاص" ، وهو يقترح أن يدعوهم ليرحبوا به إظهارا لتضامنهم مع الشعب الفلسطيني . ولم يترش أحد لأن المفاجأة أخذت الكل . وفي الواقع فإن أحدا منهم لم يكن لديه اعتراض ، وحتى الملك "عبد الله" - الذي كان يعتبر المفتي عدوا له - لم يبد اعتراضا . وبالفعل فإن الحاج "أمين الحسيني" دخل لصفاح الجميع ، وبدأ أن اللحظة له ، وللفلسطين .

وفيما بعد فإن الملك "عبد الله" قال^(١) أنه من ساعة أن رأى المفتي تضام من ظهوره على ساحة الأحداث . واستطرد قائلا :

" هذا الرجل لم يظهر في بلد إلا وحلت المصائب بهذا البلد" .

تصدى لثورة فلسطين وفشلت الثورة . ونهب إلى العراق فقامت فيه حركة رشيد عالي الكيلاني، وضررها الإنجليز . وخرج من بغداد إلى طهران فإذا شاه إيران رضا خان يقفد عرشه ويخلفه ونشأ إلى جنوب أفريقيا . وخرج من إيران إلى إيطاليا فسقط موسوليني

(١) حديث للملك مع "محمد حسين هيكل" جرى في شهر يوليو ١٩٤٨ .

وتبش عليه وعلمت جثته من الخطاف الحنيدى لجزار ، وتوجه إلى برلين فإذا الجيش الألماني يهزم وهنتر يفسر إلى الانتحار ...

ثم ذهب الملقى إلى مصر . "وسكت الملك ، وقال له محدثه :

" ولكنه جاء إلى مصر ولم يحدث شيء " .

ولم يتردد الملك "عبد الله" وإنما قال على الفور :

" يا بني .. جاءتها الكوليرا " !

وولتها كان وباء الكوليرا قد تفشى فعلا في مصر !

ولم يكن الملك "عبد الله" هو وحده الذى لم يسترح لظهور الملقى في مصر ، ولكن "مدقى" باشا أحس هو الآخر بالضيق ، لأن الملك "فاروق" أخفى المسألة عنه وفاجأه بها ، وأيضا لأنه كان قد أخطر عددا من أصدقائه اليهود بأن الملقى ليس في مصر كما قيل لهم.

وكان مما يستوقف النظر أن "مدقى" باشا أصدر بيانا عن رئاسة مجلس الوزراء بشأن مجيء الملقى إلى مصر ، جاء فيه بالنص :

" إذا كانت الحكومة المصرية قد سمحت بإقامة السيد "أسمن الحسينى" في ديارها ، فهي ترجو في الوقت عينه ألا ينظر (الملقى) إلى هذه المسألة إلا بنفس الروح الكريمة التي اتبعها عنها قرارها أداء لواجب المجاملة .

ولا يخفى أن مصر اليوم تجتاز مرحلة من أدق مراحل حياتها السياسية . نرجو لها التوفيق والفلاح في ظل الهدوء والنظام ، ولا ريب أن سماحة مقدر لذلك .

كان البيان الحكومي يعكس مشاعر رئيس الوزراء ، ولا يعكس أفكار الملك .



إن الحركة الصهيونية في فلسطين وفي الوكالة اليهودية تحت قيادة "دافيد بن جوريون" كان لديها ما هو أكثر من حكايات ملك عربى عجوز ، ومازق رئيس وزراء عراقي وقع معاهدة مع بريطانيا لا يستطيع تمريرها ، أو رئيس وزراء مصرى متوجس من مجيء ملقى فلسطين إلى القاهرة دون علمه . ولعلها كانت تتابع التحولات في مصر وتستشعر أن دخول مصر إلى ساحة الصراع كقيل بإحداث تغيير في موازين هذا الصراع .

فمصر باتتها الذاتية خطر لا يستهان به .

• ثم إن مصر بتأثيرها العربي يمكن أن تكون العامل المساعد على إبراز إرادة عربية موحدة .

وأخيراً فإنه إذا استقلت مصر ، وضعت بعد الاستقلال إلى مطالب التنمية ، فإنها تستطيع أن تعطى للعالم العربي قاعدة قادرة على مواجهة التحدي .

وهكذا فإن ربيع وصيف سنة ١٩٤٦ شهدا تركيزاً يهودياً وصهيونياً غير مسبوق في القاهرة :

• بعد يومين من اجتماع "أنشاص" طلب الحاخام "حاييم ناحوم" أفندي مقابلة مع الملك "فاروق" ، وليس هناك محضر لهذه المقابلة أو ورقة مكتوبة عنها ، ولكنه وفقاً لشهادة مسجلة فإن وكيل الديوان الملكي "حسن يوسف" باشا يروى "إن الحاخام أبدى للملك خطبته من الاندفاع المصري نحو قضية فلسطين ، وأبدى أنه لا يهدف قيام دولة يهودية فيها ، ولكنه يرى أن وقوف مصر ضد هجرة اليهود إليها ينطوي على إنكار لكل ما تعرض له اليهود في أوروبا تحت الاحتلال النازي ."

ثم إن الحاخام أظهر قلقه من أن يؤدي الاندفاع المصري إلى موجة من العداء ضد "رعايا الملك" اليهود ، وهم دائماً من المخلصين لعرشه ولبلده الذي هو بلدهم ، وأنه "حاسي الجميع" ، واليهود بالذات معه ومع والده من قبله "أثبتوا دائماً ولائهم وتفانيهم في خدمته وخدمة البلاد" .

وحير الملك "فاروق" من مسؤوليته عن حماية "رعاياه اليهود" لا يفرق بينهم وبين المسلمين أو الأقليات ، كما أبدى رغبته في أن يستعمل "يهود مصر" نفوذهم مع يهود فلسطين لكي يخففوا من ضلواتهم ضد العرب ، موضحاً أنه في حالة وقوع صدام في فلسطين فإن حكومته لا تستطيع أن تظل بعيدة عن المخاطر العربية .

• وطوال صيف ١٩٤٦ فإن "إيهافو ساسون" - مستشار الشؤون العربية في الوكالة اليهودية (روالد "موشى ساسون" الذي أصبح فيما بعد سفيرا لإسرائيل في القاهرة) - أقام إقامة شبه كاملة في مصر . وتظهر تقرير القسم المخصوص (البوليس السياسي) المرفوعة للديوان الملكي أن "إيهافو ساسون" اجتمع برئاسة الوزراء المصري "إسماعيل صدقي" باشا ، كما اجتمع بعدد من الساسة المصريين ، وبينهم "محمود فهمي النقراشي" باشا الذي كان رئيساً للوزراء قبل "صدقي" باشا وبعدة . واجتمع أيضاً مع "مصطفى النحاس" باشا وهو زعيم المعارضة في ذلك الوقت ، واجتمع أيضاً مع عدد من كبار موظفي وزارة الخارجية . كما أن "رئيسه قسطنطين" بك رتب له اجتماعاً في بيته مع عدد من المثقفين وقادة الرأي العام في مصر .

• إن "إلهاهو ساسون" عقد أيضا ثلاثة اجتماعات أو لرمعة مع "حسن يوسف" باشا وكهل الديوان الملكي ، وتقل إليه رسائل موجهة إلى الملك "فاروق" من زعماء الحركة الصهيونية وبينهم "وايزمان" و"بن جوريون". بل إن "بن جوريون" جاء بنفسه إلى القاهرة ولزك في بنسبون صغير في عمارة الخديو بخارج عماد الدين ، وكان هدفه أن "يقدم للملك ولبن يهيمه أن يجمعه من المصريين كل التأكيدات التي يرددون سماعها عن حسن نوابها الوكالة اليهودية في فلسطين تجاه مصر وشعبها".



إن هناك استمراكا بقتضيه الإنصاف ، فكل هؤلاء السياسيين المصريين الذين قابلوا "إلهاهو ساسون" وغيره ، لم يكونوا متورطين في شيء ولا يمكن اتهام أحد منهم بالتعاون مع الصهيونية ، ذلك أن هذه الحركة لم تكن ظاهرة بعد للوعي المصري العام ، سواء على مستوى الشعب أو على مستوى الحكومة . ثم إنه كان هناك خلط باستمرار بين ما هو مألوف من أمر يهود مصر وما بين الحركة الصهيونية ، مضافا إلى ذلك أنه بدا أن مصر تستطيع أن تلعب دورا في القضية الفلسطينية يمد من شعب فلسطين مصالح يمكن تلافيها .

وكان "الدحاس" باشا من أنصار هذا الرأي . وقد سجل الحاج "أمين الحصري" إنه عندما ذهب للقاءة "الدحاس" باشا ، فوجئ به يقول له : " يا أخى لماذا لا تصوبون أموركم مع اليهود عندكم وترهونونا جميعا من "وجع الدماغ" ؟ "

والشاهد أن كل الاتصالات التي دارت بين ساسة وزعماء مصريين في هذه الفترة وبين ممثلين من الوكالة اليهودية أو عن الحركة الصهيونية المالية كانت داخل إطار سياسي يمكن فهمه ، وربما - وليس هذا اتهاماً - أن الوحيد الذي قد لا تنطبق عليه هذه المقولة هو "إسماعيل صدقي" باشا رئيس الوزراء ، الذي قد يمكن القول إن مصالحه تشابكت مع مسئوليها .

وربما أن "صدقي" باشا كان لديه دافع إضافي ليس متوفرا لغيره ، فلمعه ظن أنه يستطيع أن "يجامل اليهود في فلسطين ، فسريلة أن يبذل اليهود جهودهم وأن يستعملوا نفوذهم في إنجلترا لتسهيل الوصول إلى اتفاق بين مصر وبريطانيا ، وفي ذلك الوقت فإن مستقبل "صدقي" باشا ومناخه كانا مرتبطين بنجاح مفاوضات "صدقي - بين" .

إن "صدقي" باشا لم يحضر لقرأ الوثائق البريطانية التي تكشف له كيف أن الحركة اليهودية والصهيونية في العالم كانت تبذل جهودها للحيولة دون اتفاق بين مصر

وبريطانيا على معاهدة جديدة تستقر بها الأمور بين البلدين قبل أن تقوم الدولة اليهودية في فلسطين . فقد كانت التهديدات الصهيونية - وأولها "دافيد بن جوريون" في ذلك الوقت - ترى "إن أي اتفاق تتوصل إليه بريطانيا مع مصر سوف يدعم موقفها في الإصرار على إعطاء اليهود قسما من فلسطين فقط وليس كل فلسطين كما كان الأصل ."

ثم إن "دافيد بن جوريون" كان يستغل تمسك المفاوضات المصرية البريطانية حول مستقبل قاعدة قناة السويس لكي يقتنع بريطانيا أن دولة يهودية تقوم في فلسطين سوف تكون على استعداد لأن تعقد معها اتفاقية تضمن لها قاعدة عسكرية في النقب تتمكن بها من حماية قناة السويس وتأمين وجود قريب لها في مصر يكون باستمرار عنصرا ضابطا على الاستقلال المصري وحدود تأثيره وفعله !

الفصل الخامس

من يملك القوة ؟!

"من يملك القوة يملك الحقيقة والمتصرون هم الذين
يضمنون التاريخ ويكتبونه أيضا"

بين جورينون

" إنني فحيد الأسف لأتكم رفعتكم إعطاء مهلة
عدة ساعات لرئيس وزراء بريطانيا "

("كلمت أتى" رئيس وزراء بريطانيا لي برفقة سيرة
لـ"مارتن ترومان" رئيس الولايات المتحدة الأمريكية)

تـ

بالنسبة لـ "بين جورينون" كان قيام الدولة اليهودية في فلسطين أمرا مفروضا منه ،
والمشكلة الوحيدة أمامه هي : متى الإعلان عن قيامها ؟

وكذلك لم تكن المشكلة بالنسبة له هي أمن الدولة بعد إعلان قيامها ، فقد تولى هو
مبكرا بناء القوة القاهرة على ضمان هذا الأمن وفرضه . والمشكلة الوحيدة هي : من أين
يبدأ ؟

وكان منطق "بين جورينون" منذ تلك الأيام أن المطلوب ليس فرض الحرب دفعا من
الدولة ، وإنما فرض السلام ضمانا لبقائها وقوتها ، وكانت المشكلة الوحيدة هي : كيف
يتحقق قبول العالم العربي ؟

وكان "بين جورينون" يحدك أن الإجابة على "متى ؟" مرهونة بموقف الولايات
المتحدة...

وإن الإجابة - على "من أين يبدأ ؟" - مرهونة بممركة تركز بالدرجة الأولى على معسر
وعلى الأردن ...

وإن الإجابة على "كيف ؟" مرهونة بتسليم العرب بأن المطلوب منهم ليس الاعتراف
بأمر واقع ، وإنما بالتعامل معه طبق قوله "اقتصاديا وسياسيا وثقافيا ، وبدون حدود أو
حواجز ، وبغير شروط من أي نوع" .



وفي السنوات الحاسمة ١٩٤٦ و ١٩٤٧ و ١٩٤٨ ، راحت خطوط المواجهة تتحدد ، وكل طرف فيها يحدد أولوياته ويحاول رسم خرائطه .

١ - وكانت بريطانيا تخوض معركة شبه يائسة ، فقد بدأت تتحقق يوماً بعد يوم ، على حد تعبير السير "هارولد بيلسي" مدير مكتب "إرنست بيلن" وزير الخارجية وقتها (وقد أصبح سفيرا لبريطانيا في مصر مرتين بعدها) :

"إننا نستطيع أن نفتح البوابات أمام طوفان ، لكنه نحن لحظة ندرك فيها أن فتح البوابات سيء، والتحكم في تدفق المياه سيء آخر . إن بريطانيا التي "بدأت مشروع مونة يهودية في فلسطين" ما لبثت بعد ذلك أن قلقت إمكانية السيطرة على المشروع ."

والواقع أن العنصر الذي أخذ من بريطانيا فرصة السيطرة على المشروع ، وحول الدخول اليهودي إلى فلسطين من هجرة إلى طوفان ، هو انتقال قيادة التهرب نهائياً إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

٢ - ولقد أقيمت الولايات المتحدة إلى تسلم مقاليد الشرق الأوسط ونظرتها إلى إقليم بأكمله وليس إلى بلدان متفرقة فيه ، وقد دخلت المنطقة وهي منهكة في مواجهة عالمية مع الاتحاد السوفيتي لا بد أن يخفف الكلل لضرورتها مهما كانت رغباتهم .

ثم إنها أقيمت وتأثير الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة نافذ إلى أعصاب القرار السياسي فيها ، رغم أن مصالحها على أرض عربية وفي وسط شعوب عربية . وكان ذلك هاملاً فاصلاً وصل فيه القرار الأمريكي إلى حد التصادم مع ظاهر المصلحة الأمريكية . وفي هذا السياق يجيء ذلك الحوار الشهير بين الرئيس الأمريكي "هارى ترومان" وبين الوزير المفوض في جدة الكولونيل "إلدي" .

كان "إلدي" يحاول أن يلفت نظر رئيس الولايات المتحدة إلى خطورة سياسته على المصالح الأمريكية ، ورد "ترومان" بصراحة قاتلاً : "هل لدى العرب أصوات في مينوسوتا يعطونها لى في انتخابات الرئاسة أو يجعينها حتى ؟ ..."

ورد "إلدي" بالثقل . وحسم "ترومان" احتجاجات معقله في جدة بقوله : "إن اليهود لديهم أصوات في مينوسوتا" !

[يروى الكاتب الأشهر "جورج فهدال" في مقدمته لكاتب "النازيغ اليهودي ... عبء ثلاثة آلاف سنة" أنه سمع من الرئيس الأمريكي الأسبق "جون كينيدي" أن الرئيس "هارى ترومان" كان يشعر أثناء ترشيحه للرئاسة في انتخابات سنة ١٩٤٨ أن معظم أصدقائه سلك "روزلت" قد تخلوا عنه ، وأنهم لا يمتثلون بإمكانية نجاحه ، وأن معاوناته ساعدت إلى أن جاء يوم دخل عليه فيه أحد النشطين في الحركة الصهيونية في محطة توليف عندما قتلوا حملته الانتخابية ، ثم قدم إليه حقيبة يد فيها ٢ مليون دولار لتساعده وهو يروجوه اعتباراً من مساهمة في حملته الانتخابية . " يروى "فهدال" أن "كينيدي" قال له بعد ذلك : " وهكذا اعترفنا بدولة إسرائيل قبل إعلان قيامها" .]

ثم أضيف إلى ذلك عنصر آخر لصالح منطق "ترومان" وإن اختلف مع أسبابه ، ذلك أن إسرائيل التي لم تكن تستطيع أن تقوم أو تحصى قيامها إلا بالولايات المتحدة ، أثبتت أنها صديق موال وقادر على تنفيذ خطط السياسة الأمريكية في المنطقة .

٣ - وكانت إسرائيل قد وضعت خطوطها وراجحت ترسيم حدودها على لطات متعددة ومتوسمة :

- حدود للدولة : تتمدد باستمرار مع مدى ما تصل إليه قوة جيشها (وهو تعبير "بن جوريون") .

- وحدود للأمن : تتسع بعد ذلك أكثر لتتقوى التصدي لأي خطر يهدد أمنها مستقبلاً سواء كان ذلك الخطر قريباً من حدودها القائمة أو بعيداً عنها .

- وحدود للمصلحة : تتطلع إلى موارد البترول ، ومصادر المياه ، وأسواق التجارة ، وخطوط المواصلات ، وحرية التنقل والسفر ، إلى آخره .

٤ - وكان الضمب الفلسطيني في الموقف الصعب . فأرض الصراع أرفضه ، وقد أعطى إسرائي ما عنده في ثورته التي استمرت من سنة ١٩٣٦ إلى قيام الحرب العالمية الثانية ونهايتها .

وقد رأى أن قوى الصراع أكبر من طاقته . وحدث ذلك في نفس الوقت الذي بدأ فيه اهتمام بقية الدول العربية بشأن فلسطين يتنامى مع تنامي فكرة الوحدة العربية ، وقيام جامعة الدول العربية .

وهكذا فإن هذا الضمب الفلسطيني ساوره وهم أنه وقد أصبحت قضيته عربية ، إذن فإنه يستطيع أن يواجه المستعقل جزءاً من كل ، ولما كان الكل هو الأكبر فإن الجزء يستطيع أن يظن .

• لكن "اكل العريس" لم يكن متكافلا ، أو منسجما ، أو حتى واحدا بأهدا
المواجهة.

• كانت الأسر المالكة الحاكمة فى مصر والعراق والسعودية فى تناقض مع بعضها تسمى
إلى تثبت عروشها فى ظروف تصادمت فيها الأفكار والتيارات .

• ثم إن الدول العربية المؤثرة - (مصر وسوريا والعراق مثلا) - كانت لديها اجتهادات
متباعدة محكمة بطرقها المحلية ، وأولها مطلب الاستقلال من قوة أوروبية بعيدا .

• ولم تكن الشعوب العربية على إحاطة بحقيقة الخطط التى ترسم للمنطقة ومخاطرها.
وأضيف إلى ذلك هاملا :

• إن تلك كانت أول مرة يفكر فيها العرب على المستوى الإستراتيجى لمنطقة بأكملها.

• ثم إن تلك كانت أول مرة يخطر فيها للعرب احتمال لجولهم إلى القوة المسلحة .
كان عهدهم بالاستراتيجية والعسكرية قد بعد به الزمن .

والغريب أن ذلك بالتص تقريبا كان تعبير "عيد الرحمن هزام" بأفا الأمين العام لجامعة
الدول العربية فى حديث له سنة ١٩٤٦ مع البريجادير "كلايتون" مسئول المخابرات
العسكرية البريطانية للشرق الأوسط . وقد قال "هزام" بأفا للبريجادير "كلايتون" :

"هذه أول مرة تفكر فيها ونعمل كدول مستقلة . هل إننا لسنا فى واقع الأسر دولا
مستقلة ، وإنما دول شبه مستقلة" !



كانت المشكلة الملحة على كل الأطراف ما زالت هى مشكلة فتح أبواب فلسطين أمام
الهجرة اليهودية . فالوكالة اليهودية من ناحية تريد فتح الأبواب لأكثر من مائتى ألف
يهودى تخلصوا بعد معارك الحرب فى معسكرات معتقرة من أوروبا الشرقية والغربية . وكان
هؤلاء اليهود من النوع الذى تريد الوكالة اليهودية تماما ، وتمتبرهم خاصة صالحة تقوم عليها
الدولة الجديدة عند إعلانها ، فكلهم أوروبيون ، ومعظمهم من المتعلمين والخبراء فى مجالات
وتخصصات متعددة أخافتهم أو طردتهم سلطة الاحتلال النازى فى أوروبا . وقد بذلت كل
المنظمات الصهيونية جهدا كبيرا سننى ١٩٤٤ و ١٩٤٥ فى إعدادهم وتأهيلهم لخدمة الدولة
اليهودية ، وتثبيت اعتقادهم بأن هويتهم إلى لوطنهم الأصلية مستحيلة حتى بعد هزيمة

ألمانيا . فالضام ضدهم ما زالت حادة حتى وإن أصبحت بعد العصر النازي كائنة
وبغينة . وبالنسبة فإن اللاجئين من بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا كانوا مستعدين للهجرة
جاهزين لوضع علمهم ومواهبهم في خدمة الدولة الصهيونية التي تصوروا أنها تحررهم
إلى الأبد .

وكان رأى "بن جوريون" أنه يفضل أن يجرى إعلان الدولة وفيها ستعانة ألف يهودي
على الأقل بدلا من أكثر قليلا من أربعمئة ألف موجودين في فلسطين الآن فعلا .

وكان "ترومان" قد وعد بفتح الباب لمائة ألف ، وكان الإلحاح عليه بما هو أكثر ،
وهو جاهز . وكانت بريطانيا تطالب بموازاة أبواب الهجرة وجعلها نصف مفتوحة بدلا من
فتح كامل . وذلك لكي تتمكن إدارتها وقواتها في فلسطين من تحقيق توازن معقول بين
السكان يكتفل تغييرات تدريجية ، وليست كبيرة وكاسحة بحيث تختل كل الموازنات .

وكان العرب ضد الهجرة تماما ، يرون أن فلسطين فيها يهود بما فيه الكفاية ، وأى
زيادة تطرا بعد ذلك سوف تؤثر علينا على عروبة فلسطين .

وفي مواجهة مخاطر الهجرة ، قرر العرب الدعوة إلى مؤتمر على مستوى رؤساء
الحكومات يعقد في سوريا لبحث مشكلة الهجرة بالتحديد ، وتقرير ماذا يستطيع العرب
أن يفعلوا حيالها بما يؤدي إلى وقف تدفقها على فلسطين .

والعقد المؤتمر فعلا في مصيف "بلودان" - قرب دمشق - ما بين الثاني عشر والثامن
عشر من يونيو سنة ١٩٤٦ . وانتهى المؤتمر إلى قرارات أعلنها على النحو التالي :

١ - تشكل لجنة عربية عليا تتابع باستمرار الجوانب المختلفة من قضية فلسطين ،
وتنسق في ذلك مع الهيئة العربية العليا لفلسطين التي يرأسها الحاج أمين
الحسينى .

٢ - المطالبة بنزع سلاح وتسريح الجماعات اليهودية المسلحة في فلسطين كوسيلة
ناجحة لوقف اعتداءات هذه الجماعات على السكان العرب .

٣ - إنشاء صندوق عربى تساهم فيه كل الدول العربية ، يقدم على مساعدة
الفلسطينيين وشراء أية أراض فلسطينية حتى لا يشرتها اليهود .

لكن مؤتمر "بلودان" اتخذ إلى جانب هذه القرارات العلنية مجموعة أخرى من القرارات
السرية تصبح واجبة التنفيذ إذا ما ساد منطق فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهود إليها .
وكان أهم هذه القرارات السرية :

٦ - إن الدول العربية سوف تتوقف عن منح أية امتيازات للدول التي تلجأ
إلى الهجرة .

٢ - إن الدول العربية سوف تولف نشاط البعثات التعليمية والثقافية التابعة لهذه البلدان في أراضيها كنوع من المفاضة الأدبية .

٣ - إن الدول العربية سوف تبحث في إنشاء أية امتيازات مفتوحة في بلادها فضلا لهذه الدول .

٤ - إن الدول العربية سوف تلجأ إلى الأمم المتحدة وإلى مجلس الأمن في طلب وقف الهجرة باعتبار أن ذلك يهدد صريح لأمنها .

٥ - إن الدول العربية بعد ذلك سوف تقوم بتسليح الشعب الفلسطيني حتى يستطيع الدفاع عن نفسه ، وسوف تساعد بكل الوسائل .



كان التمثيل المصري في مؤتمر "بلودان" - ١٩٤٦ - على مستوى غير مسبوق في تاريخ اشتراك مصر في أية مؤتمرات دولية أو عربية . ومع أن رئيس الوزراء "إسماعيل صدقي" باشا لم يذهب بنفسه للاشتراك في المؤتمر بسبب انهماكه في المحادثات البريطانية المصرية (معاهدة "صدقي - بيلن") ، فإن زعماء كل الأحزاب المشاركة في وزارته كانوا هم وفد مصر في مؤتمر "بلودان" . فقد كان الوفد المصري مكونا من : "محمود فهمي التتراشي" باشا رئيس حزب السعديين ، والدكتور "محمد حسين هيكل" باشا رئيس حزب الأحرار الدستوريين ، و"مكرم عبيد" باشا رئيس حزب الكتلة ، و"حافظ رمفان" باشا رئيس الحزب الوطني ، وقد انضم إليهم "عبد الرزاق السنهوري" باشا وهو قطب قانوني أصبح مرجعا في الشؤون العربية .

وقبل في مصر وقتها إن "صدقي" باشا بحث بكل هؤلاء الزعماء إلى "بلودان" لكي يلهيهم بقضية فلسطين بحيث يخلو له الجو في ملاقاته مع الإنجليز . ولم يكن ذلك دقيقا ، مع أنه لم يخل من بعض الصحة .

وبالحاصل إن "صدقي" باشا في غيبة زعماء أحزاب انقلابه الحكومي لم يتلخ لمحاته مع اللورد "ستانجيت" رئيس الوفد البريطاني المفاوض أمانه ، وإنما انتهزها فرصة — كذلك — لترتيب واحد من أهم لقاءاته مع ممثلين عن الوكالة اليهودية في فلسطين . فقد وصل إلى مصر سرا في هذه الفترة "إيلياهو ساسون" ، وأجرى "صدقي" باشا معه مجموعة لقاءات في بيت "رئيه موصيري" شارك خلالها "حاييم تاحوم" أغددي في واحد منها على الأقل .

كان "صنقى" باشا يحاول في هذه اللقاءات أن يحصل على تأييد اليهود له في موقفه مع الإنجليز . وفي مقابل ذلك ، فقد كان على استعداد لإخفاء المصير عن هجرة يهودية معلولة إلى فلسطين . وكان الرقم الذي عرض "صنقى" باشا استعداده للتصالح فيه هو خمسين ألف مهاجر إلى فلسطين . ولم يكن ذلك مرفهاً لـ "ساسون" ، مع أن الحاخام "حاييم ناحوم" أفندي كان على استعداد لهذا نفوذه لتسهيل قبول الوكالة اليهودية في فلسطين بهذا العرض .

وربما كان الأكثر مدعاة للاهتمام أن "إلهاهو ساسون" نقل عن "صنقى" باشا أنه أثناء هذا اللقاء أبدى استعداد "الحكومة المصرية" لقبول تقسيم فلسطين ، بما يعنيه ذلك من إقامة دولة يهودية . وطبقاً لـ "ساسون" فإن الملك "فاروق" كان على علم بما يقوله "صنقى" باشا ، وعلى أي حال فإنه سوف يتمتع فرصة ظهور مناصب ونوابا طيبة ويبلغ ساسون برأيه أو يحدد موقفاً رسمياً لمقابلة بين الملك فاروق وبين الدكتور حاييم وايزمان في قصر هابدين.

إن الوثائق المصرية الخاصة لا تتضمن أية إشارة إلى شيء من ذلك ، لكنه من الصعب تصور أن رجلاً في كفاية "إلهاهو ساسون" يخلق حديثاً من هذا النوع في مسألة بهذه الخطورة . وربما أن "صنقى" باشا بالغ فيما قال لـ "ساسون" متصوراً أن ذلك يحقق له "تدخل اليهود بالمخالفة" لإنجاح مفاوضاته مع الإنجليز .

ولم يكن وفد مصر في مؤتمر "بلودان" بمستواه العالي على علم بما يقوم به رئيس الوزراء . وما يستحق التسجيل أن "مكرم عبيد" باشا كان الأكثر وضوحاً وحسماً في موقفه بين كل أعضاء الوفد المصري في "بلودان" . ولعله كان الأكثر تنبهاً في هذا الموضوع بالنسبة إلى الرؤية المصرية لتحقيق ما يعنيه قيام دولة يهودية في فلسطين . وتثير محاضرات "بلودان" إلى أن "مكرم" باشا أشار إلى أن قيام دولة يهودية في فلسطين سوف يعرقل اتصال البلاد العربية ببعضها ، وسوف يخلق مشكلة على حدودها ، وقد يعطل محاولاتها للتقدم .^(١)



ولم تكن الحقائق السياسية واقعة في الانتظار ، وإنما راحت تشق لنفسها مجارها بصرف النظر عن القرارات والاجتهادات والشعارات . وتعود الوثائق لتتطرق بأسرارها :

(١) يلاحظ أن الأستاذ "ميفعل هلق" زعيم حزب اليمين الأثريكي طور هذه الأقوال بعد ذلك في صحابه الشهير الذي ضاع فيما بعد في أدبيات حزب اليمين وغيره من الأحزاب القومية ، وهو "إسرائيل ألتمت لكى تكون قاطعا لاتصال الأمة ، وأدلة التهديد ، واستجابة لامتناس طاعتها باستقرار" .

• وثيقة رقم ٧٥٤٦ - ٠١/٦ ن ٨٦٧

برقية من الوزير المفوض في السعودية (كلارك) إلى وزير الخارجية .

التاريخ : ٢٥ يونيو ١٩٤٦

بعد عودة عبد الرحمن عزام بأخا من المؤتمر الاستثنائي لجامعة الدول العربية في بلوكان إلى القاهرة ، التقى في القاهرة بالمستر ريفلز تشارلز (الوزير المفوض الجديد في السعودية والذي كان في العاصمة المصرية قبل قدومه إلى جدة) ، وقال له بأن الجامعة العربية قررت بالاجماع فتح باب المفاوضات مع الحكومة البريطانية بوصفها الدولة المنتجة على فلسطين للوصول إلى حل بهأن مستقبل هذا البلد الذي يعتبرونه بلدا عربيا . وقد أرسلوا بالفعل مذكرة بهذا المنى إلى الحكومة البريطانية . وهم يرون أن أول بند لا بد من معالجته في المشكلة هو بند الهجرة اليهودية إلى فلسطين . فهم لا يرون أي مبرر لجعل هذا البلد العربي يتحمل عبء إيجاد ملأى ليهود أوروبا .

إمضاء

كلارك

• وثيقة رقم ٢٩٤٦ - ٠١/٦ ن ٨٦٧

برقية من رئيس الوزراء البريطاني كلمنت آتلي إلى الرئيس هاري ترومان .

التاريخ : ٢٦ يونيو ١٩٤٦

(سرى جدا وشخصى من رئيس الوزراء إلى الرئيس)

كما تمرون تحاول الجماعات الصهيونية في فلسطين الضغط علينا في موضوع الهجرة . وقد زادت عمليات الملهيات الصهيونية المسلحة ضد القوات البريطانية في فلسطين . وكان أعصرها خطف ستة ضباط بريطانيين . إن حكومة صاحب الجلالة قد توصلت إلى الاتفاق بأن هذا وضع يضع يصعب التسكوت عليه . وقد تم إخطار

المندوب السامي في القدس بأنه مغول بمسألة اتخاذ ما يراه من إجراءات تحقق سيطرة الإنارة البريطانية في فلسطين على الأمور . وفي معلوماتي أن المندوب السامي قد أمر باتخاذ إجراءات تبدأ يوم السبت ٢٩ يونيو . وبين الخيارات المفتوحة أمامه أن يحتل مكاتب الوكالة اليهودية لأي مدة يراها كافية للتفتيش والحصول على الوثائق التي تثبت القيام بتقليص عمليات هجرة غير مشروعة تجرى حمايتها بقوة السلاح ، بينما نحن نحاول بكل الوسائل إجهاد حل سياسي للمشكلة وللتعديلات الناجمة عنها . إن بعض الإجراءات سوف يشمل القيادات العسكرية في الهجانات (قوات الدفاع التابعة للوكالة اليهودية) وأية عناصر خارج هذه المنظمة .

إمضاء

كلتمنت آلتي



ولم تكن جماعات الضغط اليهودي والصهيوني في الولايات المتحدة بعيدة عن الصورة أو متكاسلة ، وإنما جاء تدخلها سرهما ونالذا ، وبشهادة الوثائق :

وثيقة رقم ٣٤٦ ١/٧ ن ٨٩٧

بيان صحفي صادر عن البيت الأبيض بتاريخ ٢ يوليو ١٩٤٦ .

نص البيان :

" اجتمع الرئيس هاري ترومان اليوم بعدد من الأعضاء الأمريكيين في اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية لفلسطين ، وهم : الحاخام ستيفن وايز ، والدكتور ناحوم جولدمان ، والمستر لويس ليبسكي ، والحاخام أبا هيلل سيلفر .

إن ممثلي الوكالة اليهودية عرضوا على الرئيس وجهة نظرهم فيما جرى أخيراً من أحداث في فلسطين .

إن الرئيس أعرب لممثلي الوكالة اليهودية عن أسفه للتطورات الأخيرة التي وقعت في فلسطين . وقد أعطى ممثلي الوكالة اليهودية أن الولايات المتحدة لم تستمر مقدماً في الإجراءات التي اتخذتها السلطات البريطانية هناك .

إن الرئيس أضاف إلى ذلك إغرابه عن أملة في الإقراج من كل القنادات اليهودية في فلسطين على الفور .

إن الرئيس أضاف كذلك عزمه على أن الأحداث الأخيرة في فلسطين لن تؤثر على سياسة فتح أبواب فلسطين لهجرة مائة ألف يهودي من أوروبا إليها .

(لم يشر البيان الصحفي الصادر من الاجتماع إلى أهم الوقائع التي جرت فيه ، وإن كانت مجموعة الوثائق الأمريكية لسنة ١٩٤٦ في صفحة ٦٤٥ تشير إليها ، وخلاصتها أن الرئيس ترومان بحث التكاليف المالية لعملية هجرة مائة ألف يهودي إلى فلسطين ، وأنها تصل إلى ٤٥٠ مليون دولار (بقيمة الدولار في ذلك الوقت ، وهي تساوي عشرة أمثال قيمته اليوم) . وقد تطوع الرئيس ترومان على الفور بأن الولايات المتحدة سوف تتحمل وحدها نفقات النقل . وفي نفس الوقت أبدى الزعماء اليهود بأن لديهم ٢٥٠ مليون دولار جاهزة لعملية التوطين ، لكن ذلك المبلغ لا يكتفى إلا لجزء منها .)



• وثيقة رقم ٨٤٦ - ١/٧ ن ٨٩٧

رسالة من الرئيس ترومان إلى الملك عبد الميزر آل سعود .

التاريخ : ١٣ يوليو ١٩٤٦ .

يا صاحب الجلالة ،

إنني تلقيت بمزيد من السرور الرسالة التي نقلها إلى صديقي وصديقكم وزيرنا المفوض السابق لدى حكومتكم الكولونيل ويليام إيدي . إنني همد الاعتزاز بروابط الصداقة الوثيقة التي قامت باستمرار بين حكومة الولايات المتحدة والحكومة السعودية . ولقد نقل إلى الكولونيل إيدي تفهمكم للمشكلة الإنسانية لليهود المهردين في أوروبا . كما نقل إلى أيضا قلقكم من ذهابهم إلى فلسطين . وأريد أن أؤكد لكم بإخلاص اعتقادي بأن ذهاب مائة ألف يهودي إلى فلسطين لن يؤثر في حقوق أو مصالح العرب ، كما أنه لن يحدث خللا في التوازن الاقتصادي والاجتماعي في هذا البلد .

إمضاء

هارى ترومان

● وثيقة رقم ١٧٤٦ - ٠١/٨ ن ٨٦٧

رسالة من وزير الخارجية الأمريكية جيمس بيرنز إلى الحاكم ستيفن وايز .
باريس ١٧ أغسطس ١٩٤٦

عزيزي الدكتور وايز ،

إنك طلبت مني أن أقابل مستر ناحوم جولدمان أثناء وجودي في باريس لأنه يريد أن يراني في مسائل متعلقة بموضوع فلسطين . وقد كنت أرغب في أن أراه ، لكنني بعيد من مجرى الحوادث في هذه القضية ، فطوال السنة الأخيرة تولى الرئيس ترومان بنفسه وشخصيا كل ما هو متعلق بمسألة فلسطين . والاتصالات الدائرة بين الحكومتين البريطانية والأمريكية في هذا الشأن تجري مباشرة بين الرئيس ترومان ورئيس الوزراء (البريطاني) المستر آتلي ، وليس بين المستر بيرنس وييشي .

.....
.....

إمضاء

جيمس بيرنز

● وثيقة رقم ١٧٤٦ - ٠١/٩ ن ٨٦٧

مذكرة من وزير الخارجية بالنيابة (ويليام كليتون) إلى الرئيس ترومان .
التاريخ : ١٢ سبتمبر ١٩٤٦

الرئيس ،

يرى الحاخام وايز ومعه عدد آخر من الزعماء الصهيونيين أن تقوم بإصدار تصريح فوري من تسهم فلسطين ومن فتح أبواب الهجرة اليهودية إليها . وفي رأيهم أن ذلك يساعد على جعل الحكومة البريطانية تتخذ موقفا أكثر معقولية .

.....

.....

إمضاء

ويليام كلينتون

• وثيقة رقم ١٠٤٦ - ٥١/١٠ ن ٨٩٧

برقية من رئيس الوزراء (البريطاني) آتلى إلى الرئيس ترومان .

التاريخ : ٤ أكتوبر ١٩٤٦

(سرى جدا ومأجل)

عزيزي الرئيس ،

إنني تلتفت بعد منتصف الليل أمس مشرور بشأن فلسطين ، وتلقت منكم رسالة ، وقد كتبت لكم على الفور ردا عليها رجوتكم فيه تأجيل الإعلان ولو لمدة ساعات ريثما أستطيع التشاور مع وزير الخارجية . وقبل أن يطلع الصباح تلقت منكم ردا يرفض تأجيل إعلان البيان لهذه الساعات التي طلبتها . إنني شديد الأسف أنكم رفضتم إعطاء مهلة ساعات لرئيس وزراء البلاد الذي يتحمل حاليا عبء إدارة شؤون فلسطين ، مع العلم أن إعلانكم سوف يسبب إدارة فلسطين أعباء لا حصر فيها . وسوف أنتظر باهتمام إيضاحكم بشأن الأسباب المعلقة التي دعت إلى مثل هذا الإجراء المتسرع .

إمضاء

آتلىسى



كانت الحركة الصهيونية في مجلة من أزمها اتيام الدولة اليهودية في فلسطين .
وكان رئيس الولايات المتحدة بنفسه أمامها ووراما .

وكان الرأي قد استقر ميكرأ على اختيار اسم الدولة : إسرائيل .

وكان الرأي قد استقر ميكرأ - أيضا - على رسم علمها : خطان من اللون الأزرق أحلى
وأسفل رقعة بيضاء تتوسطها نجمة داوود .

ولم يدقق كثير من العرب في معنى رسم العلم الإسرائيلي ورمزه ، لكن يهود
فلسطين فهموا الإشارة وتلقوا الرسالة . فالخطان باللون الأزرق أحلى العلم وأسفله يشيران إلى
"النهرين الكبيرين" اللذين تقع الأرض الموعودة بينهما : نهر الشرق الكبير وهو "الفرات" ،
ونهر الغرب الكبير وهو "النيل" . وذلك نص القول في "التوراة" التي كتبها حاخامات
إسرائيل أثناء المنفى والسبي في بابل بعد ستماية سنة من سقوط هيكل سليمان .

["في ذلك اليوم قطع الرب مع ابراهيم ميثاقا : "لنملك أعطى هذه الأرض من
نهر مصر إلى النهر الكبير الفرات" . " (سفر التكوين ١٥ : ١٨)]

وكان الرأي مستقرا كذلك - وميكرأ - على ألا تكون لهذه الدولة حدود معينة على
خريطة . ولعلها كانت أول دولة في العالم الحديث يجرى إعلان قيامها دون أن يصاب
هذا الإعلان بيهان يمين الخطوط على الأرض ويقعها على الطبيعة ، ذلك أنه حين يكون
الوعد "أسطوريا" ، فإن الخرائط السياسية تصبح قابلة للتعديل مع كل تفسير أو تأويل !

موشى شرتوك

" لا داعي للخوف من العرب فهم شعفاء
بطريقة بالغة "

("عالم وايزمان" للسفير الأمريكى الدائم فى
الأمم المتحدة)

إن الوثائق البريطانية والأمريكية والإسرائيلية وكلها الآن متاحة تكفى لمعرفة ما كان
يجرى فى الخفاء طوال سنة ١٩٤٧ . لكن هناك ثلاث حقائق يمكن رصدتها من خلال
قراءة دقيقة لهذه الوثائق :

١ - الحقيقة الأولى أن الولايات المتحدة الأمريكية ، رئيسها وحكومتها أيضا ، أصبحت
بالتكامل من أنصار قيام دولة يهودية فى فلسطين ، مع إنكارها لكل المصاعب التى
تنتظرها على الطريق .

إن الرئيس الأمريكى "هارى ترومان" مفسى فى طريقه نحو فتح أبواب هجرة اليهود
واقامة دولة يهودية فى فلسطين لا يلقى على سىء . ويمكن أن يقال إن مصالحه
الانتخابية وارتباطاته الشخصية والسياسية كانت محركة ، ولكن الذى لا يقبل الشك
فى نفس الوقت أن بقية أجهزة الدولة الأمريكية انقلبت خطى الرئيس . ولم يكن
ذلك بمجرد ضغط منه ، وإنما إلى جانب ذلك كان نتيجة تلميذاتها لأوضاع متغيرة
أفترزت رؤى استراتيجية مختلفة . وكانت الحرب الباردة ومطالبها هى أظهر
الاعتبارات التى أفسحت المجال لهذه الرؤى . وربما أن السياسة الأمريكية - وقد آلت
إليها إرث الشرق الأوسط يكامله من بريطانيا - لم تلبث أن اكتشفت أهمية منطق
"تأبيلين" وبعده "المارستون" فى القضية عزل مصر عن سوريا ، وبعده عزل
سرب أن يبقا عن حرب الشرق إذا أمكن .

٢ - والحقيقة الثانية أن تقسيم فلسطين أصبح قراراً نافذاً من الجمعية العامة للأمم المتحدة صدر يوم ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ برقم ١٨١ . وفي أجواء أخيه ما تكون بمصافاة اجتاحت "لنك ساكسن" حيث المقر المؤقت للأمم المتحدة في نيويورك . لقد تعرض مندوبو الدول في الجمعية العامة إلى صنوف من الضبط بدت لا تقاوم ، واستهدفت توفير أغلبية كافية للموافقة على قرار التقسيم . وهناك تفاصيل كثيرة معروفة وشائعة عن تهديدات وجهت لرؤساء دول ، وعن رشاي دفعت للمندوبين ، وعن شركات أمريكية كبرى تدخلت لإرغام أصوات على تغيير اتجاهها ، وأشهر مثال لذلك ما حدث من شركة "فايرستون" للسيارات مع رئيس جمهورية ليبيريا حتى يقرض تغيير صوت بلاده من "لا" إلى "نعم" للتقسيم . والنتيجة أن قرار التقسيم بدأ عملية فرض بالقوة أكثر منه عملية اختيار لحل مناسب .

٣ - والحقيقة الثالثة أن العرب في هذه الفترة كانوا بالفعل شبه هزاة من كل الوسائل اللازمة لتفطية مواقفهم في مواجهة من هذا النوع . وبعد أسابيع قليلة من صدور قرار التقسيم بدأ العالم العربي أخيه ما يكون بجسد كبير عاجز عن الحركة ، وإذا تحرك فقد كان أول إحصاء تعطيه حركته أنها صاندة من مركز عصبي فقد تماسكه .

وبدأت سنة ١٩٤٨ ، وهي السنة التي قامت فيها الدولة اليهودية في فلسطين، والأجواء مختلفة ، والخياب يغطي الساحة ، والخطى متعثرة .



في أواخر سنة ١٩٤٧ أعلنت الحكومة البريطانية أنه وقد صدر قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بتقسيم فلسطين إلى دولة عربية ودولة يهودية فإنه لم يعد أمامها (الحكومة البريطانية) إلا أن تصحب قواتها من فلسطين فاتحة المجال بذلك لتنفيذ قرار المجتمع الدولي . وهكذا وجد الكل أنفسهم أمام أمر واقع ملهم أن يواجهوه كل بطريقته ووفق رؤاه . وكانت الرؤى فوضى واسعة ترسم الوثائق صورة حية لها .

• وثيقة رقم ٤٧/ - ج

مذكرة من السفارة البريطانية في واشنطن إلى وزارة الخارجية الأمريكية .

التاريخ : ٥ يناير ١٩٤٨

(سرى جدا)

١ - أثناء مناقشة بين المستر بيفن (وزير خارجية بريطانيا) والمستر مارشال (رئيس أركان حرب الجيش الأمريكي السابق ، والذي اختاره الرئيس ترومان لكسب يكون وزيرا لخارجيته) وذلك حينما اجتمع الاثنان في لندن يوم ١٧ ديسمبر ١٩٤٧ عبر المستر بيفن عن رأيه بأن ردود فعل الحكومات العربية تجاه قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين كانت أسوأ مما توقع رغم كل الجهود التي بذلها الممثلون البريطانيون في العالم العربي "لتسهيل" الحكومات العربية . وقال المستر بيفن إنه سوف يقابل كل الممثلين العرب في لندن واحدا بعد الآخر لكسب يتولى "تركيزهم" (to steady them) .

إن الحكومة البريطانية تخشى أن الموقف في الشرق الأوسط سوف يفلت زمامه ، وقد يعرض المصالح البريطانية والأمريكية للخطر هناك ، وهو أمر لا يستلزم منه إلا الاتحاد السوفيتي .

٢ - ولتوضيح وجهة نظره أكثر ، فإن المستر بيفن أشار للاتصالات التي أجراها الممثلون البريطانيون في عدد من المواسم العربية الممتدتين لديها . ومنها أمكن استخلاص ردود الفعل العربية تجاه ما أمثلته الحكومة البريطانية من أنها تنسوى سحب قواتها من فلسطين .

(أ) إن كل المسؤولين العرب أعطوا تأكيدات بأنهم سوف يتجنبون القيام بأي عمل يؤدي إلى احتكاك مع القوات البريطانية في الفترة السابقة للانسحاب ، لكنهم مع ذلك لا يعرفون كيف يمكن تجنب المخاطر التي ستفأ إذا ما افتترض الآخرون أن معارضة العرب لتقسيم فلسطين سوف تقتصر على مجرد الكلام حتى إذا كان عندها .

(ب) إن كل الحكومات العربية لا تعتقد أنها تستطيع كبح جماح مواطنيها عن التطوع للقتال في فلسطين . وقد ورد ذلك بالنص على لسان وزير خارجية مصر (أحمد غنبة باشا) ، ونائب رئيس وزراء العراق ، ورياض الصلح رئيس وزراء لبنان ، وجميل مسدم رئيس وزراء سوريا ، وسهير الرفاعي باشا رئيس وزراء الأردن .

(ج) إن هناك قلقا واضحا بشأن ما إذا كان اليهود سيهبطون تصرفاتهم ، أو إن أحدا ينصحهم بذلك على نحو مؤثر . وقد عبر عن هذا الرأي وزير خارجية مصر والشيخ يوسف ياسين وكيل وزارة الخارجية السعودية . ومن الواضح أن

هذا التلحق مبعثه تكرار اعتماد اليهود على العرب في فلسطين ، وكثرة أعداد الفجانيا بين العرب .

(د) لقد كانت هناك سرارة واضحة لدى كل المسؤولين العرب ضد الحكومة البريطانية ، وأكثر ضد حكومة الولايات المتحدة الأمريكية . وفي التعبير عن المראה ضد الحكومة الأمريكية بالذات فقد تكررت الإشارات إلى دبلوماسية الدولار (Dollar diplomacy) . ومن الملاحظ أنه بعدت من البعض تعبيرات عن الرغبة في الصداقة مع بريطانيا ، وفي الغالب أن تلك كانت محاولة للمص ببريطانيا ضد الولايات المتحدة .

(هـ) من المؤكد أن هذه الأوضاع سوف تؤثر على كل محاولات إقامة نظام للذراع من الشرق الأوسط . وعلى سهيل النشال فإن رياض الصلح رئيس وزراء لبنان أهاب بالحكومة البريطانية أن تبرز صداقتها مع العرب . وأشار إلى المفاوضات التي تجري بين بريطانيا وبين كل من العراق ومصر . كما أنه قلل من قيمة الاتفاق مع شرق الأردن قائلا "أية فائدة لهذا الاتفاق إذا ضاعت فلسطين ؟"

٣ - إن هناك علامات ظاهرة على رغبة عامة في التقاطع مع بريطانيا ، ويحدث هذا التعاون يخفي الزعماء العرب أن الأمور سوف تفلت من أيديهم . إن أحدا من هؤلاء الزعماء لم يشرح بوضوح مائلا يريدها ، ولكن مؤدى كلامهم جميعا يمكن ترجمته في عبارة "أليس في مقدورك أن تعلموا شيئا لمساعدتنا ؟"

٤ - إن هذه الظاهر جرى التعبير عنها في أحاديث مع ثوري السيد صالح جبر (رئيسا وزارات في العراق) . وكان رئيس الديوان الملكي تحسين قسري هو الأكثر صراحة في شرح ما يريد . وقال للسفير البريطاني في بغداد "لجنة ثلاثين عاما كانت الحكومة البريطانية هي التي تقول لنا كيف نتصرف . وكنا بالفعل نتصرف لما فيه صالح البلدين . والآن لأول مرة فأنتم لا تقولون لنا شيئا سوى النصح بالتزام الهدوء . والوصى على العرض والحكومة يريدان ما هو أكثر ولا فإن "الأعداء" سوف يجدونها فرصة لتكثيف الضغوط علينا .

٥ - هناك تفاصيل لها تأثير على الموقف العام ويستحسن وضعها في الاعتبار ، ومنها أن الحكومة الأردنية تركز اهتمامها على أن تحصل لنفسها على القسم العربي من فلسطين ، وتعتمد أن في إمكانها أن تتوصل إلى اتفاق في هذا الشأن مع اليهود . لكنها تحت الضغط مضطرة إلى مساهرة الرأي العام العربي .

.....
.....



كان الرئيس الأمريكي "هارى ترومان" يعرف "ما يريد" ، كما أنه كان يعرف ما يريده الآخرون عارفاً حدود كل منهم وهكذا تتحدث الوثائق :

• وثيقة رقم ٤٤٨ - ٢/ ج ٧١١٠٩٠

مذكرة كتبها السفير الأمريكي في العراق (وانسورث) إلى مدير قسم الشرق الأوسط في وزارة الخارجية الأمريكية (لوى هندرسون) عن مقابلة له مع الرئيس ترومان .

التاريخ : ٤ فبراير ١٩٤٨

(سرى جداً)

الوضوع : حوار مع الرئيس .

كما تعلم فإنني قابلت الرئيس ، وقد قدمت له مذكرة بواسطة مساعده لشؤون الأمن القومي الأميرال سويرز ، وتم ذلك قبل الاجتماع لكنى يكون على علم مسبق بما أنوى أن أتحدث فيه ، وكان بناء على طلب الأميرال سويرز . وقد استقبلني الرئيس عند الظهر تماماً وتحدثنا لمدة خمس عشرة دقيقة . قال لى الرئيس إنه قرأ الورقة التي أرسلتها إليه ، وعقب بقوله "إن الأوضاع فى الشرق الأوسط هى التى تحمله الآن" . وقد قلت له إننى أريد أن أعرف منه مباشرة ما إذا كانت حكومة الولايات المتحدة تفكر فى إرسال قوات إلى الشرق الأوسط لكنى تفرض قرار تقسيم فلسطين ؟ وقد رد على الفور بقوله إنه يفضل أن يعمل بواسطة الأمم المتحدة .

وأهداف الرئيس إن ذلك هو ما قاله بالضيظ للأميرال فيصل ، ولأميرال إيمان ، وللوصى على عهد العراق الذى اجتمع به لمدة ساعتين كاملتين .

وقال الرئيس إنه لفت نظر الوصى إلى ضرورة الاهتمام بالمشروعات الكبرى فى العراق نفسها بدلاً من الانشغال بمشاكل بلاد أخرى مثل فلسطين . وقال الرئيس فى هذا الصدد إن لديهم مشروعا مثل مشروع تنمية وادى دجلة والفرات بأموال البترول العربية التى يحصلون عليها ، فالعراق يلد يحتاج إلى التنمية . وفى كل مرة دخل الغزاة إليه ، من أول تيمور لنك وحتى الآخرين ، فإنهم حطموا فى طريقهم كل شيء . إن الغزاة ينملون ذلك باستمرار . وأما نحن - قال الرئيس - "لأول مرة فى التاريخ تكون سياسة الغزاة هى التوجه إلى البقاء" .

وقلت للرئيس إنه يصعب تحويل نظرو العراق عما يجرى فى فلسطين ، والمغرب اليوم يريدون منا إجابة واضحة عن سؤال واحد ، وهو ما إذا كنا سوف

تقبل بالضغط الصهيونية وتبعث بقوات أمريكية أو قوات تابعة للأمم المتحدة لفرض قرار التقسيم . ورد الرئيس : "إننا لن نفعل شيئاً من ذلك ، ولكنى لا أستطيع أن أعطهم ضمانات بالألا أقبل قبل أن يؤكدوا لى هم أنهم لن يستعملوا السلاح لمراقبة التقسيم" . وقلت للرئيس إننى أفهم وجهة نظره ، واقترحت عليه إبلاغها لكل رؤساء البعثات الأمريكية فى الشرق الأوسط . وعقب الرئيس بقوله : "إن العرب ليس لديهم أى شيء أكثر من حجج قانونية" .

إمضاء

والمنسوث

• وثيقة رقم ٢٣ فلسطين ب ب ٥٠١

برقية من الوزير المفوض فى السعودية (تشارلين) إلى وزير الخارجية .

التاريخ : جمدة ١٣ مارس ١٩٤٨

أخطرنى عزام بأها الذى جاء إلى جمدة اليوم بعد مقابلة الملك عبد الله فى عمان أنه تم الاتفاق على أن يرسل عزام بأها بوصفه أمينا عاما للجامعة العربية رسالة تحذير عام من إصدار أية تصريحات يمكن أن يعتبرها مجلس الأمن تهديدا للسلام الدولى . وقد شرح لى أن النزاع فى فلسطين هو نزاع مدنى ، ويجب من وجهة نظر عربية عدم إعطاء الفرصة لأحد كى يتدخل بالقوة فى فلسطين . وقد أخطرتة بمضمون برقيتكم رقم ٧٦ بتاريخ ١ مارس ، وعلى الفور راج عزام بأها يكتب برقية إلى وزير الخارجية السورى يؤكد عليه فيها الامتناع عن إصدار أى تصريحات تحمل شهرة التهديد .

إمضاء

تشارلين



كانت ساعة الحسم تقترب ، و"موشى شرتوك" ممثل الوكالة اليهودية من العلاقات الدولية (وفيهما بعد وزير خارجية إسرائيل ، ثم رئيس وزراءها) هو الذى يمسك بزمام

التوجيه في الساحة الأممية وكان يتحرك بوضوح وحزم ، وشهادة الوثائق :

• وثيقة رقم ٢٦٤٨ - ١٩٣٠ ن ٨٦٧

ملكرة عن مناقشة بين وزير الخارجية وبين كل من المستر موسى هرتوك والمستر إلباهو إيهيتن من الوكالة اليهودية في فلسطين .

التاريخ : ٢٦ مارس ١٩٤٨

جاء المستر هرتوك إلى مقابلة الوزير الذي دعاه إلى الاجتماع به . شرح الوزير للآنثن هدفه الذي من أجله طلبهما لمقابلته . وقال الوزير إنه يريد أن يستطلع رأى الوكالة اليهودية في أمر اجتماع يمكن ترتيبه بين الهيئة العربية العليا وبين الوكالة بقصد ترتيب وقف للعمليات المماثلة في فلسطين ، أو هدنة . وسأله المستر هرتوك أن يكون محددا في وصف الفارق بين التعبيرين اللذين استعملهما ، وهما : "وقف الأعمال المماثلة" أو "الهدنة" . وقال الوزير إنه يقصد ترتيب وقف لإطلاق نار أولا ، ثم اتفاق على هدنة بعده . ورد المستر هرتوك بأن موقف الوكالة اليهودية واضح ، وإن الشعب اليهودي في فلسطين لن يوافق على هدنة بينما توجد قوات أجنبية في فلسطين ، وإعدادات تتسلل عبر الحدود . وقال هرتوك إنه لا معنى بالقوات الأجنبية قوات الانتداب البريطاني ، وإنما يعنى أعدادا من المتطوعين العرب دخلوا إلى فلسطين من سوريا ولبنان وشرق الأردن والعراق . وأشار بالتحديد إلى مجموعة متطوعين عراقيين أقاموا معسكرا لهم قرب محطة المياه عند القدس .

وقال له الوزير "إن الولايات المتحدة تريد حلق الدماء ، وتريد الوصول إلى نوع من التوفيق بين الأطراف . وهو يريد أن يسأل المستر هرتوك كيف أمكن التعرف على هوية هؤلاء المتطوعين العرب الذين أشار إليهم ؟" ورد هرتوك "إنه لا يعرف كيف يمكن تحديدهم لأنه من الصعب تمييزهم من السكان العرب" . وتوجه الوزير بمسأل مباهر إلى المستر هرتوك : "هل الوكالة اليهودية مستعدة لقبول هدنة إذا كان بين شروطها سحب أي متطوعين عرب مسلحين من فلسطين ؟" ورد المستر هرتوك بأن "لذلك لا يكفى لأن العرب سوف يستغلون فرصة الهدنة لهزاه قوة تتسلل في أي وقت ومعها أسلحة إضافية تمرز نشاطها ، وهم سوف ينتهزون فرصة التزام قوات الهاجاناه بالهدنة ويمزجون قوتهم بمسلمين إلى أنهم لن يهاجموا" .

وقال المستر هرتوك إنه مستعد لأن يوصى الوكالة اليهودية بقبول هدنة بالهروط التالية :

١ - الوصف الكامل لكل العمليات العسكرية بما في ذلك تحريم كل أنواع الإرهاب .

٢ - سحب جميع المأوى المسلحة التي تمكنت إلى فلسطين من أراضي مجاورة.

٣ - قيام نظام للرقابة على الحدود تكون له القدرة على منع أي تسلل .

٤ - أن تحتفظ الوكالة اليهودية لنفسها بالحق في مقاومة أي عمل تسعى من خلاله الإضرار بهذه الهدنة .

وأبدى المستر هرتوك "إن الوكالة اليهودية أصبحت برنامجها على الكفالة لتحمل مسؤولية الإدارة فور انتهاء الانتداب البريطاني يوم ١٥ مايو ، وذلك في الأراضي المخصصة لها بمقتضى قرار التقسيم" .

إن الوزير سأل المستر هرتوك عن "استعداد المستعمرات اليهودية في فلسطين للدفاع عن نفسها ؟" ورد المستر هرتوك بأن "هذه المستعمرات جاهزة للدفاع من نفسها إلى الأبد" . وسأله الوزير "عما يكون عليه الحال إذا أحس اليهود أن الميزان سوف ينتقل إلى صالح العرب ونضبت معارك على نطاق واسع وتدخل متطوعون عرب ؟" وقال المستر هرتوك "إن هناك عددا كبيرا من المتطوعين اليهود سوف يجرى من كل أنحاء العالم ، وإنهم يعرفون أن ذلك سوف يحدث مضاعفات دولية خطيرة ، وعلى القوى المهتمة بالمنطقة أن تتنبه لذلك" .

ثم راجع المستر هرتوك يشكو من الحكومة البريطانية التي أصبحت تعتمد على مجموعة من الشيوخ العرب والهاشوات المصريين .

.....
.....

• وثيقة رقم ١٥٤٨ - ٤ / فلسطين ب ب ٥٠٦

برقية من المندوب الدائم للولايات المتحدة (أوسطن) إلى وزير الخارجية .

التاريخ : ١٥ أبريل ١٩٤٨

(سري ومجهول)

دعاني الدكتور حاييم وايزمان ومسي السفير جيمسوب إلى لقائه بعد ظهر أمس ، وقد وجدنا أبا إيهان منه . وقال لنا (الدكتور وايزمان) إنه لا يلهم تريد الولايات المتحدة إزاء ما يجري في فلسطين . وهو يتساءل "ما هو مبعث التردد ؟

هل هو الخوف من العرب ؟ هل هو البترول ؟ هل هو الخوف من روسيا ؟ وقد راح الدكتور وايزمان يهيب بنفسه على أسئلته قائلا : "أما عن العرب فليس هناك داع من أي نوع للخوف منهم ، فهم ضطاء بطريقة بائسة . وأما عن بترول العرب فإنهم لا يستطيعون أن يبيعوه إلا للولايات المتحدة . وعلى سبيل المثال فهل نخشى أنهم يمكن أن يبيعوا بترولهم للروس ؟ وإذا باعوه للروس فماذا يفعلون بالولايات التي سيحصلون عليها ؟

واستطرد الدكتور وايزمان قائلا "هل تخشون من أن الدولة اليهودية سوف تكون متأثرة بالروس ؟" ثم أجاب بنفسه مرة أخرى : "إنه ليس هناك داع للخوف من هذا التأثير ، فالعملاء البلاغفة حاولوا منذ سنة ١٩٢٠ أن يجدوا لأنفسهم موطن لدم بين المستوطنين اليهود ، وقد فعلوا في ذلك فشلا ذريعا .

إن الدكتور وايزمان انتقل بعد ذلك إلى المساعدات التي يمكن أن تقدمها الولايات المتحدة للدولة اليهودية . وقد تحدثنا في هذا الموضوع بصفة عامة ، ويسون التزامات محددة .

إمضاء

أوستن

• وثيقة رقم ٢٧٤٨ - ٤ / ٥ - ٨٦٧

برقية من القنصل العام الأمريكي في القدس (واسون) إلى وزير الخارجية .

القدس : ٢٧ أبريل ١٩٤٨

فيما يلي نص التصريح الذي صدر عن المؤتمر الصهيوني العام :

"لقد قررنا اعتمادا على السلطة المخولة للحركة الصهيونية وتأييد الشعب اليهودي بأسره ، أنه فور انتهاء نظام الانتخاب والحكم الأجنبي في فلسطين فإن الجهاز الحاكم لدولة يهودية سوف يقوم بتولي المسؤولية . إن الدولة التي يقيمها الشعب اليهودي في بلده سوف تضمن المسد والحرية والمساواة لكل السكان بصرف النظر عن الديانة والعنصر والجنس وبلد المجر . إن هدفنا أن نجعلها دولة لكل اللاجئين من شعبنا الذين تجمعوا هنا . دولة تصونها السعادة والعلم ، وتضيئها رؤى أنهاء إسرائيل .

وفي هذه الساعة التي فرض علينا فيها القتال ، فإننا نهيب بالمغرب داخل
الدولة اليهودية والعول العربية في الأراضي المجاورة لنا ، أن يقبلوا أخوتنا
وتعاوننا من أجل السلام .

.....
.....

إعضاء
واسعون



ورغم ذلك فقد كان العرب على استعداد للتناغم حتى هذه اللحظة ، وذلك من عدة
أسباب أولها أنهم لم يكونوا قد حزموا أمرهم على شيء محدد هكذا تقول الوثائق :

• وثيقة رقم ٢٥٤٨ - ٤ / فلسطين ب ب ٥٠١

برقية من المندوب الدائم للولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة السفير أوستن
إلى وزير الخارجية .

نويويورك ٢٥ أبريل ١٩٤٨

مقد بروسكاور (رئيس اللجنة اليهودية الأمريكية) اجتماعين مع فوزي
بك المندوب المصري (يقصد الدكتور محمود فوزي مندوب مصر في مجلس الأمن
وقتها ، وقد أصبح فيما بعد نائبا لرئيس الجمهورية ورئيسا للوزراء) . وكان فوزي
بك خلال الاجتماعين متقبلا بما فيه الكفاية فكرة تجميع الاتصالات بين المغرب
واليهود في فلسطين بهدف ترتيب هدنة تيسر ترتيب الأحوال فور انتهاء
الانتداب البريطاني . وقال فوزي بك إنه مسؤول من القاهرة وفي الغالب من
الجامعة العربية أيضا حسب إشارته بأن يجلس مع وسطاء وممثلين يهود لبحث
الوقت كله بدون تمهد نهائى من جانبه .

إعضاء
لأوستن

• وثيقة رقم ٢٦٤٨ - ٥١ / ٤ - ٨٦٧

برقية من السفير الأمريكى فى القاهرة (بنكى تارك) إلى وزير الخارجية .

القاهرة : ٢٦ أبريل ١٩٤٨

(مصرى)

تناقش الآن فى القاهرة خطط لدخول قوات عربية إلى فلسطين عندما ينتهى الانتداب البريطانى . وتبدو الصراخ متحمسة ، كما تبدو الحكومة المصرية معارضة طبقا لما علمته من مصادر مصرية حسب الاطلاع . إن النقراشى باها (محمود فهمى النقراشى رئيس وزراء مصر فى ذلك الوقت) أبدى معارضة فى النقاط التالية :

١ - خوفه من أن يؤثر اشتراك مصر فى مثل هذه العمليات على قضيتهما المطروحة على الأمم المتحدة ، وقد عرضها بنفسه على مجلس الأمن طالباً بجلاء القوات البريطانية عن بلاده .

٢ - إن القوات المصرية مفعولة الآن فى مهام داخلية . فهناك مخاوف من أن يقوم الوفد بزيارة متاعب ، كما أن هناك قلقاً من احتمال انقلاب عسكري يقوم به الجيش . وأخيراً فهناك احتمال أن يتجدد إضراب البوليس المصرى .^(٢)

٣ - إن القوات المصرية ليست مسلحة أو مجهزة بطريقة كافية ، وبالتالي فاشتراكها فى أى عمليات فى فلسطين سوف يكون بسلامة أشر ، ومن المعروف على نطاق واسع أن مخاوف النقراشى باها من هزيمة تلحق بالجيش المصرى على أيدى اليهود سوف توجهه قضية إلى ادعاءاته (فى مجلس الأمن حين عرض قضية مصر وطالب بجلاء الإنجليز) بأن مصر قادرة على الدفاع عن نفسها وعن قناة السويس بدون مساعدة أجنبية .

٤ - إن النقراشى باها خائف من أن يظهر عجز الجيش العربى عن حماية الفلسطينيين ، مما يؤدى إلى الإضرار بإيمان الشعب الفلسطينى بانتمائه العربى .

(٢) كان البوليس المصرى لطالبا تتطوع بالمرحاض قد قام بالقتل بإضراب عام امحد أسبوعين ابتداء من ٥

أبريل ١٩٤٨ ، وخلال هذا الحادف، غير المسمى فى تاريخ مصر فإن قوات الجيش كانت تقوم بمهام المحافظة على الأمن .

إن الأمير عبد الله الوصي على عرش العراق كان هذا وفي صحبته عدد من ضباط الجيش العراقي . ومن الواضح أن هدفه كان التأثير على الملك فاروق لكي يقر قرار بشأن اشتراك اليهود العرب في الدفاع عن فلسطين ، وهو قرار أهد مهرومه خلال اجتماعات عائلتها اللجنة العسكرية للجامعة العربية أخيراً في عمان . وقد فهمت أن الوصي على عرش العراق بحث الملك "فاروق" بمنطق أن مصر لا يمكن أن تقوم بدور أقل مما تقوم به بقية الدول العربية الأخرى وإلا فقدت مكانتها ومهبتها في العالم العربي .

.....
.....

إهداء
بتكني تالك

● وثيقة رقم ٢٨٤٨ - ١٩/٤ ن ٨٦٧
برقية من السفير الأمريكي في مصر بتكني تالك إلى وزير الخارجية .
القاهرة : ٢٨ أبريل ١٩٤٨

يبدو أن الدول العربية توصلت إلى قرار بدخول قواتها إلى فلسطين . وطبقاً لمعلومات حصلت عليها من عزام باشا وعدد آخر من المصادر الموثوقة ، فإن الأمر لم يحسم بعد بطريقة قاطعة . وإن يتم ذلك قبل :

- ١ - موافقة ابن سعود وحكومتى سوريا ولبنان .
- ٢ - إهداء الفرصة للمتطوعين إذا ظهر أنهم قادرين على حماية السكان الفلسطينيين .

٣ - إذا تمكن تحية اليهود العربية وتنسيق جهودها .

إن عزام باشا سافر اليوم إلى بيروت ودمشق وعبان والرياض لاستطلاع المواقف وتنسيق الجهود . كذلك توجه حلمي حسين بك^(٣) معوشاً من الملك فاروق إلى الرياض برسالة إلى الملك ابن سعود .

(٣) كان الأمير "الحلمي حسين" بك هو مسؤول التتبعات في مصر الملكي ، ومن الغريب أن يعهد إليه بمهام سياسية على هذا المستوى العالي والحق .

إن طبيعة الاتفاقات التي جرت بين الدول العربية لم تتضح بعد ، ولكن يبدو طبقا لمصادر مطلعة أن الأردن والمراق والقوات السورية معززة بوحدة من لبنان سوف تقوم بالمجهود الرئيسي . وأما مساهمة مصر فسوف تقتصر على المساعدات المالية حتى يتضح الموقف بعد انتهاء الانتداب يوم ١٥ مايو .

إن وفود العراق والأردن وكذلك الوفد المصري أهدت اتخاذ إجراءات كافية لتتفهم ضغط الرأي العام . ولا تزال الحكومة المصرية تمارض في دخول قوات رسمية قبل ١٥ مايو . وليس هناك دليل يدعونا إلى الاعتقاد بأن الملك "فاروق" سيقر تأكيداتنا لى بأن القوات المصرية لن تدخل إلى فلسطين قبل أن تتضح الأحوال في ١٥ مايو . وقد تم إخطار السفارة البريطانية هنا بالألا تسيء فهم تحرك قوات مصرية إلى العريش ، فهذا إجراء يهدف إلى طمأنة الرأي العام المصري وإرضائه بأن بلده لن يتخلف عن العمل العربي العام . وقد أكدت مصادر مطلعة في الجيوش المصري لنا أن قطارين محملون بقوات عسكرية مصرية غادرا القاهرة إلى العريش يوم ٢٧ أبريل وعليهما مجموعة قيادة وقوة كتيبة واحدة مزودة بمدافع رشاشة ، وكذلك مجموعة مشاة وتمتد القوات كلها ألف ومائة جندي .

إن هزام باغا قسال للهييب أيرلاند (السكرتير الأول للسفارة الأمريكية في القاهرة) "إن تطور الأحداث في فلسطين يشير إلى تصميم اليهود فيها على مواجهة العالم بأسره واقع يوم ١٤ مايو حين يعلنون قيام دولة يهودية ثم تتوغل قواتهم في الأراضي المخصصة للدولة العربية قدر ما تستطيع أن تصل ، وإن هذا هو الذي جعله يشير إليه بشأن دخول الجيوش العربية إلى فلسطين ، وهو يهمل أن الأمور قد تصل إلى حد انسحاب كل الدول العربية من الأمم المتحدة .

.....

.....

إمضاء

بنكني تراك

• وثيقة رقم ٣٠٤٨ - ١٠١/٤ ن ٨٢٧

برقية من السفير الأمريكي في مصر بنكني تراك إلى وزير الخارجية .

القاهرة : ٣٠ أبريل ١٩٤٨

تلتزمنا ملزمة من الجامعة العربية بشأن الأماكن المقدسة في القدس وضرورة
حمايتها من العمليات العسكرية التي تقوم بها القوات الصهيونية في فلسطين .

وتتقدم الملزمة حفاظاً على هذه المقدسات من أي صحوان ، التزام جميع الأطراف
بوقف أي احتياكات مسلحة داخل القدس . وقد أبدت الجامعة استمداها لتمويل
قوة دولية خاصة تقوم بحماية هذه الأماكن المقدسة .

.....

.....

إمضاء

بنكنى كاك

كانت الحكومات في حالة حيرة شديدة ، ثم إنها كانت تمارس قدراً كبيراً جداً من
ضبط النفس أمام تهديد لها أحد .

النقراشي باشا

" كيف نستطيع إعلان الاعتراف بدولة لم يعلن قيامها بعد "

(مساعد وزير الخارجية الأمريكي في حوار مع مستشار الرئيس الأمريكي)

كان ضغط الشعوب العربية على حكوماتها هائلا . وقد بدأ ما توقعه الأمين العام لجامعة الدول العربية "عبد الرحمن عزام" باشا على وشك أن يتحقق ، وبمؤداه أن "اليهود" سوف يغمسون العرب والعالم أمام أمر واقع فيقيمون دولتهم في الأراضي المخصصة لهم بقرار التقسيم ، ثم لا يتوقفون هناك .

كانت الوكالة اليهودية قد تحولت بالفعل إلى حكومة . وكان لهذه الوكالة جيش تمثل في قوات "الهجاناه" (قوات الدفاع) ، وكان جيشها أكبر من كل توقعات العرب وحتى خيالاتهم . ثم إن هذا الجيش قادر على الإمساك فوراً بالمناطق المخصصة للدولة اليهودية ، وهو بعدها جاهز للوثوب على أرض الدولة العربية في فلسطين .

وفي مقابل ذلك فإن شعب فلسطين مكشوف ينتظر المدد العربي . وقد وصلت إلى أرضه بالفعل مجموعات من قوات المتطوعين العرب : من سوريا والعراق في الشمال ، ومن مصر في الجنوب على الخط ما بين الموجة إلى بحر سبوع وإلى بيت لحم . لكن قوات المتطوعين على بسالتها - وخصوصاً القوات المصرية بقيادة الأميرالاي "أحمد عبد المزيز" - لم تكن في وضع يسمح لها بالوقوف أمام قوات الهجاناه التي كانت على وشك أن تتحول إلى "جيش الدفاع الإسرائيلي" .

ولم يكن أمام الدول العربية خيار سوى أن تتقدم نحو ساحات فلسطين بخطى متثاقلة . وكان الواضح أن الدول العربية كلها تنصر عملياتها على الأجزاء العربية من فلسطين ، ولكي تؤمنها وتحميها من إفساد القوات اليهودية عليها . وكان معنى ذلك إاقعها - وإن لم يكن قانونيا - أن الدول العربية اعترفت بقرار التقسيم وقررت العمل في حدوده .

كانت الدول العربية قد أنشأت قيادة عليها لجيوشها تنمى استراتيجية عليها في فلسطين . وقد رثى أن يتولى الملك "عبد الله" ملك الأردن هذه القيادة العليا بنفسه . وكانت لذلك أسباب عملية أهمها ما يلى :

١ - إن الأردن هو أقرب البلدان العربية إلى قلب فلسطين . وبالتالي فإن قواته قادرة على الوصول بسهولة إلى المناطق الحيوية في العمق الفلسطيني .

٢ - إن الملك "عبد الله" كان لديه واحد من أقوى الجيوش العربية المجهزة لنوع ما من القتال ، فالعراق العربي الذي أنشأه الإنجليز وتولوا كل المراكز الحساسة في قياداته ، ووضعوا على رأسه قائده الشهير "جلوب" باشا كان على مستوى عسكري يفضل حال بقية الجيوش العربية .

٣ - وساعد على هذا الوضع حقيقة أن مصر لم تكن حتى وقت متأخر قد حسمت رأيها على دخول الحرب . وبالتالي فإن جيشها ، على فرض أنه كان مستعدا .. كانت بينه وبين مهادنة القتال مسافات واسعة .

٤ - وربما أضيف إلى كل هذه الأسباب أن معظم الدول العربية كانت تشك في نوايا الملك "عبد الله" وتتصور أن هدفه هو ضم فلسطين العربية إلى مملكته . وكان الظن أن تولى الملك لقيادة الجيوش العربية سوف يكبح جملة طموحه الشخصى بلبسة عربية شامخة وصلت إلى حد اختباره قائدا أعلى لكل الجيوش العربية .



وكانت تحت القيادة العليا التى يتولاها الملك قيادة عامة للجيوش العربية أسندت إلى اللواء العراقي "إسماعيل صفوت" باشا . وقد وضعت هذه القيادة خططا طموحة على الورق ، لكن الذين وضعوها أنفسهم كانوا يعرفون مسبقا أنها مستحيلة التحقيق ، فالقائد العام "صفوت" باشا لن تكون له فى حقيقة الأمر أى سلطة على بقية الجيوش العربية لأن هذه الجيوش سوف تكون باستمرار فى يد حكوماتها التى كانت لكل منها حسابات خاصة

تختلف أكثر مما تتفق . وكان "إسماعيل صفوت" باشا ضابطاً لم يعش تجربة ميدان القتال ، وقد ترقى إلى رتبته الرفيعة - كما هو الحال في معظم الجيوش العربية - وقتها - بحكم الأقدمية ، ويتغير أنه ضابط مأمون لا يتجاوز تفكيره حدود خراطة .

والواقع أن "إسماعيل صفوت" باشا خسر قيادته قبل أن يمارسها . فقد حدث قبل أسبوع من بدء القتال أنه خرج من الفندق الذي يقم فيه في القاهرة وهو فندق "فريد" القديم ليترى قبل أن يحضر اجتماعاً للجنة العسكرية لجامعة الدول العربية . ويجوز سور الأنيكية شاهد اللواء "صفوت" باشا مجموعة صغيرة من الحارة يلتفون حول رجل يلعب معهم لعبة "الثلاث وريقات" ، ووقف القائد العام للجيوش العربية يشاهد ما يجري ، ويبدو أن اللعبة أثارت فضاركة فيها . وفي عشر دقائق كان اللواء "صفوت" باشا قد خسر كل ما معه من نقود وكان مبلغ ٢٨٦ جنيه . ولم يكتف "صفوت" باشا بخسارة أمواله ، وإنما دخل في مشادة مع "الثلاث وريقات" وصلت إلى قسم پوليس الأنكية . وتمثل القائد العام للجيوش العربية عن حضور اجتماع اللجنة العسكرية ، وحدين وصل إليها متأخراً كانت تفاصيل حادثة النصب التي وقع ضحيتها قد سجلته إلى هناك ، وكانت دليل سلوم مكرر .

ومن مجمل الأوضاع وحفاظها أن الملك "عبد الله" مارس دور القائد الأعلى دون أن يكون بجانبه قائد عام ميداني ينسق العمليات بين الجبهات العربية المشتركة . وفي واقع الأمر فإن هذه المهمة انتهت بطريقة عملية إلى يد الجنرال "جلوب" باشا وإلى رئيس أركان حربيه البريجادير "بروديرسست" . وكان مزاجاً أن تكون مقابله العمل العربي العسكري في هذه اللحظات الحاسمة في يد مجموعة من الضباط الإنجليز .

.....
.....

ويوم الأربعاء ١٢ مايو ١٩٤٨ كان "النتراشي" باشا يقف أمام جلسة سرية لمجلس النواب المصري مكانها أعضاء المجلس بقرار من الحكومة بالاشتراك في معارك فلسطين . كان رئيس الوزراء المصري قد غير موقفه في دورة كاملة عن موقفه الأصلي . ففي البداية كان متردداً لأسباب لديه معقولة (سبقت الإشارة إليها في سياق يرقية من الصغير الأمريكي في القاهرة إلى وزير خارجيته) . وبعد ما بالأم - يوم ١٢ مايو - كان "النتراشي" باشا قد انقلب من معارض لاشتراك الجيش المصري في معارك فلسطين إلى مؤيد له . ومن الاتصاف للرجل أنه فصل ذلك دون أن تكون لديه فكرة واضحة عن القوة العسكرية للدولة اليهودية ، و إلى جانب ذلك فإن الملك "فاروق" كان يمارس عليه ضغطاً شديداً

كى لا تتخلف مصر عن بقية الدول العربية ، وتلقذ مكانتها فى العالم العربى
وخصوصا بفرقه .



فى نفس اليوم - ١٢ مايو ١٩٤٨ - كان هناك اجتماع فى البيت الأبيض برئاسة "هارى
ترومان" رئيس الولايات المتحدة نفسه . وقد حضره مع الرئيس كل من وزير الخارجية
(آتشيسون) ومساعد الوزير (لوفيت) ، و"كلارك كليفورد" و"ديفيد نايلز" و"ماتيو كونيلى" من
مستشارى الرئيس فى البيت الأبيض ، واثنان من خبراء وزارة الخارجية هما "فريزر وهلكنز"
و"روبرت ماكيلنتوك" .

وطبقا للوثيقة رقم ١٢٤٨ - ٥/ ب ب فلسطين ٥٠١ ، فإن وقائع هذه الجلسة جرت
على النحو التالى :

" بدأ الرئيس فقال إنه دعا إلى هذا الاجتماع لأنه أصبح شديد القلق على ما
يمكن أن يحدث فى فلسطين يوم ١٥ مايو . وبدأ المستر لوفيت بتقديم عرضا وافيا
للحوادث ، ثم ركز كلامه على وقائع يوم السبت ٨ مايو حين جاء المستر موسى
هرتوك مندوب الوكالة اليهودية . ففى ذلك اليوم (٨ مايو) جاء هرتوك ومعه
الدكتور إيهتهين بمعلومات هامة عرضها على الوزير . قال المستر هرتوك "إن وزير
الاستعمارات البريطانى السير آرثر كريتش جونز أخبره رسميا بأن الملك عبد الله
ملك الأردن سوف يدخل بجيشه يوم ١٥ مايو إلى الأجزاء العربية المخصصة
للعرب فى فلسطين . وفى رأى وزير المواصلات البريطانى أن هذا التمهيد من الملك
عبد الله يمكن الاطمئنان إليه بواقع أن الجيش الأردنى يقوده ضباط بريطانيون
وتموله الحكومة البريطانية . أضاف هرتوك إلى ذلك أن رسالة وصلتته من الوكالة
اليهودية فى فلسطين أخطرتة أن الكولونيل جولدى من هيئة أركان حرب الفيلق
العربى الأردنى اتصل بالوكالة اليهودية ناقلا رسالة مؤداها أن صفقة يمكن
ترتيبها بين عبد الله والوكالة ، وإن الملك سوف يدخل الأجزاء العربية من
فلسطين تاركا لليهود ملكية الباقي من هذا البلد .

.....
.....

تدخل المستر كلارك كليفور^(٤) في المناقشة فأوضح ثلاث نقاط :

النقطة الأولى : إن تقسيم فلسطين قد وقع فعلا بدون تدخل قوات خارجية.

النقطة الثانية : إن المستر كليفورود توجه إلى الرئيس طالبا منه أن يعطى اعترافه الرسمي للدولة اليهودية في فلسطين فور انتهاء الانتخاب البريطاني يوم ١٥ مايو ، وفي رأيه أن الولايات المتحدة يجب أن تسبق الاتحاد السوفيتي في الاعتراف بالدولة اليهودية .

والنقطة الثالثة : إن الرئيس يجب أن يعلن في مؤتمره الصحفي في اليوم التالي - ١٣ مايو - عزم الولايات المتحدة على الاعتراف بالدولة اليهودية .

وقدم المستر كليفورود مشروع صياغة لما يمكن أن يقوله الرئيس في تصريحه ، وكان نصه : "إنني طلبت من وزير الخارجية أن يطلب من ممثل الولايات المتحدة في الأمم المتحدة أن يحصل على اعتراف مبكر من أعضاء المنظمة الدولية بالاعتراف بالدولة اليهودية في فلسطين" . واعترض مساعد الوزير المستر لوفيت قائلا "إن ذلك سوف يكون استباقا للأمور لا ناهي له ، فكيف يمكن أن تعلن الأمم المتحدة اعترافها بدولة لم يعلن قيامها بعد" .

.....

.....

وافق الرئيس على مشروع إعلان يقول "إنني أنظر بروح العطف إلى إنهاء دولة يهودية في فلسطين طبقا لقرار الأمم المتحدة بتاريخ ٢٩ نوفمبر . وعندما يجري إعلان دولة يهودية في فلسطين فإنني أرى أن تقسيم الولايات المتحدة اعترافها بهذه الدولة" .

ثم تجس، وثيقة أمريكية تالية برقم ١٤٤٨ - ١/٥ ن ٨٦٧ ، وقد جاء فيها ما ينس :

" تلقت وزارة الخارجية في الساعة ٥:٤٥ بعد ظهر يوم ١٤ مايو ١٩٤٨ رسالة من المستر كلارك كليفورود المستشار الخاص للرئيس ترومان جاء فيها :

"إن الرئيس عرف أن دولة يهودية باسم "إسرائيل" سوف يعلن قيامها في فلسطين في الساعة السابعة بعد ظهر اليوم (أي بعد ربيع ساعة من رسالة كليفورود).

(٤) كان "كلارك كليفورود" بعد ذلك أحد أطراف واحدة من أكبر فصائح البلوك العربية في الولايات المتحدة، فبعض العرب لم يجدوا فيه ليكون رجالهم في مفروضاتهم المالية في أمريكا !

إن الرئيس طلب منى إخطار الوفد في الأمم المتحدة بإعلان اعتراف الولايات المتحدة بهذه الدولة فور إعلان قيامها .

وقد أضاف كليفورن في رسالة الرئيس إلى وزارة الخارجية ، وقد تلقاها الوزير المفوض دين راسك (أصبح بعد ذلك وزيرا للخارجية مع الرئيس كنيدي) :
"هذا ما يرضي الرئيس في عمله ، وقد أخطركم به" .



في نفس الساعات تقريبا ، وبالتوازي مع ما كان يحدث في مجلس النواب المصري وفي البيت الأبيض الأمريكي ، كان هناك مشهد أكثر غرابة يجري في عمان . فقد وصلت إلى العاصمة الأردنية السيدة "جولدا مائير" (وزيرة الخارجية ورئيسة وزراء إسرائيل) مندوبة عن الوكالة اليهودية ، وكانت متخفية في زي رجل يحدو لموعد مرئب مع الملك "عبد الله" ملك الأردن . وكان ذلك اجتماع الساعسة الأخيرة قبل أن تقترب الجيوش العربية من حدود فلسطين .

كانت الوكالة اليهودية مكررا بحسب حسابا لبلدين : الأردن ، بحكم أن الاتفاق العربي قريب بأكثر من اللازم من فلسطين ، بل إن أحد ألوته كان يعمل بالفعل فيها على مواقع من جسر اللنبي إلى القدس ، بما في ذلك منطقة أريحا . وكان البلد الثاني هو مصر باعتبار ما تمثله من وزن سياسي وتأثير أدبي ومعلوى على بقية العالم العربي . ولم تكن لإسرائيل دعاوى دينية أو أسطورية في الأراضي المصرية . كما أن حجم مصر كان قوة من نوع تختلف عن كل ما يحيط بفلسطين في المشرق . وكان ذلك الحجم في حد ذاته "عاقلة" لا تريد إسرائيل أن تفقدك معها .

ولهما يتعلق بالأردن والملك "عبد الله" فقد كانت الوكالة اليهودية باستمرار على علاقة به ، كما أنه كان على علاقة بها . وفي الواقع فإن سفرا "جولدا مائير" السرية إلى عمان يوم ١٢ مايو كانت تكملة لاجتماع غير حاسم بين الملك "عبد الله" وبين "موشى شريوك" .

وكان الاجتماع بين الملك و"شريوك" قد جرى يوم ١٢ إبريل ، أي قبل شهر من سفرا "جولدا مائير" . وفي ذلك اليوم (١٢ إبريل) قال الملك لخاصته إنه يريد أن يزيروا مقام الصحابي الجليل "أبي عبيدة بن الجراح" . ويروي اللواء "عبد الله الفيل" القائد الأردني

لمنطقة القدس والذي جرى اللقاء في منطقة قباته ، إن الملك وصل إلى مزرعة أحد أصدقائه في منطقة الفسور ثم مضى من بين الأشجار إلى مستعمرة مشرع "روتنبرج" (الكهرباء) ، وهناك كان في انتظاره "موشي فرتوك" الذي دعى للفداء معه على مائدة ضيفه . ويظهر أن الاجتماع لم يصل إلى نتيجة مرضية ، وبقيت الاتصالات معلقة بحسبه مرتبطة باجتماع يعقد سرا لهما بعد في عمان . لكن "فرتوك" كان قد أوفد إلى نيويورك ، وقررت الوكالة اليهودية أن تقبل تطوع "جولدا مائير" لأداء المهمة بدلا منه .

وليلة ١٢ مايو وصلت سيارة يقودها أحد رجال الملك إلى منطقة الفسور وإلى نفس المزرعة التي تم فيها لقاء الملك مع "فرتوك" قبل شهر . وفي الساعة التاسعة كانت "جولدا مائير" ترتدي الكوفية والمقال وعباءة فوقها وتدخل إلى خلفية السيارة ، ثم تتوجه مباشرة من هناك إلى بيت للملك على أطراف عمان . كانت الساعة الحادية عشرة مساء ، وطبقا لوصف اللواء "عميد الله التل" فإن "جولدا مائير" كانت مضطربة ولم تتناول عشاء أمر الملك بإعداده . ولاحظ الملك اضطرابها فراح بلاطفها لتهدئة مشاعرها ، ولقد راحت بعد ذلك تعرض عليه آخر مقترحات الوكالة اليهودية ، وكانت على النحو التالي :

- ١ - أن يعلن جلالة الملك الصلح مع اليهود ، ولا يبحث بجهشه إلى فلسطين بالمرّة .
- ٢ - أن يرسل جلالته وأهله ليحكم القسم العربي من فلسطين بحسب قرار التقسيم .
- ٣ - في مقابل ذلك تقبل الوكالة اليهودية ضم القسم العربي من فلسطين إلى التشاج الهاشمي .

وروى اللواء "عميد الله التل" أن "جلالته رفضن تنفيذ الشرط الأول لأنه يظهره بمظهر الخارج على الأجماع العربي . وتمهد الملك في مقابل ذلك - ألا يحدث صدام بين جهشه وبين الجيش اليهودي" ، وأن يقف الجيشان في الحدود التي رسمها التقسيم . و"قبلت "جولدا مائير" رأي "جلالة الملك" وأخذت عليه العهد بذلك" .

والغريب أن الإنسان العربي العادي ، ويغير معلومات ، كان يشعره الباطن بحس بأن موقف الملك "عميد الله" في الباطن فيه في الظاهر . وجرى في سهل أريحا في اليوم التالي مشهد بالغ الغرابة حين وقف الملك ، خداعا اجتماعه مع "جولدا مائير" ، يستعرض فرقة من جهشه كانت تعسكر بالعمل في المنطقة ، وقبل إنها ذاهبة إلى القدس لحمايتها .

بدا المشهد مبهيا . فسهل أريحا منبسّط ، وتلال "الخان الأحمر" تبدو من بعد غامضة مثقلة بحبب الأساطير ، وفرقة الجيش الأردني مصطفة وموسيقاها تدق ، والملك "عميد الله" واقف على منصة مرتفعة ووراءه يقف الجنرال "جلوب" باها وإزكانات

حريه من الضباط الإنجليز . ونادى الملك على إمام مسجد حجاز وشرير دعى إلى حفوز الاحتفال ، وقال له : "أيها الشيخ .. هذا الجيش" .

ووقف الشيخ الحجاز الشرير على المنصة بجوار الملك وهو لا يرى شيئا ولكنه يحس بكل شيء . صمت لحظات وأنظار الكل وأذانهم معلقة به ، ثم صاح ناديا : "أيها الجيش ، ليذك لنا" .

فوجئ الملك بما قاله الشيخ ، وهمس قائلا : "تحدثك الله ، شرير أعمى بعينيك وأعمى بقلبك" . واقتهد الشيخ من المنصة ، لكن أفتاق أن يحا كانت لتجاوب بأصداء الحقيقة . فالجيش الأردني بالفعل كان جيها حرييا ، لكنه في تلك اللحظة من تاريخه لم يكن ملكا للمرب .

بن جوريون (٧)

" الجامعة ليست جامعة وقراراتها ليست
قرارات "

(الملك "مهد الله" لـ"إلهو ساسون" من اجتماعات
الجامعة العريية)

كان موقف الحركة الصهيونية تجاه مصر شحنة تناقضات مكهربة ، وذلك لدوام
قديمة وجديدة :

• بالنسبة وبالتاريخ وبالأساطير فإن مصر هي العدو الذي أخرج اليهود من وادي
النيل إلى تيه الصحراء ، ومع أن هناك كلاما كثيرا يمكن أن يقال في هذا الشأن ، فإن
الصبرة ليست بتحقيق الوقائع أو تدقيقها ، وإنما مخاطر الأمر في النهاية هي موقف
أصحاب الشأن أنفسهم ومن منظورهم . فإذا كانت مصر هي العدو في كل ما ترسب من
التراث اليهودي ، فمعنى ذلك أنها العدو بالفعل ، لأنه ليس في مقدور الحافس مهما
فعل أن يمحو الموروث أو يحوله إلى صحابات دخان . ولو أن ذلك حدث بمجزة خارج
الخيال ، فإن الدعاوى الصهيونية كلها يمكن أن تتحول إلى وهم لا علاقة له بالحافس أو
بالمستقبل .

• يضاف إلى ذلك أن المشروع الصهيوني المكتن أساسا على استراتيجيات عزل مصر
عن الشام ، يواجه في المحصلة الأخيرة طاعة مصر التاريخية بلوابنها ، وإمكانات مصر
المعاصرة بكل ما يعترها من عوامل النهوض أو عقبات التمدد أو عوارض الانكماش
والقراجع .

وإذا صح - وهو صحيح - أن فلسطين هي الجسر الذي يربط مصر وسوريا ..

وإذا كان لازماً وقد رآه "نابليون" و"بالمرستون" ومن بعدهما لازماً - أن يتحول الجسر إلى حاجز - إذن فإن ممكن الخطر الوحيد على هذا الحاجز هو في مصر ، فهي في الشرق كتلة إنسانية متماسكة وراسخة وقادرة بالكلم الموجود ، وبالكهف المحتمل ، على مراكلة المشروع اليهودي في فلسطين بمقاومته ، أو التصدي له ومحاربه .

وعلى العكس من الكتلة الإنسانية المصرية في الجنوب ، فإن الشمال والشرق من حول فلسطين كانا أقل تماسكا من ناحية الكم ومن ناحية التباين الطائفي والمذهبي - وأحيانا العرقي - بما يسمح بوجود حالة من الخلطة يسهل على المشروع الصهيوني استغلالها والنفاذ من قنراتها المقلوبة .

هكذا فإن حسابات المشروع الصهيوني في فلسطين كانت تولي اهتمامها الأول لسياسات القوى العظمى الحاكمة في المنطقة ، ثم يلي ذلك مباشرة على أرض الصراع نفسها الاهتمام بمصر .

ولم تكن المؤسسات الصهيونية التي برزت لمستوطنات المشروع الصهيوني في فلسطين على استعداد للتطوع مبكرا بهجر مصر إلى الصراع العربي - الإسرائيلي . ولا كانت راقية في استقراؤها بخير دأب . وكانت هناك اعتبارات تساعد على هذا الموقف الحذر تجاه مصر :

- ليست لليهود مطالبات دينية أو أسطورية في مصر .
- وحجم مصر وإمكاناتها فإنه من الأفضل تلافئها .
- ثم إن هناك جالية يهودية قوية في مصر .
- وهذه الجالية اليهودية في مصر نشطة في موقع هو الأكد قربا من أرض المشروع الصهيوني .
- ثم إن هناك تيارات فكرية لها قيمتها في مصر تظهر شمالا عبر البحر الأبيض ولا تظهر شرقا عبر سيناء .
- وهذا كله يتيح فرصة بدت نافذة ، ومؤذاهما أنه يمكن استغلال العدو القديم في تحقيق المشروع المستجد ، خريطة التعامل معه بذلك وبعد نظر .
- وفي الساعات الحاسمة في مشروع إقامة دولة يهودية في فلسطين ، كانت الوكالة اليهودية متمكة في ثلاث عمليات في نفس الوقت :
- عملية خارج المنطقة تتمثل في تحقيق الاستخدام الأمثل للصوارد اليهودية في العالم ، خصوصا في الولايات المتحدة الأمريكية .

- عملية داخل أرض مشروع الدولة ذاته ، وهي تتمثل في الإسراع بكل وسائل القوة إلى خلق حقائق جديدة على الأرض ، بما في ذلك مشاغبة الملك "عبد الله" واستغلال طموحه إلى ضم الأراضي المخصصة للدولة العربية في فلسطين إلى مملكته الصغيرة التي لم يعتبرها قط لائحة به .

ثم كانت العملية الثالثة :

- متابعة تطور موقف مصر السياسي ، ثم العسكري .
لم يكن كثيرون يعرفون أن "دافيد بن جوريون" - وهو المؤسس الفعلي لمشروع الدولة اليهودية في فلسطين - يكتب يومياته بانتظام ، ولا يأتى إلى فراشه في الليل مهما تأخر به السهر ، حتى يخط بقلمه وقائع ما عاشه طوال النهار .^(٥)
وفيما بعد ذاع أمر يوميات "بن جوريون" . وحاول "بن جوريون" أن ينكر أنه كتب يومياته . ولكن الكاتب المجرى اليهودي الذائع الصيت "آرثر كوستلر" صاحب كتاب "الظلام في هز الظهر" روى أنه بنفسه شاهد "بن جوريون" يكتب بعض النقط في كراس أثناء حديثه معه . وحين سأله ، حاول "بن جوريون" أن ينفي كتابة يومياته . ثم تحقق الأمر بعد ذلك ، واعترف "بن جوريون" ، ولم يمانع في نشر يومياته بعد وفاته . وهكذا فإن كتابات "بن جوريون" عن الحوادث في وقت جريانها تعطي الآن صورة مذهشة للطريقة التي كانت القيادة اليهودية فيها تدبر عملياتها على الجبهات الثلاث : أمريكا - وفلسطين ذاتها - ومصر .

□□□ الاثنين ٩ ديسمبر ١٩٤٧ - القدس

.....
.....

في الثالثة من بعد الظهر اجتمعت إلى المفدوب السامي (الجنرال ألن كاتنجهام) . سألتني هل سمعت بالقرار (قرار التقسيم) ؟ قلت له إنني بعد صدور القرار أجد الدهشة

(٥) نشرت مذكرات "بن جوريون" باللغة العبرية بعنوان "يوميات ملحمة" سنة ١٩٨١ ، وقد صيرت من دار النشر التابعة مباشرة لقادة الجيش الإسرائيلي ، وأضرف على إصدارها الكتاب من المؤرخين الإسرائيليين هما "جورجون يغلين" و"إيمانان أوزن" . ولقمت مؤسسة الدراسات الفلسطينية سنة ١٩٩٣ بنشرها باللغة العربية بعد أن ترجمها الأستاذ "سبحر جبير" وراجعها الأستاذ "صبرى جريس" .

له والحكومة جلالاته إلى الاقتراح بطريقة ودية . إن أطلب شيئاً ضد العرب أو على حساب العرب. إننا لن نعمل شيئاً كهذا ، ولدينا حسن نية ، وستطعمون الرحيل عن البلد بلا مبالاة وجفاهة إذا أردتم ، أو يتعاون ودي معنا وهذا ما نطلبه . قلت له عندي مجموعة من اللغايا :

"إنكم تقومون بتصوير وثائق ملكية الأراضي خفية إتلافها في حال وقوع اضطرابات . نريد نسخة واحدة لنا ، " أجاب على الفور : "ستبقى الوثائق كلها في مكانها لصحة السكان . إنهم يصورون فقط فيما سلبها (negative) وهو يكلف أموالاً كثيرة - خمسة آلاف جنيه . " سألته : "هل يمكن استخراج نسخة لنا ؟ قال "سيئال" .

انتقلت إلى القضية الثالثة ، وهي مخزون المواد الغذائية . قلت له : "من المؤكد أنكم ستتركون مخزوناً محدوداً لا يكفي إلا لفترة قصيرة ، ونظراً لأننا لا نعرف ما يمكن أن يحدث فإننا نريد إمداد مخزون كبير ، ونريد استيراد كميات من المواد الغذائية خصوصاً الدقيق والسكر . " أجاب أنه "سيجري مشاورات" .

بالنسبة للوقود لاحظت أن شركات الوقود لجأت الآن إلى البيع بالبطاقات . قال إنه لا يعرف السبب فهذا شأن الشركات . قلت له إننا سندبر أمرنا مع الشركات إذا لم تمرل الحكومة جهودنا .

أشرت مرة أخرى معه مسألة بيع كل أسلاك الجيش البريطاني في فلسطين ، بما في ذلك الخيام والأسرة ، وقلت إننا نريد أن تشتري كل شيء بالجملة ، ونريده أن يوصى بذلك .

قلت له أيضاً في ضوء الوضع الجديد إننا نريد إقامة إذاعة مستقلة في تل أبيب . قال : سنمنحكم إمكانيات الإذاعة الحكومية . قلت : ولكن ذلك يجعل إذاعاتنا خاضعة للرقابة . قال : طبعاً ، ما دمنا هنا فنحن الحكم . قلت : نريد إذاعة يهودية من تل أبيب . قال : إن العرب لم يتقدموا بمثل هذا الطلب ، وإذا حصلتم على تصريح فقد يطلبون نفس الشيء . قلت : لا ينبغي أن نعاقب لأن العرب لم يطلبوا . وعلى أي حال لا يهمنا إذا اتهمتم في تأييد إذاعة عربية . قال إنه سينظر في الأمر .

انتقلت إلى قضية أكثر خطورة . قتل سبعة من اليهود أمس ، ونحن نريد حراسة مسلحة تواكب كل حافلة ركاب . ونحن لا نريد سفك الدماء ولا الانتقام ، بل إمكانية الدفاع . قال إنه يفهم ، وسيعرض الأمر على المجلس التنفيذي . طلبت تصريحاً لشراف مسدسات ورشاشات لرجال الشرطة اليهود ، وشاركات مضخة المياه .

.....

.....

- قبل المساء نزلت إلى تل أبيب . كلمني موسى شريك هاتلها من نيويورك .
كان ببساطة يريد أن يكلمني . في نيويورك هرج ومرج . لمح لي أنهم في لندن يريدون
التحدث إلينا ، وقال إنه سحضر إلى هنا عن طريق لندن . سألته عن المعتاد العسكري ،
وسوف يسافر إلى واشنطن لهذا السبب .

.....

.....

□ □ ٢ ديسمبر ١٩٤٧

.....

.....

- حضر أعضاء الحزب . بنحاس نافون عليه إعداد خطة لمعالجة المشكلة
الزيمية.

- موسى هاتلي يطالب بإعداد تشيد وطني جديد . يقترح دوري يقترح عمليات ضد
شركات النقل والمواصلات الزيمية . يقترح أيضا ضرب مرافق المياه . إسرائيل
جاليلي يوافق .

.....

.....

- طلبت من موسى أليسوخ الذي يسافر اليوم إلى الولايات المتحدة أن يبعثوا إلينا
بـ نصف مليون جنيه إضافية . فلومو جور يطلب ٤٤٨٨٤ جنيهة لهذه الإنتاج في
إدارته (إدارة الأسلحة الكيميائية) بمساعدة الدكتور أشر شليجر (عالم كيمياء) .

- حضر إلى يوسف يورتس من صفد . هناك زعر والمرب يخرجون من الأحياء
اليهودية ..

- اجتماع لدراسة الضباط وشباط الصف المؤهلين بين المهاجرين الموجودين في أوروبا :

في ألمانيا والنمسا : ضباط هيئة قيادة ٢٦٤ ضابطا - جنود بعدد ٢٠٥٤ .

في فرنسا بما فيها شمال أفريقيا : ضباط قيادة ٢٨٨ - جنود ١٠٨٠ + ٢٠٠ + ٢٣٨
انقسام من الرتبة "ب".

في هولندا : ضباط ٢٤٣ - جنود رتبة "ب" ١٥٠ + رتبة "ب" ٩٠٠ .

في تشيكوسلوفاكيا : ضباط ٤٥ - جنود رتبة "ب" ١٩٨ .

في رومانيا : ضباط ٥٠ - جنود ٧٠ ، رتبة "ب" + ٧٠٠ .

في رومانيا مدرسة دائمة تحارب ٨٠ - ١٢٠ قائد جماعة كل ٦ أسابيع .

.....

.....

- إسرائيل جاليلي يقول إن كورتيس تحدث مع قادة القوات الإيتلسل ، يريدون أن
يبقوا ككتلة مستقلة بعيدا عنا حتى يتمكنوا من زحزحة الحدود ومحاربة العرب حتى إذا
التزمنا نحن بقية .

□□ ١١ ديسمبر ١٩٤٧

.....

.....

- سالفين (المهندس حاييم سالفين ، وهو أحد مؤسسي الصناعات العسكرية في
إسرائيل) أبلغني : سينتهي هذا الأسبوع تصنيع ٢٠٠٠ رشاش يدوي - وفي هذا الشهر يتم
إنتاج ٢٥٠ ألف طلقة - استأنفوا إنتاج مدفع هاون ٣ بوصة - ينتجون ٥٠٠٠ سون (رشاش
يدوي) - على وشك الانتهاء من إنتاج ٦٠ ألف قنبلة مبلز - سنحصل من أمريكا على ٥
أطنان بلمستيد ، ومن إيطاليا على ثلاثة ونصف . يتطلب صنع مليون طلقة بندقية ٢
طن من البلمستيد . سيصل من إيطاليا ثلاثة أطنان وربع T.N.T. (ديناميت) ، وسيصل
من أمريكا ٢٥٠ طن . اللجنة المالية حولت مليون دولار للصناعات الحربية .

- شلومو جور أبلغني أن مصنع الكوريت سيبدأ العمل في أواخر ديسمبر ، وخلال
يناير ينتجون ٣ أطنان ، وبعد ذلك ٤ أطنان كل شهر . من الجائز أن يتمكنوا من إنتاج
الديناميت بدون حامض النتروجين ، وهذا لا يزال سراً . مصنع القنابل المسيلة للدموع
أصلى إنتاجه لهذا الشهر لرجال القدس . يفرغون الشهر القادم من صنع ٦ آلاف قنبلة
وتروا طاقة إنتاج ثلاثة آلاف لغم يوميا .

— عزرا داتين لا يقتل فرصة إيهافو ساسون بأن المعارضة للقيادة العربية قد اختفت . إنها قائمة تنتظر زوال ثورة الغضب . إن قواتها كطابور خامس في المعسكر العربي لا تزال قائمة كما هي . الملك عهد الله لن يخضع لضغط الجامعة العربية . القوقجي قائد جيش الإنقاذ يريد الاجتماع إلى ممثلين هنا .

— تناولت الغداء مع ميثا ميريدور وإسرائيل جاليلسي وإيهافو ساسون . وصل من إيطاليا ٥٠٠ رهاس ، و١٧٠ بندقية ألمانية ، وربع مليون طلقة ٣٠٣ ، و٣٠٠ ألف طلقة ٩ ملم ، و٣٠٠ ألف طلقة من عبارات صغيرة للمسدسات ، إضافة إلى كمية من أمشاط الذخيرة لرشاشات البهرن ، وأجهزة بصرية . واشتروا إضافة إلى ذلك نصف مليون طلقة صغيرة (٣٧ ألف دولار) ، وثلاثة ونصف طن T.N.T (٢٦ ألف دولار) ، وثلاثة ونصف طن بلسنيد (١٥ ألف دولار) ، وأجهزة اتصال (٦٠ ألف دولار) . صرحت بطلنية جديدة للذخيرة (١٠٠ ألف دولار) .

— الحاخام حاييم ناحوم (حاخام مصر) تكلم هاتفيا مع ماجنيس (رئيس الجامعة العبرية) يطلب منه الذهاب إلى مصر . كان قد بحث له برسالة يوم ٩ ديسمبر أثار فيها إلى مسائل تتعلق بالسلم . سألت ماجنيس : هل يعنى هذا الأمر مغالوفات ؟ قلت له إننا مستعدون للتباحث مع مصر بصورة رسمية أو غير رسمية ، ولكن كطرف متساو .

— يهودا أرزى ملحق شراء السلاح في الولايات المتحدة اشترى ثلاث طائرات كونستيليشن وعشر طائرات سي ٤٦ .

.....

.....

□□ الاثنين ٢٢ ديسمبر ١٩٤٧ - القدس

.....

.....

— نحن نتحدث على الكلمات الهاتنية للهيئة العربية العليا ، والمسجد (الأقصى) ، والدكتور الخالدي وعدد آخر . يبدو أن عالم الاجرام يتجمع هناك . يتضح من الكلمات أنه لا يوجد تسيق بينهم .

— الجامعة العربية اتخذت بمقدار ما تعرف من الضخامة ومن حرب ومن مكالمات تليفونية سبعة عشر قرارا . ساسون يعرف تسعة منها . ربما ستعرف من أحد الأشخاص في شرق الأردن ما إذا كانت القرارات نهائية ، وما إذا كان شرق الأردن موافقا عليها . لا بد من هزيمة الهيئة العربية العليا بطريقة ساحقة .

— تاييجر يبلغ من جنوب أفريقيا اتفاقا على تدريب عشرين طيارا وملاحا في جنوب أفريقيا ، وخمسة عشر ميكانيكا مهمين بالنسبة لنا لأنهم خدموا في الطيران خلال الحرب (المالية) .

— الساعة الثانية عشرة والربع عاد ساسون بعد أن قابل مندوبا عن الملك عبد الله . المندوب كان مع الملك قبل قليل وسأله عما يقوله لنا . الملك قال له : قل لهم الجامعة ليست جامعة والقرارات ليست قرارات . ونقلا عن الملك فقد طرحوا في الجامعة مشروع قطع العلاقات مع العرب كإم فارغ هل ابن سمود سيقطع علاقاته مع الأمريكيين ؟ كل واحد في العالم العربي يزايد على الآخر . حتى العراق وشرق الأردن طالبا بقطع العلاقات . شرق الأردن طالب بالخروج من الأمم المتحدة . البيان الذي صدر بعد انتهاء اجتماعات الجامعة كان موجها لتغطية الفضل العربي . شرق الأردن لم يوافق على أي قرارات . مندوب الملك أعطى لساسون صورة للموقف . مصر أعلنت صراحة أنها لن تقدم سوى المال والهدايا والعمل السياسي ، لكن لا سلاح ولا جيش . ربما تسمح لمطويعين . ليهان قال إنه لا يستطيع تقديم أكثر من ٥٠٠ بندقية . سوريا لها حسابات أخرى . السعودية ستعطي دولارات .

ساسون سأل مندوب الملك عن الفيلق العربي . أجاب : الملك يطلب أن تشير صحافتكم شجة في شأن الفيلق العربي وتطالب بنقله من مواقفه . وفي هذا الوقت تجنبوا الاحتياك معه . واطمئنتوا ، فالسيطرة على الفيلق هي في يد الإنجليز .

— عقدت اجتماعا لبحث فرص ضرب العمليتين المصرية والسورية . المسألة المهمة : كيف ؟ بالنسبة للعملة السورية فمعنوي يظن أن هذا ممكن لأن فرنسا تغطي العملة السورية .

.....
.....

□□ الخميس ١ يناير ١٩٤٨

.....
.....

— هذا الصباح زارني في منزلي وفد من جمعية الجنود المرححين يريدون أن يخدموا معنا ويتصاهلون لماذا لم يتم استدعائهم . العدد ١٧٢٥٠ ر١٧ .

— يجب أن نعتد في عملنا على أسلوب الضربة الكبيرة . ليست المسألة إطلاق نار متواصلا ، وإنما ضربة قوية كبيرة وناجحة . إذا سمع المتطوعون في البلاد المجاورة عن ضرباتنا الكبيرة هنا فسوف يترددون قبل المجيء .

— يحيرني موقف الملك عبد الله . في كل ملاقاتنا به تبرز دائما مسألة الفيلق العربي . ميزانية الأردن كلها ٧٥٠ ألف جنيه ، لكن ميزانية الفيلق العربي مليونان ونصف المليون جنيه ، والإنجليز هم الذين يمولونه . والآن عندما ينسحب الإنجليز فمن الذي سيؤمّل الفيلق العربي ؟ وصل نها أن الفيلق سيواصل العمل باسم الجامعة . الملك سيعبره إلى الجامعة كما أماره للإنجليز في مقابل ستة ملايين دولار .

قضية الفيلق غير واضحة .

.....
.....

□□ ١٧ يناير ١٩٤٨

.....
.....

— قواتنا في النقب الآن ١٢٠٠ مضادا إليها ٥٠٠ فرد في وحدات متنقلة . لا بد من تحسين النقب وإنشاء مستوطنات مؤقتة فيه حتى على أرض ليست لنا (النقب ملاصق لمصر . إذا لم تحتفظ بصحرَاء النقب فإن تل أبيب لن تصمد . النقب مهم لإيلات .

.....
.....

□□ ١٩٤٨ يناير

.....

.....

— مندوبنا عاد من مقابلة مع الملك عبد الله . الملك مندوبنا لأننا لا نهمسه ولأننا نهمسه كما لو أنه يؤيد الجامعة . موقفه باني كما هو :

١ - لن يسمح للفيلق الأردني بمهاجمة يهود .

٢ - ما دام البريطانيون في البلد فإنه لا يستطيع التدخل .

٣ - الإنجليز لم يتكلموا معه حتى الآن لكن في ٢٤ من هذا الشهر سيمسافر رجاله وأصدقائنا إلى لندن لإجراء مفاوضات وستنظر مسألة مستقبل أرض إسرائيل .

٤ - سيخذ يهودته في لندن موقفا بأنه موافق على التقسيم ، ولكن تقسيم لا يحزنه .

٥ - وهو يقول إننا قد نضطر إلى تعديل الحدود .

— الملك طلب أن نحصل له على دعم من أمريكا . وفوفينا أن نقول للأمريكان باسمه إنه موافق على التقسيم ، ومستعد للموافقة على تهديئة البلد ، ولا يريد أن يكون مرتبطا بالإنجليز وحدهم . أبلغنا الملك أننا سنؤيده ونساعده في الحصول على قرض لتطوير دولته كلها ، ومنعطينه بأنفسنا من أموال الدولة اليهودية .

.....

.....

□□ الخميس ٢٢ يناير ١٩٤٨

.....

.....

— جورج حكيم مطران الروم الكاثوليك صديق للملك فاروق . داليد هاكوهين تحدث إلى حكيم قبل سفره واقترح عليه أن يشرح موقفنا للملك فاروق .

.....

.....

□ □ ٢ فبراير ١٩٤٨

.....

.....

— طلبت إعداد خطة كاملة لإيلات لا بد أن تأخذها . في إيلات صوميتان :

(أ) يجب المرور في مياه مصر الإقليمية قبل عبور قناة السويس وبعد عبورها .

(ب) عرض مدخل إيلات ميلان ، ولا بد من المرور في المياه الإقليمية المصرية أو السودانية قبل الوصول إليها .

.....

.....

□ □ ٩ فبراير ١٩٤٨

.....

.....

— ساسون لم يتمكن من حضور اجتماعنا اليوم لأن صديقه القبطي^(١) وصل من القاهرة موفدا من قبل المسؤولين في بلاط الملك ، وهو يريد الإبلاغ عن ثلاثة أمور :

(أ) إنجلترا تضغط على الدول العربية بالخطر القويهي اليهودي .

(ب) إنجلترا تطلب بدعم من أمريكا أن تعلن الدول العربية أنه في حالة نشوب

حرب بين الدول العظمى فإنها ستتحقق بالجانب الأنجلو - ساكسوني .

(جـ) إنجلترا وأمريكا تريدان عقد تحالفات اقتصادية مع العالم العربي بدلا من تحالفات سياسية .

.....

.....

(١) على الأرجح "إيليا أندراوس" باقا مستشار الملك "فاروق" لشؤون المالية .

□□ الجمعة ١٣ فبراير ١٩٤٨

.....

.....

— يظهر أن القلب سوف يكون الموضوع الأساسي الآن حتى في نظر الأمن-كيون . لا يريدون أن يتسلم اليهود القلب .

.....

.....

□□ الأحد ٧ مارس ١٩٤٨

.....

.....

— يقول ساسون إنه لا يوجد حتى الآن اتصال مع الملك عبد الله مع أنه كان من المفروض أن يأخذوه مساء اليوم إلى مقابلة معه . يقول ساسون ، ورووف شلواح يلبسده ، إن النزاع مع العرب لن يحسم بالقوة حتى النهاية . ويجب المحافظة على نقاط ثلاثة يمكن بواسطتها التكلم عن قتلهم . يجب محاربة مصر ولبنان وسوريا في بلاد الغرب : في فرنسا ، في سويسرا ، في إيطاليا مثلا .

ستكون فرنسا وتركيا والهند معنية في إحلال السلام في البلد . يقترح ساسون سلس إليهاو إيهبكتين إلى الهند ، إلى نهرو وليس إلى جناح زعيم المسلمين . شلواح يقترح أن يسافر ساسون إلى روما أو إلى باريس للاتصال بالعرب . سألت ساسون : هل يشت من ملكك ؟ قال : كلا ، لكنه عاجز . وقال شلواح : إن الإنجليز يحاصرونه .

.....

.....

□□ الاثنين ٣١ مارس ١٩٤٨

.....

.....

— الدكتور أ. ن. فولك - (خبير أمريكي بالشؤون العربية) - في رأيه أنه يجب التخطيط للتحريب في الدول العربية : العراق ومصر وسوريا . سدود النهر في مصر يجب تدميرها . مخازن القطن المصري يجب حرقها ، وكذلك مخازن التمور العراقية . وإذا وصلنا إلى صدام مع هذه الدول فيجب ضرب أنابيب النفط خارج أرض إسرائيل . ولا بد أن نحدث قوضاً مالياً في المنطقة العربية ويجب أن نسيب تفصلاً . ويمكن الافتراض أن العرب سيقلون العلاقات ، ويجب أن نسيبهم .

□□ ٢٠ أبريل ١٩٤٨

— استعديت ساسون . الملك عبد الله يزداد شأناً كل يوم . توصل الجميع إلى الاقتناع بوجوب استخدام قوته (الفيلق العربي) . الجامعة العربية وجدت أن المصائب العربية تتلقى ضربات ، وتوصلت إلى الاقتناع بضرورة وجود جيش نظامي والفيلق العربي هو هذا الجيش . الجامعة العربية اتخذت قراراً باستخدام جيش نظامي ، وبوجوب هذا القرار من المفروض حضور جيش من لبنان وسوريا والعراق وشرق الأردن ، وربما حضور قوة رمزية من مصر أيضاً .

— يعتقد عبد الله أن هذه الجيوش جميعها لن تصمد وقتاً طويلاً . وهو وحده القادر على ورائتها لأنه وحده يملك جيشاً غير فرسوزي لبلده . إن الضربات التي وجهتها الهاجاناه إلى المتطوعين العرب حملت الملقى وحرب أرض إسرائيل على الاقتناع بأنهم لا يستطيعون بقوتهم وحدها مواجهتنا . أصبح الملقى الآن معتمداً على الجامعة العربية كلها . والجامعة تحرك أن المسألة لم تعد مسألة متطوعين بل قوة نظامية توافيقها أسلحة ثقيلة : دبابات وطائرات .

□ □ ٢ مايو ١٩٤٨

.....

.....

— حدث هذا الصباح إلى تل أبيب . عاد شلومو رايبينوفيتش (شهر اسمه بعد ذلك إلى شامير وأصبح رئيساً للوزراء في الثمانينات) . في جيفسر قابل شلومو كلا من العقيد جولدي والرائد كوكير من الفيلق العربي . ضابط الفيلق العربي طلب أن يتحدث معه . تكلموا باسم جلوب باشا قائد الفيلق ، يريدون إقامة اتصالات من أجل الحيلولة دون نشوب حرب . سألوا إذا كنا نريد احتلال الهند كله . كان الجواب عليهم أن الحدود مسألة تخص رجال السياسة ، لكن قوائنا قادرة على احتلال الهند كله . سألوا : هل سنهاجم القدس بعد حين ؟ كان الرد بأن القدس مدينة هبرية . قالوا إن الفيلق لا يريد مصادمتنا ، لكن ماذا سيعملون حتى لا يظهروا خونة . سئلوا : ما هي التوجيهات السياسية عندهم ؟ كان ردهم غير واضح .

.....

.....

□ □ ٧ مايو ١٩٤٨

.....

.....

— جلسة مع القيادة . ييجال يادين - ييجال أكرون . مناقشة الوضع العسكري في كل البلاد . قرار بإرسال وحدة استطلاع إلى مصر . لا بد من مراقبة حركة السير على كل الطرق المصرية الواصلة إلى سيناء .

.....

.....

□□ ١٣ مايو ١٩٤٨

.....

.....

— جلسة قيادة . أبرقت إلى جراتوفسكى لكى يفتح اعتماداً بمليون و٧٠٠ ألف دولار من أجل الطائرات . أثناء الجلسة حضرت جولدا (ماتير) من اجتماعها مع الملك عبد الله . نظرت إليها كى تعطى فكرة سريعة . أعطتني بطاقة كتبت عليها : "اجتماعي معه كان بزوج ودية . هو قلق جداً ووجهه مكشعر . يعترف بكل ما دار بيننا . وهذا يعنى أنه سحاخذ القسم المرمى فقط . لكنه ليس الآن سوى واحد من خمسة ."

— اللقب مهم . بحثنا هل يجب الاستيلاء الآن على بئر سبع ، وهى خارج حدود الدولة بمقتضى خريطة التقسيم ؟ اتجاه المارك هو الذى سيقرر ذلك .

.....

.....

□□ ١٥ مايو ١٩٤٨

.....

.....

— أبلغوني مرتين في هذه الليلة . فى الواحدة كى يبلغونى أن ترومان يعترف بالدولة اليهودية ، وفى الرابعة والنصف كى يبلغونى أن رجالنا فى أمريكا يطلبون منى أن أتحدث فى الإذاعة فوراً . بينما كنت أتحدث فى الإذاعة ولعبت شارة جوية . قلت على الهواء : إنهم يقتضون تل أبيب . هناك سفينة مصرية تعمل قوات راسية قرب المجدل . يبدو أن الإنجليز طلبوا من المصريين عدم التقدم شمالاً . خبر من إذاعة الجيش هذا الصباح بأن جيشاً مصرية سيدخل حدودنا صباح اليوم .

.

.....

□□ ٢٤ مايو ١٩٤٨

.....
.....

— الضغط قوى في النقب . هناك كتيبة مصرية مع مدافع يساعدوا متطوعون من رجال الإخوان المسلمين موجودون في النقب منذ وقت طويل . في بئر سبع مصريون أيضا . القتال حول عراق سويدان والفالوجا والمنشفة شديد . ركزنا عليهم هجوما ، وقد ثبتوا في مواقعهم .

— اتخذنا قرارا بتمهين مأكليف قاصدا للواء الكرمل مهمته احتلال جنوب لبنان بواسطة قصف صور وصيدا وبيروت من الجو . سنقصف بيروت من البحر أيضا .

تكليف ييجال آللون ضرب جيش سوريا من الشرق والشمال .

ينبغي أن يقوم سلاحنا الجوي بقصف عمان .

إن الحالة الضعيفة في التحالف العربي هي لبنان إذ إن سلطة المسلمين فيها معطومة ومن السهل تقويضها . يجب إقامة دولة مسيحية في لبنان يكون نهر اللبانيان حدها الجنوبي . سنمقد حلفا مع هذه الدولة .

سنقضي أيضا على قوة الفيلق العربي وعندما تسقط سوريا .

إذا تجرأت مصر على مواصلة القتال سنقصف بورسعيد والإسكندرية والقاهرة .

وهكذا سننتهي الحرب وسوف نصفي حساب أعدائنا مع مصر ومع آكوز ومع آرام .

مقدمة

" الدولة اليهودية تريد أن تأخذ موقع مصر
في الشرق الأوسط "

(دراسة لوزارة الخارجية المصرية سنة ١٩٤٨)

لقد سال حبر كثير على الورق عن حرب فلسطين ، بأكثر مما سال دم في معاركها
على مختلف المهادين . وهناك مراجع كثيرة عن هذه الحرب أبرزها "مذكرات اللواء عهد
الله التل" قائد قوات الفيلق الأردني في القدس . ثم دراسة اللواء "حسن البدرى" عن
الجولة العربية الإسرائيلية الأولى من الصراع المسلح ، وتلك وغيرها مراجع معتمدة لمن
يريد العودة إليها لكن بعض لمحات الصورة العامة في ميادين القتال وما وراءها ، هي
الأقدر على إضاءة هذه اللحظة من سياق الحوادث :

• إن مصر بالتحديد ، وهي أهم طرف عربي في الحرب ، خافت غمارها
واقعة تحت ظن أنها تدافع عن الشعب الفلسطيني فقط وتقف معه فيما تعرض له .
وكانت دوافعها هي روابط الأخوة والجوار . لكنه لم يخطر ببال كثيرين أن يعودوا إلى
التاريخ البعيد والتقريب ويكتشفوا الحقيقة الاستراتيجية الكبرى ، وهي أن الحرب كانت
في الواقع من أجل مصر ولكي لا يتحقق عزلها عن محيطها طبقا لمخططات ترمى إلى
حجز دورها وفعلها وحياتها وراء الصحراء في سيناء .

وغاب عن معظم صناع القرار وقتها أن تفحيات الناس من أجل أوطان الجيران
لها حدود ، ولكن تفحياتهم من أجل أوطانهم ذاتها ليست لها حدود .

● ويمكن القول ابتداء - وباطمئنان - أن الدول العريضة التي وجدت نفسها فجأة تحمل مسئولية قرار سياسي إستراتيجي لا تعرف كيف تتصرف إزاءه ، وتطلب فيه - كما افصح من بعض ما سبق - نصيحة ومشورة بريطانيا والولايات المتحدة عادت إلى الأطراف نفسها - بريطانيا والولايات المتحدة - تسألها المشورة بالنسبة لقرار الحرب .

والعاهد أنه لم تكن لدى العرب قيادة سياسية أو عسكرية تصرف ما فيه الكفاية عن فكرة الحرب وعناصرها ومطالبها ، وتحديد أهدافها ، وإدارة مجهودها . بل إن معظم القيادات لم يكن لديها الأساس العلمي أو الفني أو الفني الذي يمكن أن تمارس منه التجربة بما تحتمله من فرص الصواب والخطأ ، وبما تعطيه من خبرات مكتسبة نتيجة للممارسة بحيث تكون دروس هذه الممارسة تمنعها مقبولا عن تكرارها .

● يتصل بذلك أن العرب اعترافهم وهم السدد لتصوروا أنهم أقوى من اليهود في فلسطين ، فهم وقتها أكثر من أربعين مليون عربي في مواجهة أقل من نصف مليون يهودي . وبالتالي سرى الكمال على أن حشد الناس إذا كانت فيه الزيادة تحققت له الفلبة .

ولم يكن ذلك صحيحا ، بل إنه لم يكن صحيحا بحساب الأعداد ، إذا كان لا بد أن تستقيم قواعد الحساب .

ففي حين وضع العرب على كل جبهاتهم ما يصل إلى ٣٧ ألف جندي ، فإن الوكالة اليهودية في فلسطين تمكنت من حشد ٨١ ألف مقاتل .

وكان معظم ضباط الجيش الإسرائيلي ممن سبق لهم الخدمة في جيوش الحلفاء أثناء الحرب ، وكذلك كان حال كثيرين من جنودهم .

وكان الحال نفس الشيء فيما يتعلق بالسلاح والمتاد . وفي الطيران مثلا كان لدى العرب مجتمعين ما لا يزيد عن ٣٠ طائرة ، في حين تمكنت الوكالة اليهودية في بداية شهر يونيو ١٩٤٨ من أن تصل بعدد ما لديها من الطائرات إلى ٧٨ طائرة .

● إن الجيوش العريضة كلها لم تخلق توجهها سياسيا محددا بشأن الأهداف التي كان عليها أن تحقّقها في فلسطين - على فرض أنه كان في كفاية وسلطة أي قيادة سياسية وقتها أن تحدد لجيوشها هدفا - ولقد كان ما لدى هذه الجيوش أوامر بـ"التحرك إلى أماكن داخل فلسطين" تقع كلها في إطار خطوط التقسيم داخل ما كان يفترض أن يكون "دولة فلسطينية عربية" . وقد تحركت هذه الجيوش إلى حيث كان مطلوبا منها أن تتحرك ، واقتبكت في طريقها بمصادر تيران أطلقت عليها . ومن ذلك مثلا أن الجيش المصري في طريقه إلى غزة اقتبكت مع مستعمرة "كفار ضرور" ومع مستعمرة "نهر سنيد"

لكنه وصل إلى الأطراف الشمالية لغزة وتوقف هناك ، ولم يكن في أوضاعه ما يدفعه إلى أبعد !

● إن إمداد الجيوش العربية - والجيوش المصرية بالذات - بما يلزمه من أسلحة وذخائر ، بعد أن تحولت قضيته من مجرد انتقال إلى أماكن في فلسطين إلى احتمال قتال في هذه الأماكن ، كان يجرى بطريقة لا تدعو إلى الاطمئنان .

فالملك "فاروق" - عن طريق صلات غامضة بالإنجليز - كان يبدو وانفعا من قدرته على تحصيل بعض الأسلحة والذخائر من القواعد البريطانية في القناة بوسائل من نوع ما . ولعل بعض أصدقائه من المسكرين الإنجليز أقتنوه أنه في استطاعتهم أن ينفقوا عيونهم وأن يتركوا كميات من الأسلحة والذخائر تطرح من القواعد في منطقة قناة السويس سرا ، بينما الأمر في حقيقته قرار يعطيه بعض ما يحتاجه للجيش ، حتى يقدر على عرقلة توسع الدولة اليهودية خارج حدود التقسيم ، ومن ثم يتحلق لبريطانيا هدفان في نفس الوقت :

○ إبقاء الاتصال ما بين القواعد البريطانية في المنطقة - : قاعدة قناة السويس في مصر ، وقاعدة الزرقاء في الأردن ، وقاعدة الحبانية في العراق - متقوياً .

○ ومن ناحية أخرى الأمل في تحويل أنظار الشعب والجيش في مصر من هدف طلب جلاء بريطانيا عن الأراضي المصرية ، إلى هدف آخر في فلسطين . وهكذا تشغل مصر ويستريح بال بريطانيا .

وكانت الوسيلة الثانية التي اتبناها الملك "فاروق" وزير حرييته اللواء "محمد خير" باشا هي إرسال بعثات شراء سلاح إلى أوروبا ، وإيطاليا على وجه التحديد ، لشراء مخلفات عسكرية مما تبقى هناك من معارك الحرب العالمية الثانية ، وبما لم تكن له قيمة ، تمرى الجيوش المحاربة أن تحمله مرة أخرى حين تعود إلى أوطانها . فقد كانت معظم هذه الأسلحة والذخائر متروكة في المرايا لسنوات ، أو مكندسة في مخازن مهجورة ، مما أثر على صلاحيتها كثيراً .

وقد أدى ذلك إلى ما عرف بقضية الأسلحة الفاسدة .



إن القتال في فلسطين اتخذ شكل نيران متقطعة على مواقع متباعدة ، ثم توقف بفضل هدنة اقترحتها وسهط دول هيئة مجلس الأمن لمهمة قرار التقسيم والتوفيق بين العرب واليهود . ثم تجدد إطلاق النار مرة أخرى ، ثم عاد وتوقف .

وكان الوسيط الدولي - وهو الكونت "برنادوت" ابن عم ملك السويد - قد توصل إلى ضرورة أن تكون منطقة النقب في جنوب فلسطين داخلية ضمن الدولة العربية . وكان ذلك مدفوعاً من إسرائيل ، وتقرر سحب الكونت "برنادوت" بالرصاص في القدس ، وبين القتل "إسماعيل شامير" رئيس وزراء إسرائيل فيما بعد ، وهو وقتها واحد من المقاتلين في "حركة اللهي" التابعة لمجموعة "الأرجون" الإرهابية ، وهي نفس المجموعة التي تلت وزير الدولة البريطاني اللورد "مورين" في القاهرة قبل حرب فلسطين بثلاث سنوات ١

ثم تطورت الأمور بعد مقتل الوسيط الدولي إلى حد دعا إلى عقد دورة عاجلة لمجلس الأمن في قصر "شايفو" في باريس .

وعلى هامش هذه الدورة الاستثنائية لمجلس الأمن في طريف سنة ١٩٤٨ دارت اتصالات مباشرة بين العرب واليهود . وعقد رئيس الوفد المصري هناك ، وهو وزير الخارجية المصري "محمد أحمد خفيلة" باشا ، اجتماعين مع "إياهو ساسون" .

وفي القاهرة حاول الحاخام "حاييم ناحوم" أفندي مع الملك "فاروق" . وقام الملك بإرسال وكيل الديوان "حسن يوسف" باشا إلى باريس ، ومعه مستشار الملك العسكري (نذير شافيت) الأميرالي "إسماعيل شيرين" بك ، وانضم إليهما الوزير المفوض "عبد النعم مصطفي" . والتقى الوفد الملكي المصري مع "إياهو ساسون" الذي جاء معه بفياط إسرائيلي - (يعمل أن يكون "ديان" أو "آلكسون") - وعقد الطرفان ثلاثة اجتماعات لم تصل إلى نتيجة .

كانت مصر قد بدأت تكتبه إلى موضوع النقب وأهميته ، وربما لفت نظرها تقرير الوسيط الدولي الذي رأى وجوب بقاء النقب ضمن حدود الدولة الفلسطينية .

وكانت خفيلة مصر من ضم النقب إلى الدولة اليهودية تنبع من أسباب مختلفة :

١ - إن امتداد الدولة اليهودية إلى النقب يجعلها واصله إلى البحر الأحمر ، ومعنى أن تصبح الدولة اليهودية ممتدة من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر ، أن موقع إسرائيل سوف يوازي موقع مصر على منطقة ما بين البحرين ، وهي المنطقة "المفتاح" في استراتيجية الشرق الأوسط .

٢ - إن ذلك الوضع سوف يعزل مصر بها عن بقية الدول العربية .

٣ - إن احتمال تعمير النقب سوف يأتي بكثافة سكانية يهودية تعيش على جوار وتماس مع الحدود المصرية ، وهذا يعطي الفرصة لتجدد الاختباكات .

٤ - ثم إن الكتلة السكانية اليهودية سوف تتركز في مستعمرات على النمط الذي عرف في فلسطين - وكانت الصورة عنه في مصر أنه نمط من الحياة الشيوعية - وفي رأى مصر فإن ذلك خطر يهددها بسدوى انتقال المبادئ الشيوعية إليها !

وكان أن فعلت الاتصالات المصرية - الإسرائيلية بسبب إصرار الدولة اليهودية على ضم النقب إليها ، خلافا لما يقتضيه تقرير الوسيط الدولي المقبول الكونت "برنادوت" . وهكذا فإن ما تمسح الاتفاق عليه في قصر "هايمو" في باريس ، ارتد مرة أخرى إلى المنطقة وطرح ثامه على مهادين إطلاق النار في فلسطين . . .

وكانت تلك طبيعة الأفياء بين طرف يعرف ما يريد ويصمم على بلوغه ، وطرف ثان تلبه متأخرا إلى ضروراته وحرص يحافظ على الحد الأدنى منها .

وكانت عجلة الحوادث تدور لم تتوقف بهدنة أو جلسات حوار تعقد في السر في عاصمة النور : باريس !

الأسـون

" إعطونا القلب ولا تجعلوا إسرائيل دولة صغيرة
محسورة "

(هيئة الوزارة الإسرائيلية في رسالة إلى الرئيس
الأمريكي)

كانت الأطراف الدولية المهتمة بالشرق الأوسط وما فيه من موارد استراتيجية واقتصادية ، تتابع ما يجرى على أرض فلسطين عارفة أنها أمام لحظة فاصلة في تاريخ المنطقة ، وأن ما يجرى على الأرض في مهادين القتال سوف يصنع شكل المستقبل في المنطقة ويرسم لها خريطة جديدة لا تقل أهمية عن خريطة "سايكس بيكو" . فخرطة "سايكس بيكو" كانت ترسم علامات حدود ، وأما الخريطة التي ستظهر بعد الحروب فسوف ترسم مواقع قوة وتأثير .

وكان الفارق بين الأداء العسكري للحرب وللهيود موضوع متابعة دقيقة في مواسم مختلفة ، وكانت واشنطن أولها . وكانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية التي أنشأها "ترومان" حديثا هي أنشط الأجهزة الأمريكية التي ركزت على الشرق الأوسط ، خصوصا وأن التأمين المبكر لموارد البترول العربي وضع تحت اختصاصها المباشر .

يوم ٢٧ يوليو كتبت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تقريرا عن مسار الحرب (وثيقة رقم ٤٨ - ٣٨ ORE - سرى) وجهته إلى مكتب الرئيس "ترومان" وإلى وزير الدفاع ، جاء فيه :

إن المارك التي تجري الآن أصبحت في جزء كبير منها معارك شكلية تتمثل في اشتباكات عهوائية وإن كانت متلاحقة . وبالتأكيد فإن إسرائيل نجحت في هذه المعارك ، كما أنها استطاعت بشدة من فترات الهدنة . وطبقا لكل المصادر المتاحة لنا فإن اليهود أثبتوا قوتهم ، مما يسمح لهم الآن بتوجيه ضربة واسعة النطاق لإخراج القوات العربية من فلسطين . إن القوة اليهودية فالت كل التوقعات السابقة . ومن الملاحظ أن هذا البلد الناهض الصغير استطاع من الناحية التنظيمية أن يتفوق على دول أكبر منه وذات أوضاع مؤسسية أقدم . ويكفي لبيان ذلك دراسة التقديرات التالية لحجم القوات التي استطاعت الدول العربية حشدتها من جانب ، واستطاعت دولة إسرائيل حشدتها من جانب آخر :

القوات :	لها في فلسطين	لها بالقرب من فلسطين	المجموع
الأردن	٦٠٠٠	٤٠٠٠	١٠,٠٠٠
العراق	٩٠٠٠	١٠٠٠	١٠,٠٠٠
مصر	٥٠٠٠	٨٠٠٠	١٣,٠٠٠
سوريا	١٠٠٠	١٥٠٠	٢,٥٠٠
لبنان	—	١٨٠٠	١,٨٠٠

(يُدخل في الحساب

قوات الداخل اللبناني)

الملكة العربية			
السعودية	٣٠٠٠	—	٣,٠٠٠
قوات متطوعين			
من جنسيات			
عربية مختلفة	٣٠٠٠	٣٥٠٠	٦,٥٠٠

وبهذا يكون مجموع القوات العربية في فلسطين ٣٧,٠٠٠ ، وبالقرب منها ١٩,٨٠٠ ، والمجموع كله ٥٦,٨٠٠ .

وأما فيما يتعلق بحجم القوات الإسرائيلية ، وكلها داخل فلسطين ، فهي
على النحو التالي :

قوات ضاربة متحركة	١٧,٠٠٠
قوات نصف متحركة (للمهام المحلية)	١٨,٠٠٠
قوات جيش الدفاع	٥٠,٠٠٠
قوة الأرجون	١٢,٠٠٠
قوة جماعات شتيرن	من ٤٠٠ إلى ٨٠٠

وأما إسرائيل فقد استطاعت أن تصل حجم قواتها إلى ٩٧,٨٠٠ مقاتل .

وهكذا فإن الولايات المتحدة ، إلى جانب أي ارتباط عاطفي أو سياسي اكتشفت بالاختيار
على أن القوة الحقيقية يمكن أن يكون لها حساب يختلف عن حسابات الأعداد
والأحجام ! في منطقة مزدهرة بالمصالح الأمريكية .



إن النتائج التي أسفرت عنها تجربة الحرب كما شرحها تقرير وكالة المخابرات
المركزية الأمريكية ، جاءت مقدمة طبيعية لأمر رئاسي صادر عن الرئيس "ترومان"
وموجه إلى وزير الخارجية "مارشال" بتاريخ ١١ سبتمبر ١٩٤٨ ، نصه كما يلي :

"ملكرة إلى وزير الخارجية مارشال

من الرئيس

١ - كما تعلم فإنني منذ أصبحت رئيساً أعطيت تأييدي باستمرار لإنشاء
دولة مستقلة لليهود في الشرق الأوسط . إن الولايات المتحدة أخذت
مركز القيادة في إنهاء هذه الدولة المستقلة ، وأنا أعتقد أن ذلك لا بد أن
يستمر .

٢ - إنني أعتقد أن تأييداً أمريكياً قوياً للدولة الجديدة في فلسطين سوف يؤدي إلى تثبيت الأوضاع في الشرق الأوسط ، وسوف يساهم في تحقيق السلام العالمي .

٣ - إننا الآن مهتمون بتقديم معوناتنا الاقتصادية والمعنوية إلى اسم أوروبا العربية لكي نستطيع أن نمنع انتشار الصهيونية . وأنا أعتبر أنه من الضروري في نفس الوقت أن تقدم نفس المساعدات الاقتصادية لإسرائيل وللصليب الأحمر .

.....
.....

٤ - إنني ألاحظ أن ١٤ دولة قد حذت حذونا في تقديم اعترافها العلني بإسرائيل ، وكان ذلك تحت تأثير الولايات المتحدة . وكان له بالتأكيد أثره في المساعدة على استقرار الأوضاع في الشرق الأوسط .

٥ - وبالنظر إلى ما سبق فإنني أرحب في متابعة ذلك بالإجراءات التالية :
(أ) جهز وأعلن اعترافنا القانوني بإسرائيل على الفور .

(ب) رتب لتقديم قرض لإسرائيل فور إتمام الاتفاق على تفاصيله .

(ج) اتخذ الإجراءات العملية لمساعدة إسرائيل في الحصول على هوية الأمم المتحدة .

إنني عاكف الآن على صياغة إعلان من جانبنا يعترف بإسرائيل قانونياً ، وسوف أبحث به إليك إذا كانت لديك مقترحات . وعليك أن تهلني بالخطوات العملية التي ستتخذها بالنسبة لمساءلة القرض ، وبالنسبة لقبول إسرائيل عضواً في الأمم المتحدة .

هاري ترومان "



كان موضوع النقاب هو الموضوع الملحق لمبهدين :
أولهما : أن تقرير "برنادوت" الذي كان حتى هذا الوقت الخريطة المطروحة على الساحة الدولية ، يعطي النقاب للعرب ، ويقترح ضمّه إلى الأردن .

وفانهمما : أن النقب حتى هذه اللحظة كان لا يزال تحت سيطرة القوات المصرية التي تعمل على الخط من "بيت جبرين" (على اتصال مع الخطوط الأردنية) إلى "المجدل" على شاطئ البحر الأبيض .

وكانت إسرائيل على استعداد أن تفعل كل ما من شأنه أن ينتزع النقب من العرب ، سواء في ذلك ولاية الملك "عبد الله" المقترحة عليه أو وجود الجيش المصري فعلياً فيه . وقد أصبح النقب بالفعل هو الموقع الأساسي بالنسبة للجيش المصري في فلسطين .

وفي ٤ أكتوبر ١٩٤٨ كتب السفير الأمريكي في إسرائيل "ماكدونالد" - وهو واحد من أشد الموالين لدولة اليهودية ، وهو من اختيار الرئيس "ترومان" شخصياً - تقريرا من تل أبيب موجها إلى وزير الخارجية ، ومثله إلى البيت الأبيض نصح كما يلي :

"برقية رقم ٤٤٨ - ب ب ١ ٥٠١

(سري وعاجل)

مخمس للرئيس ولوزير الخارجية

عندما كان توكس (نائب وزير الدفاع الأمريكي الذي أرسل على مجل إلى تل أبيب لتغيير الموقف) هنا إلتقينا بالقيادة الإسرائيلية مجتمعة ، وكان خاظم هو مستقبل النقب واحتمال ضمه إلى الأردن . وكان رأيهم كما يلي :

١ - إن الولايات المتحدة لها من إسرائيل صديق ثابت وقوي ، وهو صديق ينتمي إلى الغرب سياسيا وثقافيا ، وقد ساعدته الولايات المتحدة ، وبالتالي فإن هذا الصديق الذي يهتم بالعرفان للتأييد الأمريكي سوف يكون في المستقبل استثمارا ناجحا .

٢ - إن الدول العربية ضعيفة كلها ثم هي متأرجحة في سياساتها . ومدانقتها للغرب وللولايات المتحدة يصعب إيجاد دليل عليها . وإذا كان هناك دليل فهذا الدليل هو موقف العرب أثناء الحرب العالمية الثانية ، وهو موقف لم يكن مواليا للغرب .

٣ - إن الولايات المتحدة لا ينبغي لها أن تقبل أي سياسة من شأنها أن تعطي النقب إلى الأردن . وإذا تورطت الولايات المتحدة في مثل هذه السياسة فإنها لن تكسب رضا العرب عنها ، لكنها سوف تؤثر على قوة إسرائيل وتجعل منها دولة صغيرة محصورة تهمر بالمرارة تجاه الولايات المتحدة ."



إن القيادة الإسرائيلية في إصرارها على ضم النقب كانت ترى أن ضمه للأردن بقرار دولي يستند على تقرير "برنادوت" أمر محتمل . ولكن وجود الجيش المصري في النقب أمر واقع تتمين مواجهته وتفهيده . وهكذا أعطى "بن جوريون" أوامره بتركيز المجهود العسكري الإسرائيلي على النقب بقصد احتلاله وإخراج الجيش المصري منه .

كانت منطقة النقب من الناحية الجغرافية أخيه ما تكون بمثلث مقلوب ، رأسه إلى أسفل تستند على إيلات في الجنوب ، وقاعدته إلى أعلى تمتد بضمين نحو الشمال بين "بيت جبرين" و"المجدل" . وكان الطريق من "بيت جبرين" إلى "المجدل" يتركز على المحور الإستراتيجي الذي تمثله "الفالوجا" و"مراق المنشية" و"مراق سويدان" . وكانت هذه المنطقة في مسئولية الكتيبة السادسة مشاة التي يقودها الأميرالاي "المهد طه" وشابط أركان حربه المسئول عن التخطيط والعمليات وهو الصاغ (الرائد) "جمال عبد الناصر" .

كانت الهجمات ضد هذا المحور (محور "مراق سويدان" و"مراق المنشية" و"الفالوجا") قد بدأت مبكرا . وقد احتلت الهجمات عليها حيزا واضحا في يوميات "دافيد بن جوريون" . وتكررت الإشارات إليها في هذه اليوميات في كل صفحة من سجلات تلك الفترة وبغير استثناء :

□ □ ١١ يونيو ١٩٤٨

.....
.....

— أخبار من الجبهات . فشل هجومنا على مركز شرطة مراق سويدان .
(صفحة ٣٩٦)

.....

□ □ ٢٥ يونيو ١٩٤٨

.....
.....

- منعت القوات المصرية سفر قافلة كان من المفروض أن تذهب إلى النقيب بموجب قرار الأمم المتحدة الخاص بإمداد مستعمراتنا جنوب الخط المصري في النقيب .
- عادت القافلة إلى قاعدتها . أبلغنا أن المصريين خرقوا الهدنة بمنعهم للقافلة .
(صفحة ٤٣٤)

□ □ ٤ يوليو ١٩٤٨

- تداولت مع ييجال يادين بشأن خطط الحرب في المرحلة القادمة . السلاح الطائرة ستقوم بقصف القاهرة ليلًا من ارتفاع عشرين ألف قدم ، وبعد ذلك تمود لقصف القنطرة ويمشق ثم تهبط في هرتزليا .
- هذه العمليات تساعد في النقيب . .
(صفحة ٤٤٣)

□ □ ٢٨ يوليو ١٩٤٨

- تمت هذه الليلة العملية "جيمس" في الجنوب - هجوم على الفالوجا وعراق المنشية - العملية لم تحقق هدفها . قواتنا صدت ونبئت بخسائر : ٨ قتلى وبعض الجرحى . يقترح شمعون أنهدان شن هجوم آخر هذه الليلة على الفالوجا ولكن باتجاه أكثر انحرافا نحو الشرق . لا أستطيع هذا الأمر . ليس هذا طريق النقيب . سيحاولون مهاجمة الفالوجا مرة أخرى .
(صفحة ٤٨٤)

□□ ٢ أغسطس ١٩٤٨

.....

.....

- ناهوم ساريج (قائد قوات النقب) حفر إلى . حاول المصريون خلال الأيام المشرفة من ٩ - ١٨ يوليو إهلاك النقب بصورة نهائية ، لكنهم لم ينجحوا . لم يقصد المصريون منذ البداية النقب بل البلد كله .

- المصريون هم بلا شك أهم قوة تواجهنا . قوتهم زادت في النقب . يعملون تحت قيادة موحدة لديها خطوط اتصال جيدة . مستوطناتنا في النقب تواجه تعباً وتوتراً كبيراً .

(صفحة ٤٨٧)

.....

.....

□□ ٦ أكتوبر ١٩٤٨

.....

.....

- جلسة الأركان مع قادة الجبهات . هرغت الموقف في الجنوب . يدين معترض على إمكان التحرش بالمصريين من دون إثارة الأردن والعراق والسوريين للكتال . إذا فعلنا ذلك نحتاج إلى قوة كبيرة جداً .

- مساء . اتخذنا اليوم في الحكومة أخطر قرار منذ إعلان إقامة الدولة . بعد تداول مستلخص وافقت الحكومة على اقتراحى باختراق النقب بالقوة لتقويض الجبهة المصرية . سوف نقوم بإبلاغ الملك عبد الله أننا سنمتنع عن الاحتباك مع الفihak العربي ونأمل أن يمتنع هو عن التدخل .

(صفحة ٥٦٥)

.....

.....

□ □ ٧ أكتوبر ١٩٤٨

.....

.....

- تداولت وجيكوب دورى وييجال يادين في توصيلات المركبة في الجنوب :
يجب الفرب في الجنوب بأقصى مقدار من القوة للمكنة كى تنفذ خلال الأيام
القليلة شيئا معها . الإجهاز على الجيش المصرى كله .

(صفحة ٥٦٦)

.....

.....

□ □ ٨ أكتوبر ١٩٤٨

.....

.....

- وصلت من موسى شروك (الموجود فى باريس فى الدورة الاستثنائية لمجلس الأمن)
أربع وثائق بينها مشروع من إيهو ساسون عرضه على المصريين بشأن حلف صدالة
مهم . يريد المصريون قسم القسم الغربى من أرض إسرائيل إلى مصر ليهبطين :

١ - فى حالة نشوب نزاع مسلح مع إسرائيل فلأنهم يستطيعون الحوض فى المعارك
على تراب أرض إسرائيل لا على ترابهم هم .

٢ - للحيولة دون ضم النقب إلى شرق الأردن وتحويله إلى قاعدة عسكرية
بريطانية - بحسب كلام "المساعد المصرى" (الوزير المفوض عبد المنعم
مصطفى) الذى يقوم بالاتصال مع ساسون - فإنه تلقى برفقة من نائب رئيس
الهياط حسن يوسف طلب فيها أنه أن يعرض مشروع إيهو ساسون على
مستشارين عسكريين وسياسيين تابعين للوفد المصرى فى الأمم المتحدة . يستعين
المساعد بثلاثة مستشارين : اثنان عسكريان وواحد سياسى . مصر
تريد النقب مع غزة . تتخوف مصر من قيام دولة يهودية بسبب :
توسع إقليمي - سيطرة اقتصادية - تغلب الشيوعية .

- أبرقت إلى موسى طالبا وجوب معارضة أى ضم لأى جزء من البلد إلى مصر .
مصر أقوى مملكة فى جوارنا ، ودخولها فى البلد يضر وجودنا كله للخطر . والفق
مسئولو وزارة الخارجية على رأى .

(صفحة ٥٦٨)

□□ ١٧ أكتوبر ١٩٤٨

.
.

- يهلفوننا من بعد ظهر أمس أن العدو يستخدم تميزات من المدافع إلى البالوجا . وقد
دخلت بسبع سيارات شحن إلى عراق المنشية .

- نزل لواء هوديد من الجليل إلى الجنوب هذه الليلة . سيتم تخصيص كتبتين لعمل
هجومى . ربما ستكون هذه الليلة حاسمة .

- فى الرابعة ذهبت مع يعقوب دورى إلى الجبهة . زرنا فى البداية قيادة ييجال
آلئون . وذهبا معا إلى قيادة شمعون أفيدان . ثم توجهنا جميعا إلى قيادة يسحاق ساديه
قائد اللواء الثانى ، وهى فى مزرعة هريبة شمال النقب .

- عند بداية الهجوم خسرتنا أمام عراق المنشية أربع دبابات هوتشكيس . لم
تنخفض معنويات الكتيبة على الرغم من ذلك . وجه إلى فى كل مكان ذهبت إليه سؤال
واحد : كم من الوقت لدينا ؟ ييجال آلئون يعتقد أننا بحاجة إلى أسبوعين لتنفيذ مهمتنا
فى الجنوب . ووفقا لروايات الرفاق فإن المعنويات المصرية قد ارتفعت قهاسا بالمعارك
السابقة . تخندق المصريون وتحصنوا فى كل مكان فى أفضل صورة . عندهم مدفعية
وفيرة .

(صفحة ٥٧٦)

.

□ □ ٦ ديسمبر ١٩٤٨

.....
.....

- جاء الدكتور رالف باتش (الوسيط الدولي بعد مقتل برنادوت) تكلم ساعات طويلة مع
النقراصي رئيس حكومة مصر .

- ركزت على النقب . فرحت له قيمة النقب كمخرج إلى البحر الأحمر بالنسبة
لنا . العرب لديهم من الصحارى ما يكفيهم وهم ليسوا فى حاجة إلى النقب .

- باتش قال بطريقة غير رسمية إنه يتفهم موقفى ويبرره . لكن وضعه كوسيط
صعب .

..... (صفحة ٦٥٣)
.....

□ □ ٩ ديسمبر ١٩٤٨

.....
.....

- إلياهو ساسون وصل من باريس . بحسب قوله ثمة فرص سانحة للسلام . إن
رياض الصلح (رئيس حكومة لبنان - سنى مسلم) مستعد للعمل من أجلنا . ليس للبنان
مطالب وتطلعات إقليمية إذ إن صعب الحرب تثقل عليهم . لكنهم لا يريدون الخروج منها
وحدهم ، وإذا كان يريد أن يخرج الجميع . ليس لرياض الصلح أية فرصة للترقى . وصل
إلى أهلى منصب يمكن أن يصل إليه مسلم فى لبنان ، وليس له أى أمل خارج لبنان .

- هناك غليان فى سوريا ، وقامت هناك حكومة متشعبة . الوضع فى مصر يئس .
الإخوان المسلمون فرس عليهم حل تنظيمهم واعتقل قادتهم ، وكان بعض أفرادهم
يقاتلون فى أرض إسرائيل . إذا سقط النقراصي سيقيم الوفد بزعامة النحاس باشا ويعلن أن
النقراصي أخفق وعليهم تصحيح الخطأ والتأهب لمواصلة الحرب كما يليق .

- لدى عودتى من هنا استأنفت المداورات مع ساسون . تحدثنا عن مصير شزة . طبقا
للمناطق الجغرافى يجب أن تكون شزة داخل إسرائيل ، ويمكن منح الملك عبد الله ميناء

حرا هنا . يعتقد ساسون أن مصر تخاف الآن من قوة شرق الأزدن العسكرية ، وهي لا تريد أن تكون جارة لها .

- سأنته : ألا تخاف مصر من إسرائيل ؟ قال ساسون إن إنجلترا لن تتخلى عن شبرا ، وستعطىها لعهد الله - أى لنفسها - لأن السويس ستنتقل إلى مصر بعد بضعة سنوات . أبلغه رياض المصح أن البريطانيين وعدوا الدول العربية بإعطائها كميات من الأسلحة .

- اقترحت على ييجال يادين الاستعداد لطرد المصريين من النقب . ليس هناك بديل لذلك . حاولت ساسون معاودة الاتصال بالملك عهد الله .

.....
.....

ساسون ا

"يمرنا أن نكون مذاكرة معكم"

(الملك "عهد الله" في رسالة إلى "داويد بن جوريون")

كان تداعي الخطي في فكر "بن جوريون" مترابطا :

- يريد أن يوجه ضربة قاصمة للمصريين ويطردهم من القنب ومن فلسطين كلها .
- ويريد في سبيل تحقيق ذلك أن يثبت من موقف الملك "عهد الله" قبل الإقدام على خطوته الكبرى التي توقع أن تنهي الحرب ليس فقط بقيام الدولة في الجزء المخصص لها وفق قرار التقسيم ، وإنما فيما هو أوسع من ذلك بكثير مما وصل إليه الجيوش الإسرائيلي أو يمكن أن يصل إليه .



وبالنسبة لدواعيه إلى توجيه ضربة قاصمة للمصريين ، فقد بدا ذلك من وجهة نظره مطلوبها بالحاج لعدة أسباب :

١ - مصر كما كانت باستمرار بالنسبة له منذ بداية الحرب ، هي القوة الرئيسية في الميدان . وصحيح أن جيشها في فلسطين لم يكن يهاجم المثلث مع قواتها ، لكن استمرار مصر في ميدان القتال سوف يفرس عليها بالضرورة استعدادا أوسع ، تملك -ولو من الناحية النظرية - أسبابه .

٢ - إن جهود وفده في باريس ، وعلى رأسه "سامسون" ، في الاتصال بالملك "فلورن" وبالحكومة المصرية ، لم تصل إلى النتيجة التي كان يريهاها . فقامت الجبهة المصرية من "المجدد" وحتى "بيت جبرين" لا تزال واقفة في مواقعها ، والمشارك ضحعا في محور "عراق المنشية" و"عراق سويدان" و"الفالوجا" فشلت كلها ، وبالتالي فإن النقيب وهو واحدة من أهم جوائز الحرب في رأيه ما تزال باقية في يد مصر . وحينما حاولوا بالدبلوماسية في باريس أن يعوضوا شجاعة الرجال في "عراق المنشية" و"عراق سويدان" و"الفالوجا" فإن الموقف المصري ظل ينظر بارتباب إلى قيام الدولة ، ويحذر بالمرارة من تردى الأوضاع في فلسطين ، ويتصور - إن خطأ أو صوابا - أن تصحيح ذلك على الجبهة المصرية ممكن . خصوصا وأن النقيب لا يزال تحت السيطرة المصرية .

٣ - وكان تقدير "بن جوريون" أنه إذا نجحت شريته القاسية في هزيمة مصر . فإن مصر لن يكون أمامها إلا أن تعقد معاهدة صلح مع إسرائيل . وإذا حدث ذلك فإن بقية الدول العربية سوف تلحق ، بل إن بعضها قد يسبق إذا ما ظهرت إشارة مبكرة .

٤ - وكان الضوء الأحمر الذي أشار قلق "بن جوريون" في تلك الظروف هو أن مصر أعلنت - عقب اجتماع لمجلس الجامعة العربية بـ عن إقامة حكومة عربية "تكل عموم فلسطين" . واختارت لها رئيسا هو "أحمد حلمي" باشا . وقام هذا الرئيس بتشكيل وزارة فلسطينية اتخذت من فترة مقرا مؤقتا لها . ومع أن "بن جوريون" كان يدرك هشاشة وضع هذه الحكومة ، إلا أن استمرارها في فترة مع بقاء الجيش المصري في النقب قد يؤديان إلى تحويل الخطوط المتهاوية إلى خطوط متعاسكة ، وربما صلابة في يوم من الأيام .

٥ - وكان "بن جوريون" يدرك أن الوضعين السياسي والعسكري للدولة اليهودية هما الآن في دروتها بسبب التأييد الأمريكي . وقد جرب بنفسه مدى تأييد الرئيس "ترومان" في الكبير من الأمور وفي صغيرها . فحين اشكى له الإسرائيليون من أن الولد الأمريكي المشارك في دورة مجلس الأمن الاستثنائية في باريس يتحدث مع الوفود العربية ، وبينها الولد المصري - بلغة لا تظهر فيها حقائق الموقف الجديد - سارع الرئيس "ترومان" فأصدر لوزير خارجيته أمرا ورأسها نصه :

"من الرئيس إلى وزير الخارجية

إنني أطلب ألا ينشأ أعضاء وفدا في باريس بأية تصريحات علنية ، ولا يجرؤوا اتصالات مكتومة مع الوفود الأخرى بغير تصريح مني . كما أنني أريد أن تعرض على الموافقة لعضو ما يقولونه علنا أو مباشرة في اتصالاتهم .

أعضاء

هاري س. ترومان

٦ - ولم يكن "بين جويون" أيها واضعاً عن الاتصالات تجربتها وزارة الخارجية الأمريكية في نفس الوقت مع الملك "فاروق" . وحسب النظر عما يمكن أن تنتهي إليه هذه الاتصالات ، فإن "بين جويون" في هذه اللحظة لم يكن يريد لقاء مصرياً - أمريكا يفتح الباب لخافسة إسرائيلية - عربية على النفوذ الأمريكي . فهو يريد احتكاره لإسرائيل وحدها .



وفي واقع الأمر فإن الاتصالات الأمريكية مع الملك "فاروق" كانت تدور في حلقة مفرغة - كما تظهر تقارير السفير الأمريكي في مصر - وبينها التقرير الوارد في البرقية رقم ٩٤٨ - ١١/ب ب ٥٠١ ، وفي بتاريخ ٩ نوفمبر ١٩٤٨ ، ونصها كما يلي :

"على خلفية اعتقادي :

١ - إن الملك فاروق هو العنصر الفاعل الوحيد في صنع السياسة المصرية الآن.

٢ - وإن مصر إذا تحركت في اتجاه سلام فإنها سوف تحسب الدول العربية كلها وراءها .

٣ - وأنه إذا تحذر إيجاد حل لموضوع القنب فإن الحكومة المصرية سوف تسقط بما لذلك من مؤالف مأسوية .

على هذه الخلفية فإنني أتحرف بأن أحرض مجمل تصوري لخطواتنا القادمة كما يلي :

- يظهر لي أن الملك "فاروق" وإع بالتعهدات التي يمكن أن تنشأ بسبب موضوع القنب . وهو يريد مخرجاً ، واعتقادي أنه مستعد لمفاوضات مباشرة مع الحكومة الإسرائيلية . وأجدني مستعداً لأن أقترح عليكم تحويلي بإبلاغ جلالته أن الولايات المتحدة التي ترغب في السلام مستعدة لتشجيعه في أي خطوة يخطوها من أجل الوصول إلى تسوية . وسأكون متفناً إذا تلقيت منكم تعليمات تسمح لي أن أقوم بذلك .

- ولتشجيع الملك أكثر فإنني أقترح بالتوازي مع ما أسلفت أن تدخل فوراً مع الحكومة المصرية في اتفاقيات من أجل التعاون ، وبالتالي في مجال التعليم طبياً لبرنامج فولبرايت . وإذا ذهب شباب مصريون لدراسة الزراعة والهندسة والإدارة في الولايات المتحدة ، فهؤلاء لن يخدموا وطنهم فيها بعد فقط ، وإنما سيكونون ركيزة للصداقة بين بلدهم وبين الولايات المتحدة .

- ويمكن بعد ذلك أن نتحدث في وقت من الأوقات احتمال تقديم بعض خدمات التشريب في مدارس الجيش الأمريكي للشباب المصريين . وهذا أمر يهتم به الملك فاروق جدا .

- إنني ذهبت إلى مقابلة الأمير محمد علي - ابن عم الملك فاروق وولي عهده - وفي حديث بيننا يوم السبت الماضي أُلح على ثلاثة شروط ضرورية هي :
١ - تحويل القدس .

٢ - إخراج بعض اليهود الروس الشيوعيين من دولة إسرائيل لأنهم خطرون عليها وعلى العرب .

٣ - ضمان الحدود في المنطقة تقترحه الولايات المتحدة وبريطانيا .

ولقد للأمر إنه ليس في مقودونا تقديم ضمانات ، وإن الأمم المتحدة هي وحدها التي تملك هذا الحق ، وإذا فعلت فيه غفلنا جميعا . لكنه يبدو لي أن كل الناس هنا يريدون ختما أمريكيا على أية تسوية ."



كانت تلك هي العناصر التي أخذها "بن جوريون" في حسابه وهو يفكر ويخطط للضربة القاصمة توجه إلى مصر .

وأما رغبته في التثبت من موقف الملك "عبد الله" فقد كان داعيه شاعرا . ذلك أن "بن جوريون" يخشى أنه عندما تبدأ اشتباكات كبيرة مع مصر فإن الرأي العام العربي قد تسهل استثارته . وربما كان في مقدوره أن يوجه ضغوطا لا يستطيع الملك "عبد الله" أن يقاومها ، وبالتالي يضطر إلى استعمال جهفه لتخفيف الضغط من مصر . وحتى إذا لم يكن الملك يرغب في ذلك فإن إسرائيل كانت مطالبة بأن تتحوط لاحتمال أن يدخل الملك بجيشه ، وبهذا يواجه الجيش الإسرائيلي حربا على جبهتين .

وإسرائيل تعرف أن الملك لا يريد أن يصل إلى هذا الوضع ، ويتمين عليها أن تساعد فيمكن من الانتظار ، وإذا استطاع "عبد الله" فإن أبسط واجبات الحذر تفرض على القيادة الإسرائيلية أن تحتفظ بقوات احتياطية لمواجهة كل الاحتمالات : سواء نجح الملك أو لم ينجح في اختيار الانتظار . ومعنى ذلك أن إسرائيل لن تكون مطلقة اليدين في استخدام كامل قوتها لتوجيه الضربة القاصمة التي تريدها إلا إذا تأكدت بطريقة قاطعة . وهكذا كان تكليف "بن جوريون" لـ "إيلياهو ساسون" بأن يستأنف اتصالاته مع الملك "عبد الله" .

وكان الملك "عبد الله" بدوره مستمدا . فقد شابهه هو الآخر إنشاء حكومة وطنية فلسطينية مقرها غزة . ورد على ذلك بالدعوة إلى مؤتمر في لريحا حضره عدد من الموالين له من مدن فلسطين . وهناك جرت مباحثته ملكا على غفلى الأردن : القسرى الذى كان إمارته الأصلية ، زائدا عليه ما تبقى من فلسطين على الضفة الغربية .

ولقد تفاهى الملك أن مصر شنت حملة إعلامية واسعة على فكرة مباحثته ملكا عبر الضفتين ، ورأىها أن ضمه للضفة الغربية يعطى لإسرائيل ما تريد من تمزيق فلسطين ، بل والدولة العربية للرسمية بقرار التقسيم للمغرب فيها .



ولقام "ساسون" بخطوته الأولى . وكتب اللواء "عبد الله التلى" القائد الأردنى لمنطقة القدس :

"على الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الجمعة الموافق ١٩٤٨/١٢/١٠ كلمنى رئيس مراقبى الهندسة الدولى هاتنيا ، وقال : إن الكولونيل ديان يريد مقابلتى فى المنطقة الحرام لأمر هام . فتوجهت لمنطقة باب الخليل حيث انتقنا على الاجتماع . ولما وصلت وجدت ديان ينتظر ومعهُ أحد المراقبين المهندسين لتلك المنطقة . وتقدم ديان وقال إنه يحمل رسالة هامة جدا من شخصية يهودية كبيرة إلى صاحب الجلالة الملك عبد الله . فأخذت الرسالة ووعدهته بتأمين إيصالها إلى الملك . ثم افترقنا بعد أن أكد لى أهميتها وألا يفتحها إلا جلالة الملك نفسه . ولكنى ما كسدت أصل لأقرب نقطة فيها ضوء حتى أحسست بعوامل قوية تدفعنى إلى فتح الرسالة والاطلاع على ما فيها ، فقد كنت أشك فى سحر الأمور وفى نوايا الملك عبد الله . وانخفضت الرسالة فسر ديان بمناقشة الأمر ، وأزلت عنها الشمع الأحمر أمام (مراقبى) الرئيس قسّم محمد وقرأتها ."

كانت الرسالة بخط "ساسون" باللغة العربية التى يجيدها . وكان نصها كما يلى :

"مولائى المعظم

إجلالا واحتراما وبعد ،

أرجو أن تكون جلالتكم بغاية الصحة أدامها المولى عز وجل عليكم .

سعيدى

لقد وصلت الهوم إلى القدس عائدا من باريس لمدة قصيرة جدا للاتصال بجلالتكم إذا تفضلتم وأمرتم بذلك ، والتماون على حل الأمور المعقدة ، والوصول إلى

ما نتمناه جميعاً من إحلال السلام في ربوع هذه البلاد العزيزة على جلاتكم وعلمنا . فأرجو جلاتكم والحالة هذه أن تتكرموا وترسلوا إلى القسوس المساهلين والبحث معي أحد الأشخاص الذين تتقون بهم ، وأن يكون هذا الشخص مصحوباً بالصديق شوكت باها (طبيب الملك عبد الله الخاص ورسوله إلى الإسراييليين في مرات عديدة) . وأن يكون كذلك من المخلصين للقضية المشتركة .

هذا وأرجو أن يأتي هذا الشخص في أسرع ما يمكن . وإن أمكن هذا السبت حيث أوقاتى قصيرة جداً ومضطرب أن أعود إلى باريس في أسرع ما يمكن . هذا وإنني أتمنى أن تصادقني الظروف على التشرّف بمقابلة جلاتكم في إحدى الفرمس السعيدة إن شاء الله . وأرجو أن يكون الشخص الذي سيأتي لمقابلةي حاملاً الكثير من ملاحظات جلاتكم بشأن كافة الأمور لتسترد بها في حديثنا . وأطال المولى بقاء جلاتكم . آمين .

المخلص

إلياس ساسون^(٧)

القدس الجمعة ١٩٤٨/١٢/١٠

ويستطرد اللواء "عبد الله التل" مستكملاً روايته :

"سافرت إلى الشؤون مبكراً صبيحة السبت الموافق ١٩٤٨/١٢/١١ . واجتمعت بجلالة الملك النشأة الثامنة تماماً . وقدمت له الرسالة بمدد أن وضعتها في ملف جديد ختمته بالشمع الأحمر . وما إن بدأ الملك قراءتها حتى انبسطت أساريره وتهلل وجهه فرحاً ، وأعاد إلى الرسالة لأقرأها . ثم خرج برهة ، وعاد معه الدكتور شوكت الساطي طبيب جلالته ، وطوى الرسالة وقال بالحرف الواحد : "تذهب يا باها للقدس وتقابل ساسون للتناهم معه وعبد الله بك (اللواء عبد الله التل نفسه) يساعدك في الأمور الفنية" .

ثم أمر باحضار ورقة بيضاء وبدأ يملأ على الدكتور ما يلى ليهنئه لمساسون :

١ - يصرنا أن تكون مذاكرة معكم .

٢ - تعلمون أن أية مذاكرة منفردة إن لم تكن موقفة فهي ستجر مقاييس من الناحية المربية ، وبالأخص من الخصوم السياسيين فوق ما تتصورون .

(٧) في مراسلاته مع الملك "عبد الله" استعمل "إلياس ساسون" الاسم العربي للزائد لـ "إلياس" (أحد أنبياء اليهود) في اللغة العربية وهو "إلياس" ، ربما بقصد الإيحاء بالقرص .

.....
.....
٣ - قرار مؤتمر أريحا (تتويجه ملكا على شرق الأردن والخطة العربية)
يجب أن يكون بالغ الاحترام ."

وتم اللقاء ، وتكرر مرة ثانية لأن "ساسون" بعد قراءة أولية لرسالة الملك رأى أن
يجب أن يذهب مع "بن جوريون" في تل أبيب .

وفي اللقاء الثاني كان "ساسون" هو الذي يملئ ، والدكتور "فوكمت الساطي" هو الذي
يكتب رد "بن جوريون" على رسالة الملك . وكان الرد كما يلي بلسان "ساسون" نقلا
عن "بن جوريون" :

"حيات لجلالة الملك من نايفد بن جوريون وموسى شرتوك" .

. ولتكني التحيات ، وتبدا نقاط الرد :

١ - إذا كان جلالة سيدنا يرضى في تنفيذ مقررات أريحا فلا اعتراف لنا على
ذلك . ونظن أن من المستحسن أن ينفذها في أسرع وقت ممكن حتى يرضع
خصومه وأصدقائه أمام الأمر الواقع . ولأمر الواقع أهمية كبرى عند دول
أوروبا وأمريكا ، وقد جرينا ذلك بأنفسنا .

٢ - في حالة إقامته على تنفيذ هذه المقررات نرجوه ألا يتعرض للناحية
اليهودية لا يغير ولا يضر ، ويكتفى بالقول بأنه يقدم على ذلك لإنقاذ
ما يمكن إنقاذه وإحادة الهدوء والسعادة إلى الشعب العربي الفلسطيني .

٣ - نرجوه في حالة إقامته على تنفيذ المقررات ألا يحدد موقفه النهائي من
ناحية مصير القدس لا القديمة ولا الجديدة لأننا نعتقد أنه يجب ترك
مسيرها إلى مباحثات واتفاقات بيننا وبين جلالتهم مباشرة في القريب
الماجل . ونعتقد أن هناك حلا يرضيه ويرضيها .

٤ - نصح لسيدنا بإعلان الهدنة الرسمية الطويلة هدنة نالسة . وهذا
يساعد على سحب جهوشه من جميع الجبهات ، واستخدامها في جهات
أخرى إذا ما اقتضت الحاجة ذلك . وإذا كانت الظروف الحاضرة تحول
دون إعلان هذه الهدنة ، فبالإمكان الاتفاق على ذلك سرا بيننا . وفي
مثل هذه الحالة نؤكد له بأننا لن نتعرض بمسوء إلى مراكزه في جميع
الجبهات ونحترمها كل الاحترام حتى نهاية المباحثات ، حتى ولو طال
الأمر شهورا .

٥ - نحن نوصح لسيدنا أن يعمل بسرعة على سحب القوات العراقية من الحدود ، وإحلال قوات أريزية محلها للمحافظة على الأمن الداخلي فقط وإذا فعل ذلك فإننا نؤكد له بأننا لن نمس هذه الأماكن بسوء حتى نهاية المباحثات . أما إذا بقيت القوات العراقية في مراكزها ، فنخشى أن نعظم بها في يوم من الأيام .

٦ - نوصح لسيدنا أن يسمى جهده لسحب القوات المصرية من جنوب القدس والخليل (منطقة التقب) ليعلم من المتعصب السياسية التي يخلقها وجود هذه القوات في أي وقت.

٧ - نوصح لسيدنا أن يتجنب بقدر الإمكان وساطة الأجانب لتسوية الأمور بيننا وبينه ، وأن يفعل مثلاً للمباحثات المباشرة . فإن هذا في نظرنا أدى للذخاج سواء كان من الناحية العسكرية أو السياسية .

٨ - إذا أُهرب سيدنا عن موافقته على النقط السبعة السابقة ، فإن في استطاعتنا أن نؤكد له بأننا سوف نقوم بالنهاية لقرارات أريضا في جميع أرجاء العالم .

ووافق الملك على المقترحات التي بعث بها "ماسون" ، وتم ترتيب لقاء بينه وبين "ماسون" في القوينة ، وقد حضره "صديقنا الأهمير" وهو الوصف الذي كان الملك "عبد الله" يطلقه على "موسى ديان" .



كان "بن جوريون" ملي ثقة من أن اللحظة المناسبة قد جاءت لتوجيه ضربة القاصمة إلى مصر . وفي حساباته للموقف فقد أضاف الجانب السياسي إلى الجانب العسكري . وكان تقديره أن مصر في حالة فوضى تشل قواها وتجعلها مكشوفة أمام أي ضربة مفاجئة ومعنفة . وقد عند هذه الأسباب في اجتماع للقيادة أشار فيه إلى التوتر النافس بسبب حل جماعة الإخوان المسلمين ، والشكوك المترسبة من إضراب البوليس قبل شهر ، وحالة الإحباط العام التي يعاني منها الجيش المصري بسبب تعرضه للتفوق الإسرائيلي في العمليات وفي قوة الطيران . ثم الإحساس بالمرارة لدى جماهير الشعب المصري العامة .

وتستكمل يوميات "بن جوريون" بقية القصة :

□□ ٢٢ ديسمبر ١٩٤٨

.....

.....

- في الساعة ١٦:٠٠ (الرابعة بعد الظهر) تبدأ العملية حوريف (الكتربين في التلعب . سلاح الجو يهاجم غزة و خان يونس والعريش . سلاح البحرية يقصف غزة و خان يونس . سلاح المشاة سيبدأ فساداً صاعداً مهاجمة استحكامات خط غزة من أجل التفتيل. الهجوم الحقيقي في الجنوب يبدأ يوم الجمعة ٢٤ ديسمبر .

- الجنرال رايلي (كبير مراقبي الهندة) أبلغ شلواخ أن المصريين لن يهجروا مفاوضات الهندة معنا ما دنا لا ننفذ قرارات مجلس الأمن . أصدرت تعليمات للرد على رايلي بأن الحكومة في هذه الحالة تحتفظ بحرية العمل من أجل الدفاع عن نفسها وتسرّع السلام .

..... (صفحة ٦٧١)

.....

□□ الجمعة ٢٤ ديسمبر ١٩٤٨

.....

.....

ذهبت إلى فحبة العمليات لاستجلاء وضع الجبهة ، وقيل لي إن ييجال يدين توجهه إلى بحر سبخ . خابرت قيادة الجبهة الجنوبية هاتفياً لكي يستوقفوه في الطريق ويقابلوني . قلت له إنه لا بد خلال تنفيذ عملية "حوريف" من إخضاع الجيب المصري المحاصر في الفالوجا . لا بد من قصف الفالوجا من دون حيلة إلى أن يستسلموا .

.....

.....

□□ ٢٦ ديسمبر ١٩٤٨

.....
.....

- بموجب التعليمات حشدت أمام القالوجا ٨ مدافع هاون عيار ٦ بوصة . و ٨ مدافع هاون عيار ١٢٠ ملم ، و ٤ مدافع ٧٥ ملم ، ومدفع ١٠٥ ملم ، ومدفع ٥٠ ملم مضاد للدبابات ، و ٤ مدافع ٦٥ ملم . إضافة إلى ١٦ مدفع هاون وصلت أمس . ("لماذا أمس فقط؟")

- بدأ القصف . كل الأسلحة التي يملكها اللواء الثالث بقيادة الكسندروني تعمل . تم قصف القالوجا من الجو ثلاث مرات .

- الأسطول يواصل العمل . قصفوا غرزة ورفع من البحر . قاموا برحلات استطلاعية حتى بورسعيد .

.....
.....

□□ الاثنين ٢٧ ديسمبر ١٩٤٨

.....
.....

- في الساعة ١٦:٠٠ بعد الظهر بلغوني من وحدة العمليات أن العوجة في أيدينا وأن طريق بئر عسلوج العوجة في أيدينا تقريبا ، ويحتنون أنه سيكون كله في أيدينا عند حلول المساء .

.....
.....

□□ ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨

.....

.....

- يبلغوننا أن عراق المنشية في أيدينا ، لكن المصريين في الفالوجا يهبطون . في
الماصرة ومصريين دقيقة أبلغت أن طائراتنا هاجمت الفالوجا قبل ساعة تقريبا .

- حفر سلومو شامير قائد الجبهة الشرقية . هناك تحركات على جبهته من بعض
الوحدات العراقية . قلت له إنهم ملزمون بكميت الفرائز حتى انتهاء العملية في الجنوب .
إن نلجأ إلى معارك أخرى خلافنا نقرأنا .

- سقوط الفالوجا عندما يحدث سيحسم مصير غزة .

.....

.....

□□ ٣٠ ديسمبر ١٩٤٨

.....

.....

- يجمال آلون يبلغني أن الموقف في الجنوب طيب . الجيش المصري مشكت . هناك
قوات في القسيمة لكن تنظيمها يتطلب وقتا طويلا . وفي المنطقة المتحدة من شمال غزة
حتى العريش توجد سبع كتائب نظامية منها كتيبة ١٢ ، وهي كتيبة جديدة أحضرت من
مصر .

.....

.....



صباح يوم ٣٠ ديسمبر ١٩٤٨ كانت الجبهة المصرية تواجه موقفا بالغ الصعوبة . فقد واصلت قوة خارية من الجيش الإسرائيلي بقيادة "بيجال آلون" زحفها من القسمية داخلية إلى الحدود المصرية ومتقدمة في اتجاه مطار العريش . وبذلك أصبحت القوات الرئيسية للجيش المصري في قطاع غزة معزولة عن قيادتها وقواتها الاحتياطية في العريش وزلج . ولم يكن الموقف خطيرا فقط ، لكنه كان مهيبا أيضا لأن "بن جوريون" بدأ يتحدث عن غزو مصر . واستند القلق بالملك "فاروق" ، فاستدعى السفير الأمريكي إلى لقائه وأبلغه بخطورة الموقف ، وطلب إليه نقل ملاحظته إلى الرئيس "ترومان" لكي يتدخل بنفسه في وضع حد لتقدم القوات الإسرائيلية داخل الأراضي المصرية .

ثم استدعى الملك فاروق بعد ذلك سفير بريطانيا "رونالد كامبل" وحمله رسالة إلى رئيس الوزراء "كليمينت آتلي" ووزير خارجيته "إرنست بينن" . ولم يكذ كل من السفير الأمريكي والسفير البريطاني يعود إلى سفارته حتى دعى كلاهما إلى مقابلة رئيس الوزراء ، ثم دعى كلاهما إلى مقابلة الفريق "محمد حيدر" باشا وزير الحربية .

وربما كان أسوأ ما في الموقف أن القيادة المصرية سواء في القصر الملكي أو رئاسة الوزراء أو وزارة الحربية أصبحت شديدة العصبية .

وكانت النقطة الحرجة في لقاء رئيس الوزراء المصري بالسفير البريطاني هي الموقف الذي أفلتت فيه أعصاب رئيس الوزراء فقال للسفير البريطاني بعصبية : "لا بد أن تساعدونا" . وإذا بالسفير البريطاني يقول له : "هل ألهم من ذلك أنكم تريدون إحياء نصوص الدفاع المشترك بمقتضى معاهدة ١٩٣٦ ؟" وتنبه رئيس الوزراء إلى أنه كاد ينزلق إلى محذور ينتفض كل منجزات الحركة الوطنية في السنوات الثلاث السابقة .

ومع أن رئيس الوزراء لم يرد على هذا التساؤل فإن السفير البريطاني وجد فرصة متاحة ، فكتب إلى حكومته بما دار بينه وبين رئيس الوزراء لافتقا للنظر إلى أنه "بصرف النظر عن كل الاعتبارات الأساسية في المواجهة بين العسرب والإسرائيليين ، فإن مصر فلتقت درسا هيرت أنها لا تستطيع الدفاع عن نفسها" .

وكتب رئيس الوزراء البريطاني "آتلي" رسالة شخصية إلى "ترومان" يبلفه بتقرير سفيره في القاهرة ، ويشرح له إلى الفرصة المفتوحة التي يمكن استغلالها لتطوير الحركة الوطنية المصرية . وبعثت وزارة الخارجية الأمريكية إلى سفيرها في إسرائيل برقية برقم ١٧٠٥ نصها كما يلي :

"سرى جدا وعاجل

من وزير الخارجية بالقاهرة إلى السفير ماكسونالد في إسرائيل

واشنطن في ٣٠ ديسمبر ١٩٤٨

يطلب الرئيس ترومان أن تقابل السفير بن جوريون والسفير هرتسوك فوراً وتبلغهما أنك تتحدث باسمي ، وأنت مხოوك في إبلاغ هذه الرسالة أيضا إلى الرئيس وإيزمان إذا وجدت ذلك مفيداً :

١ - لقد قللت الحكومة الأمريكية لدى تسلم تقارير صحيحة تؤكد أن قوات إسرائيل العسكرية اجتاحت أرضاً مصرية . وتؤكد التقارير أن القوات العسكرية الإسرائيلية لم تكن تقوم بتحركات عنيفة ، وإنما كانت تقوم بعملية عسكرية مخطط لها بدقة .

٢ - إن الحكومة البريطانية أبلغتنا أنها تنظر للوضع بقلق شديد . وما لم ترحب قوات إسرائيل من الأراضي المصرية فيكون على الحكومة البريطانية اتخاذ تدابير من أجل تطبيق التزاماتها بموجب معادنتها مع مصر سنة ١٩٣٦ . يبدو أن الحكومة البريطانية تقول أنها لا تريد أن تخوض في نزاع ضد إسرائيل شريطة ألا يتألف هذه في تأزيم الموقف .

٣ - نتذكرون أن الولايات المتحدة الأمريكية هي الدولة الأولى في العالم التي اعترفت بحكومة إسرائيل المؤقتة والتي تبنت طلبها للانضمام للأمم المتحدة كدولة محبة للسلام .

.....
.....

٤ - إن الانضحاب الفوري للقوات الإسرائيلية من الأراضي المصرية يبدو مطلوباً ولذا على الدوايا السفلية لحكومة إسرائيل المؤقتة "

وكان آخر شيء يريده "بن جوريون" هو أن يحدث بينه وبين الأمريكيين خلاف . وهكذا عاد من زيارة كان يقوم بها إلى ميانمين القتال ليمقد اجتماعها عاجلاً للحكومة يقابل بعده السفير الأمريكي .

ويكتب "مفيد بن جوريون" في يومياته :

□□ الجمعة ٣١ ديسمبر ١٩٤٨

.....
.....

- اتصل بي موسى شروتوك . السفير الأمريكي ماكديونالد لديه معلومات أن يقابلني فوراً في أى مكان أكون فيه . دعوتـه إلى هنا . بدأت فلفت نظره إلى لهجة الرسالة المتزمتة ، وقلت له إنها تـؤلنى . وكان يمكن ليهفن نفسه أن يكتبها بهذه الصيغة . ثم أوضحت له النقاط التالية :

١ - إننا ندين بالشكر للولايات المتحدة على صداقتها وعلى مساعداتها لنا .

٢ - إننا آخر شعب في العالم يرهب في انتهاك السلام في الشرق الأوسط أو في أى مكان آخر. إننا شعب صغير جدا ولا نستطيع البقاء إلا بالسلام . إن ما نفعله هو دفاع عن النفس .

٣ - لقد أعطيت أوامر بالتحارب للقوات الإسرائيلية من الأراضي المصرية .

- فرح السفير لى أن الولايات المتحدة تحركت بسرعة كي تحول دون أى عمل جدى في مجلس الأمن ، أو أى عمل قد يفكر البريطانيون في القيام به خصوصا أنهم كانوا على الأقل سيعطرون تقدمهم أسلحة للمصريين إذا كانوا يرفضون بعد ذلك في مواصلة المفاوضات لترتيبات تحمل محل معاهدة سنة ١٩٣٦ .

- أبلغت آللون قائد العملية في الجنوب أن يدمر كل شيء في العريش قبل أن يتركها ، وأن يواصل تشديد الضغط ضد غزة وضد الجيب في الفالوجا .

- للمصريين في رفح نحو مائة قتيل ومائتي جريح ، وهناك نحو ٦٠٠ أسير بينهم نحو ٢٥ شابطا .

- آللون يطلب يومين للتسحاب ولتدمير كل ما يمكن تدميره في العريش ولحرب الطرق .

- القوات المحاصرة في الفالوجا قامت بهجوم مضاد وجرى ضربها بالطائرات .

- لا بد من استعمال أقصى درجات الحزم والقسوة مع الجيش المصرى حتى يتعلم درساً لا ينساه ، ولا يستخف بمده بقوة إسرائيل وقدرتها على سحق أعدائها .

.....
.....

□ □ ٦ يناير ١٩٤٩

.....

.....

- تسلمنا أول أمن بيانا أرسل من القاهرة إلى نيويورك بعد ظهر يوم ٤ يناير ،
وجه إلى مكتب الأمم المتحدة في جنيف ، نصه :

٣" إذا تم تفضيد وقف القتال بغضلية حتى ٥ يناير الساعة ١٤:٠٠ بتوقيت جرينتش فإن
الحكومة المصرية مستعدة لإصدار تعليمات إلى مطلبها لبدء مفاوضات فورية مع ممثلي
إسرائيل . ستجرى المفاوضات برئاسة الأمم المتحدة .

.....

.....

.....

.....

.....

□ □ ٨ يناير ١٩٤٩

.....

.....

- تأملات أمنية في العام الماضي قلنا بالقوة الكبرى في تاريخ شعبنا . أسسنا الدولة
المصرية . أقمنا جيش الدفاع الإسرائيلي ، وحررنا الشعب والجنيل وأعتقنا أراضيهما من
أجل الاستيطان الواضح . أحضرنا أكثر من ١٢٠,٠٠٠ يهودي مهاجر من المنفى خلال عام
واحد . كسبنا ود أكبر دولتين في العالم : الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي . وأصبحنا
عنصرا سياسيا في الشرق الأوسط وفي العالم بأسره .

.....

.....

□□ ١٠ يناير ١٩٤٩

.....

.....

وصلنا إلى إيلات ، وأطل جيشنا على البحر الأحمر .

.....

.....

□□ ١٦ يناير ١٩٤٩

.....

.....

- في العاشرة مساءً خاطبني يوجال يادين . عاد ديان بعد لقاء مع الملك عبد الله .
سبحر إلى هنا فدا . المحجوز عبد الله يشكو من الإنجليز ويطلب عدم ترك المصريين لا
سمح الله في شرة . من الأفضل أن نسلمها إلى الشيطان - أن نأخذها نحن .

.....

.....

□□ ٢٩ يناير ١٩٤٩

.....

.....

- الهزيمة العربية كاملة . لكنني أخشوف طوال الوقت من نكبات في العالم العربي
تدور إلى إلغاء حركة شبيبة وتدريبها ، وتوحيد قيادة الجيوش العربية وتقديم ممانع
للسلاح ، وتطبيق عقوبات اقتصادية علينا ، وتلفي الامتيازات التي تمكن الامبريالية من
السيطرة على العرب ، وإثشاء تنظيمات عمالية ، وتميز الصناعة والخدم المصرية ، وفتح
مؤسسات للتعليم العالي ، وإزالة الحدود الجمركية بين البلاد العربية ، وتنظيم حماية

فعالة في العالم . هذا هو الطريق الذي يحلم به العرب ، وأنا أتخوف طوال الوقت من أن يقوم زعيم عربي بتهافتهم عليه . إنهم يتجاهلون العقبات الداخلية والخارجية والوقت اللازم للوحدة . والويل لنا إذا كنا لا نعرف كيف نمتثل هذا الوقت لكي نلحق ونتحصن ، ونمتلك مكانة في العالم ونثبت لقوم من هذا النوع أن طريق العرب إلى الوحدة والحرية والتقدم ليس طريق شن الحرب علينا .

.....

.....

□□ ١٤ يوليو ١٩٦٩

.....

.....

جاء أبنا إيمان . لا يرى ضرورة للركض وراء السلام . الهدنة تكفيها . فإذا ركضنا وراء السلام فإن العرب سيطلقون منا ثلثا : حدودا ، أو عبوة لاجئين ، أو كليهما . لننتظر بضعة أشهر .

.....

.....



كان المشروع الصهيوني يمشي لحظة انتصاره ، وكانت خطة تنفيذها سهلة إلى حد ما ، فقد جرت على أرض لم تكن واهية لها ، وإذا وعدت فهي لم تكن قادرة على مواجهتها!

ثم إن الخطة كانت مريحة بغير حد ، فالحركة الصهيونية أخذت بلدا بأرضه ، بموارده الزراعية والصناعية ، المقاربة والعمرانية ، ويمرافقه من سوان ومطارات وطرق لم

تتكلف حينئذ غير التحسين والتطوير . علاوة على ذلك فقد أخذت معه نظام إدارة وجهاز حكومة خديما فى عصر الخلافة العثمانية ، وأמיד تأهيلهما فى عصر الإمبراطورية البريطانية.

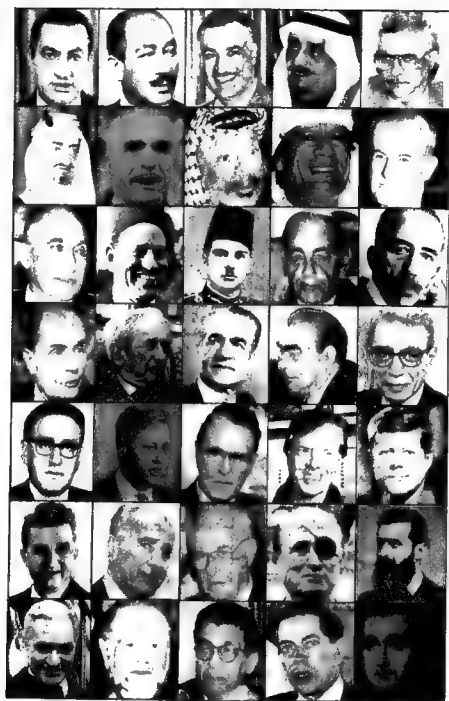
أى أن المهاجرين من شرق أوروبا جاءوا إلى الشرق الأوسط فإذًا دولة مهياة بالنفأة وبالنمو وبالتراكم فى انتظارهم ، وكل ما كان عليهم هو تجهيزها وإعدادها لحوز جديد ، وعصر مختلف .

وبصرف النظر عن الأساطير والمقائد ، فقد كان السلاح هو الذى أكد وحسم . ولم تكن قوة الفكرة وحدها قادرة على دفع موجات الهجرة من شرق أوروبا إلى الشرق الأوسط ، وإنما كانت قوة النار سابقة للهجرة وداعية لها وحامية .

ثم إن السلاح كان هو الذى طرد من الأرض سكانها ، وردع عن الأرض جيرانها ، وأقنع الذين آثروا وساندوا مهما كانت أسبابهم بأن الاستثمار فى فكرة إسرائيل نافع لأغراض كثيرة إستراتيجية واقتصادية وسياسية .

وكان الحاجز المطلوب بين مصر وسوريا فى مكانه وطريقة مؤلة . وربما أن الملك "عبد الله" مير من ذلك كله بصراحة محزنة حين قال أمام "ساسون" و"ديان" : "إن أهل الضمال (سوريا) تهمثروا وأهل الجنوب (مصر) تترفت جباههم فى السراب" .

وكان حلم "تابليسون" القديم قد تحقق . وحلّم "بالرستون" ، و"لويد جورج" ، و"نستون تشرشل" . وقامت الدولة العاجزة العازلة . وانقطع العالم العربى إلى نصفيين ، وقام بين النصفين جدار ينفذ مانعا يتصدى للفصل التاريخى ويصد تياراته المتجددة .



رقم الإيداع ٢٧٥٦ / ٩٦
I.S.B.N. 977 - 09 - 0330 - 2

مراجع الشريعة

الكتاب: ١٦ فراج جواد حسبي..مؤلف : ٣٩٢٤٥٧٨..تأليف : ٣٩٣٨٨١٤
مجلد : ص ٦٥ : ٨٠٦٤ .. مؤلف : ٣١٨٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٧١٣



دار الشروق

ISBN : E : A شارع سينويه المصري - زاوية المدونة

ص.ب : ٣٣ الهلوانا - مدينة نصر

هاتف : ٢٦١٣٣٩٨ - ٢١٢٢٥٤٨

فاكس : ٤٠٣٧٥١٧ (٠٢)

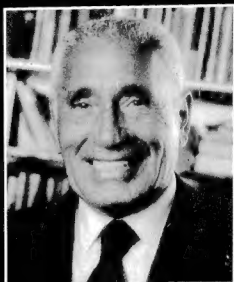
برقيات : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٢

فاكس : ٨١٧٧٦٤ (٠١)

فتجأة، أو حكمة تجلست، أو تنزيلا
علوبا جاء إلى الناس بشرع جديد.

وكانت ذرائع الانقلاب - إضافة إلى
اتهام «الموقف» الأصلي بالجنون،
والوهم، والمغامرة هي الدفع بتغير
الظروف» وكانت الظروف بالفعل تتغير،
وهي باستمرار - على اتساع الدنيا
وتواصل العصور - في حالة تغير
لايشوقف، وإنما كله في إطار التاريخ
الإنساني وحركته من عممة الكهف
إلى سطح القمر.

ومن المفارقات أن «الأخير» كان أكثر
وعيا وعلمًا، فقد ظل في مكانه على
أرض التاريخ الإنساني - بل والأسطوري
غالبًا - وبقي ثابتا على «مقدساته» وعلى
«محرماته». فهي - بعد ادعاء بغياب ألفى
سنة - مازالت: «أرض إسرائيل»،
«شعب الله المختار»، و«ملكة داود»،
و«التلمود»، و«اورشليم»، و«يهودا»،
و«السامرة»، و«هيكلمسليمان»،
و«حائط المبكى»، و«النبي»
وال«هولوكوست»، وهاجس الأمن الذي
لا سبيل إلى طمأنته والشئ
جد بمتغيرات الزمن والظن
قبلة نووية!



المفاوضات السريّة بين العرب وإسرائيل

الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية

إن المعايير اختلفت ابتداءً من
سنة ١٩٧٤. وعندما جاءت سنة ١٩٩٤
كانت العجلة قد دارت دورة كاملة.

سقطت موانع التحرير، كما زالت
دواعي القداسة. لكن وجه الغرابة أن
مجموعات الحقائق والقيم لم تكن تغيرت،
ولا كان سبب الانقلاب نور عقل سطع

دار الشروق

القاهرة: ٨ شارع سيحوية النصر - رابعة العدوية
م. ب: ٢٣ النوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٦٢٣٣٨ - ٢٦٢٣٥٨
فاكس: ٢٦٢٣٥٧ (٢٠٢)

